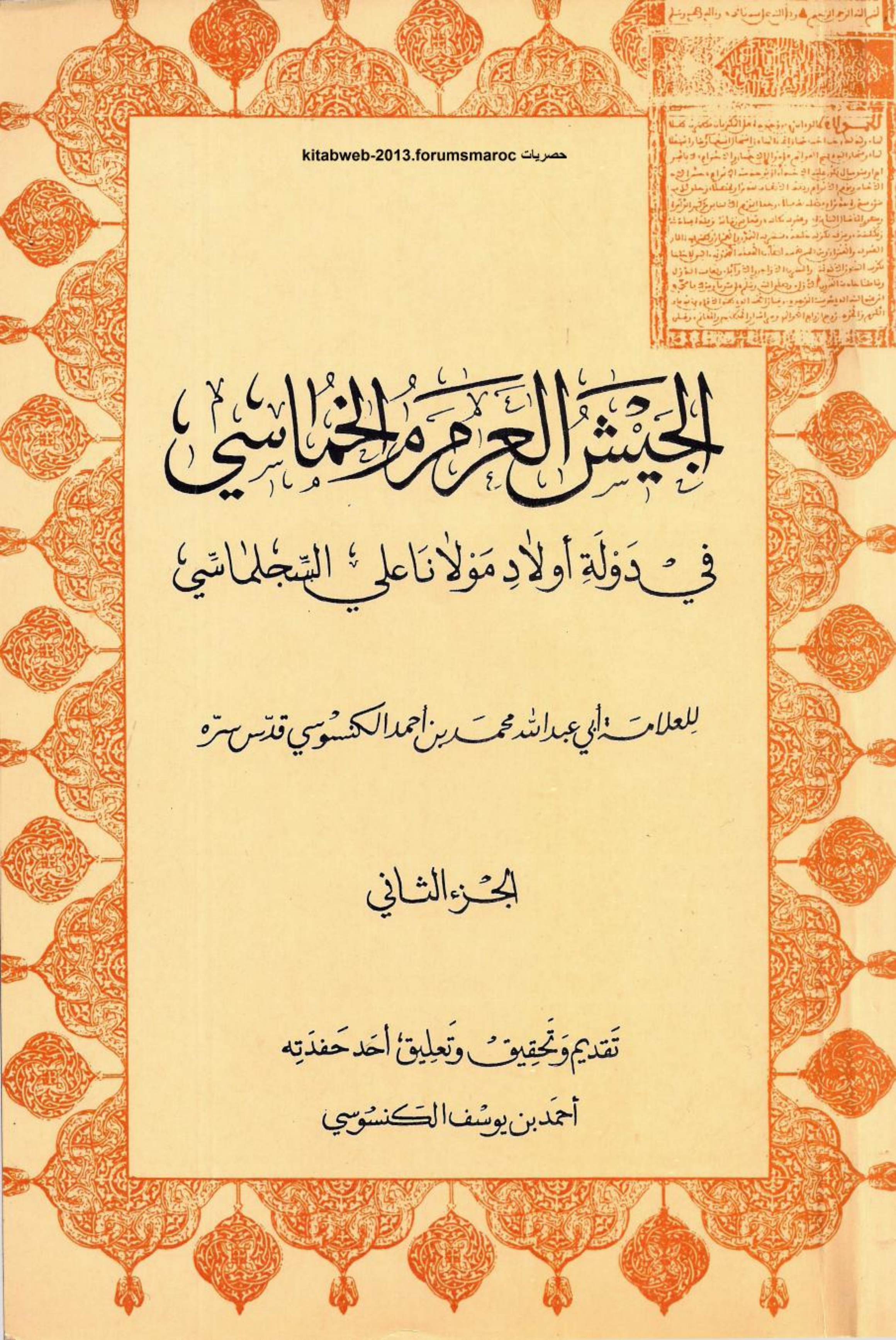

حصريات kitabweb-2013.forumsmaroc
الجيش العرمرم الخماسي
في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي
للعلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي قدس سره
الجزء الثاني
تقديم وتحقيق وتعليق أحد حفدته
أحمد بن يوسف الكنسوسي

الجيش العرمرم الخماسي

في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي

للعلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي قدس سره

المتوفى سنة 1294 هـ - 1877 م

الجزء الثاني

تقديم وتحقيق وتعليق أحد حفدته

أحمد بن يوسف الكنسوسي

ردمك 9981-948-00-4 (المجموعة)

ردمك 9981-948-02-0 (الجزء الثاني)

الراية الحمراء المشرقة اللون
التي لها من الله التأييد والعون
في دولة مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام
بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله
بن مولانا إسماعيل رحمه الله

قد أسلفنا كيفية العهد الشريف المبارك، وأنه أرسل من مراكش في ثامن ربيع الأول، فلما بلغ لحضرة فاس في سادس وعشرين من ذلك الشهر وافق ورود خبر موت السلطان فكأنما كانا على ميعاد، فاجتمع أعيان فاس من الشرفاء والعلماء والقاضي الشريف مولاي أحمد بن عبد الملك العلوي(1) والمفتي العلامة سيدي محمد بن إبراهيم، والتاجر الأمين {شيخ الركب النبوي}(2) الحاج الطالب بن جلول، والعلماء والأشراف، وكبراء الدولة من الوداية والعبيد، فقرئ عليهم العهد المبارك السعيد، فتأسف الجميع علي موت الإمام العادل، وارتفعت الأصوات بالدعاء له والترحم عليه، وبالنصر والتأييد لخليفته المظفر الرشيد، فأخذ القاضي بيده وبايعه، ثم ترادف الحاضرون على تقبيل يده ومبايعته، ووجه من ينادي في المدينة والأسواق لإعلام الخاصة والعامة، فتسامعت القبائل بذلك، فوردت وفود التهنئة من الحواضر والبوادي والأعراب والبربر، وحضرت رؤساؤهم الذين لهم الحل والعقد والأمر والنهي، مثل الحاج محمد بن الغازي الزموري، والحسن وبن حم وعزيز، وعلى هذين تدور دوائر البربر كلهم في ذلك الوقت، فكتبت الكتب الى الأقطار المغربية، فوردت بيعاتهم وهداياهم ولم يخالف أحد، وأرسل الله سواكب الأمطار، وكثرت الخيرات، واتضعت الأسعار، واستبشر الناس بطلعة هذه الدولة الميمونة اللائحة الأنوار، التي أتتها السعادة بدون استشراف ولا انتظار، قال كاتبه ووزيره أخونا في الله الفقيه أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس رحمه الله :

---

(1) أحمد بن عبد الملك العلوي المشهور بـ «دبيزة» ت 1241 هـ 1825 م «الوفيات» ص 8 و «الاتحاف» ج 1 ص 349 وقد حلاه صاحب الاتحاف بقوله : قاضي الجماعة بالحضرتين فاس ومكناس، له مشاركة في الفقه والتصريف واللغة والتاريخ والأدب والتوثيق والمعرفة الكاملة بصناعة الأحكام .

(2) ما بين المعقوفين اضافة من (م).

مولاي بشراك بالتأييد بشراك ... قد أكمل الله بالتوفيق سراك(3)
الفتح والنصر قد وافاك جيشهما ... والسعد باليمن قد حيا محياك
الله ألبسك الإقبال مكرمة ... وبالتقي والنهي والعلم حلاكا
فراسة الملك المرحوم قد صدقت ... لما تفرس فيك حين ولاكا
أعدت للدين والدنيا جمالهما ... فأصبحا في حلى من حسن معناكا
وزارك الغيث غوثا في سحائبه ... فجاد بالقطر قطرا فيه مأواكا

فطلع السلطان لدار الملك وقبة النصر، التي لا يدرك محاسنها الحد والحصر، وكان السلطان المرحوم قد عزل لكل واحد من أولاده محلا من قصوره يختص به، فعين لمولاي الطيب مع أمه رقية بنت عبد الله بن الخضر القصر المسمى بدار عياد الكبيرة، ولمولاي إدريس وأخويه مولاي عثمان ومولاي يوسف وأمهم مشرف القصر المسمى بدار عياد الصغيرة، ولكن ليس للقصور كلها إلا باب واحد وهو الباب الأكبر المعروف، فلما طلع السلطان المؤيد لدار الملك فتح لقصورهم أبوابا الى خارج وسد ما بينهم وبين دار قبة النصر، وأما مولاي علي فإن والده العادل بنى له ولمولاي إبراهيم دارين عظيمتين بفاس البالي، ولم يبق بدار قبة النصر إلا أخته وأمه مولاة الدار للامينة بنت سليمان، فاتفق اسم أبيها مع اسم أبي مولاة الدار لسيدي محمد بن عبد الله للافاطمة بنت سليمان وكلتاهما من شرفاء الأحلاف أولاد مولاي سليمان بن إسماعيل، ومولاي سليمان والد هذه ليس هو ولد مولاي إسماعيل لصلبه بل حفيده، بخلاف مولاي سليمان والد مولاة الدار عند سيدي محمد فإنه ولده لصلبه، وذكرت هذا لأنه وقع فيه غلط لمن يظن به الاطلاع على داخل الأحوال، وقال إنهما أختان متفقتان في أب واحد، فلما طلع المؤيد بعد خروج مولاة الدار وبنتها ورحلتا لدار مولاي علي بفاس البالي لم يتركا في الدار ما يساوي درهما واحدا، هكذا ذكر لي السلطان المؤيد أول ما لقيته يشكو بمولاي علي، قال : والله ما تركوا في الدار حصيرا ولا ما يساوي درهما، فترك لهم ذلك، بل زادهم ورفههم أكثر من أبيهم.

(3) كذا بالأصل ومثله في (م) وفي (ش) أما (ف) ففيها (مسراك).

فلما فرغ من مباشرة الوفود والتهاني التفت الى تمهيد أركان المملكة، فقيد على فاس وصيفه بوجمعة بن سالم الذي كان بوابا على الدار الكبرى بفاس الجديد، ثم بعد مدة قريبة لما أراد السفر قيد عليها سيدي محمد بن الطيب ولد عمه، وأما القاضي فأبقاه على عمله، ثم نهض نهوض العز والإقبال، وخرج من فاس يريد تفقد الممالك ومباشرة أحوالها فبلغ الى قصر كتامة ونزلت المحلة بظهر كدية مولانا إسماعيل، وهناك قدمنا عليه من مراكش ففرح بنا كل الفرح، وبنفس وصولنا أمر بدخولي إليه لشدة تشوقه لخبر مولانا العادل المرحوم، فدخلت إليه وهو في قبته السلطانية، وجلست بين يديه نحو ساعتين، فسأل عن كل شاذة وفاذة داخلة وخارجة، وبعد خروجي من عنده أذن لمولاي عبد السلام بن سليمان لأننا أتينا في صحبته رفقة واحدة، فلما خرجت وجدت الأحوال التي كنت أعرفها قد تبدلت، والأقوام قد تنكرت، وكان قدومي ودخولي على السلطان وفرحه بي قذى في عيونهم، وشجى في حلوقهم وصدورهم، ولما صلينا مع السلطان العصر وردت مكاتب قنصوات النصارى من طنجة، فدعاني السلطان فقرأتها عليه، فذهبت لمحل نزولي مع مولاي عبد السلام، فجاءني الفقيه الكاتب أخونا في الله تعالى سيدي محمد بن إدريس بتلك المكاتب وقال : إن سيدنا أمرني أن آتيك بها لتخبرني كيف كنتم تخاطبون هؤلاء النصارى، فأخبرته فوجدته هو أيضا قد استثقل قدومي(*) مع أنني معه كنا كأخوين شقيقين، ولما صلى السلطان المغرب ودخل دعاني أيضا وسألني عن بقية الأخبار، وحدثني هو أيضا بما وقع له مع أولادعمه السلطان العادل، وما ظهر منهم من كراهة ولايته، فقلت له : ياسيدي إن ذلك أمر طبيعي لابد منه إن لم يكن ظاهرا فهو في الباطن كامن، لاسيما من الأحداث الذين لا عقول لهم، وحلم مولانا وفضله يسع ذلك ويرفق بهم حتى يألفوا ما أزيل منهم، فقال : معاذ الله، والله لا يرون مني إلا الخير، وإنما أخبرتك بالواقع الذي يجر إليه الحديث، وهنا قال لي : إن مولاي علي وأمه للامينة ما تركوا في الدار حصيرا ولا ما يساوي درهما واحدا، ثم سألني

(*) وكتب هنا ولد الفقيه العلامة عبد الله الكنسوسي البيت المشهور :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالكل أعداء له خصوم

عن كتاب العهد الذي كان عندي بخط مولانا الملك العادل المرحوم، وقد كان سمع خبره وما وقع من عمه مولاي موسى وما وقع من مولاي عبد السلام كان أخبره بذلك كله مولاي الوليد سليطن لأنه كان حاضرا لموت السلطان وقدم قبلنا، فلما سألني عن مآل هذا الكتاب دهشت من إخباره بالواقع خوفا على مولاي عبد السلام، لأنه لما قدم من تافلالت كما قدمنا وكنا مع جماعة منهم مولاي الوليد المذكور، فجعل مولاي عبد السلام يخبر ببيعة مولاي عبد الواحد ويعظمها، ويذكر من حضرها من الشرفاء وكبراء آيت عطة وآيت زدك، ثم التفت إلي وقال : أين الكتاب الذي عندك أيها الكذاب ؟ ما أكذبكم أيها الكتاب ! فقال له مولاي الوليد : والله ما كذب، وهل يجهل أحد خط السلطان، فلم أجد بدا من إخراجه، فأخذه مولاي بوبكر وجعل يقرؤه عليه، فانتزعه منه ومزقه، فقام مولاي الوليد مغضبا ثم ردوه، فلما سألني السلطان علمت أنه بلغه الواقع على حاله، فأخبرته فقلت يا سيدي : هذا من جنس ما ذكرت عن مولاي علي ومولاي الطيب، ثم إنني أحدث سيدي بالصدق وان مولاي عبد السلام يحب سيدنا اليوم محبة تامة، ويثني الثناء الجميل على مقامه، ويقر بإحسان والده المرحوم حيث لم يقدم أحدا من إخوانه، ويحلف انه لو قدم غير سيدنا ما فعل معهم إلا الشر، فقال : صدق هو كذلك، فلما قام السلطان لصلاة العشاء خرجت معه فازداد القوم علي حقداً وحسداً، واجتمعوا في تلك الليلة عند عبد الملك الجبوري وكان هو قائد المشور، والجماعة المذكورة هم الفقيه أخونا سيدي محمد بن إدريس، والفقيه الكاتب السيد المختار الجامعي، ومولاي الحجازي، ومولاي العابد، ومولاي الحبيب شريف من مدغرة، كان يكتب معهم، ومولاي الوليد، ولكنه من ناحيتنا، فاجتمعوا على ما يفعلون ويقولون في إبعادي عن السلطان، فلما أصبح جاءني مولاي الوليد وشرح لي ما وقع وقال لي : إنني قلته للسلطان وقال لي : قل له لا عليه فيهم، فإنني أعرفهم وأعرفه ومكانته وصدقه وأمانته، وقد صحبته من الرباط الى القصر مدة من شهر أو أكثر، جنبه الى جنبي، وما رأيت مثله دينا ومروءة، فقل له يرجع معنا الى الرباط ونرجع في قريب

فإنه لا يرى منا إلا الخير، فلما خلوت مع نفسي(4) ظهر لي أنه لا يمكنني معاشرة هذه الدائرة المتواطئة على بغضي وعداوتي، والواحد لا يقاوم الجماعة، ورأيت في تلك الليلة مولانا سليمان رحمه الله في المنام ودفع لي زمامات مطوية وقال لي : صائر داري يبقى على حاله، وأنت لا تذهب مع فرجي بيدي(5) وكأن فرجي أراد الخروج مع قوم لا أعرف منهم أحدا. فلما انتبهت ألقى الله في قلبي بغض مصاحبتي أولئك الناس، وضاق صدري حتى من رؤية أحد منهم، فذهبت الى مولاي الوليد وكانت له مكانة تامة عند السلطان يدخل عليه بلا إذن، فرغبت منه أن يعتذر عني بكل ما قدر عليه، وقلت له : إني لا محالة ذاهب الى فاس مع مولاي عبد السلام ولا أرجع للرباط فارتحل السلطان للرباط وارتحلنا نحن لفاس، فلما بلغ السلطان لمحل المبيت سأل عني فوجد أولئك الأعادي سبيلا الى مرادهم وقالوا ما شاءوا، وكان ما أراده الله سبحانه(6) ولم تفارقنا ألطاف مولانا سبحانه وبره وإحسانه وعنايته، فبلغ السلطان الى رباط الفتح وأتته وفود القبائل الحوزية وأعيانهم ورؤساؤهم، فعيد هنالك عيد الفطر ورجع الى فاس ليتهيأ للحركة للحوز، وجاء معه أشياخ الحوز وأعيانهم الذين قدموا للرباط، وهناك قدم عليه مولاي موسى مع أهل مراكش وكذلك مولاي عبد الواحد، ففرح بهم وعظم أقدارهم ولم يلم أحدا، ولكن عفا وصفح وباشر بالإحسان التام والكرامة الزائدة، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، ولما رجع

---

(4) تعقيب على ما كتبه ناصر الفاسي في "البحث العلمي" فيما يتعلق بهذه المسألة لما ترجم لمحمد بن ادريس وزير مولاي عبد الرحمن وشاعره. كتب في أثنائها حول كلام الجيش عن الجماعة المتآمرة عليه قال ما نصه : "ونحن لا نستطيع أن نثق بتأكيدات أكنسوس ثقة كاملة. ومن المحتمل أن تكون حاشية السلطان لم تر بعين الرضا وصول شخصية يمكن أن تنافسه" اهـ.

قلت : ومن أنت أيها الكاتب حتى لا تستطيع أن تثق بشيء صدقه ووثقه من هو أقرب منك وقتا الى كتابة هذا التاريخ بل أعرف منك وأدرك بسير الأمور في ذلك العصر كالعلامة عالم الملوك وملك العلماء الأمر بوضع الجيش المولى محمد الرابع وكوزيره أبي العشرين الطيب بن اليماني وغيرهما اهـ البحث العلمي عدد 1 السنة 1 بتاريخ شعبان-ذي القعدة 1383 يناير-أبريل 1964..

(5) جاء في طرة (ش) بإزاء كلمة (بيدي) ما نصه : "هو لقب للفرجي لأنه كان فرجيان أحدهما كبير وهو هذا والآخر صغير وبيدي بلسان كناوة هو الأكبر". .

(6) يشار هنا الى ما ذكره غريط في فواصل الجمان ص 11 بعد أن تكلم على ما فعله المؤقرون وإذ قال في أثنائه الى أن حدث له ما حرك حفائظ سلطانه، وغير معين صفحه وامتنانه من اتهامه بالميل والتشيع الى من له تشوف للملك وتطلع، واتفق ان السلطان وجده لذلك المتشوف محادثا، فصدق من كان في عقد إذايته لذلك نافثا، فاعتقل وامتحن وتجوهل قدره وامتهن.

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره فسوف لعمري عن قليل يذمها
إذا أقبلت كانت على المرأ فتنة وإن أدبرت كانت كثيرا همومها

ثم سرح وما كاد، بعد مقاساة الهموم والأنكاد

(قلت) وما رأيت أحدا غير صاحب الفواصل ذكر أن الفقيه سجن، والله أعلم.

لفاس أمر بشراء دار السيد عبد السلام شقشاق، وكانت مجاورة لقبة مولانا إدريس بينها وبين القيسارية فاشتريت وأمر بهدمها وزيادتها في مسجد مولانا إدريس، فجمع الصناع والعملة وتأنقوا في بناء ذلك أحسن من المسجد القديم، وأوقف على مباشرة ذلك الشريف مولاي الهاشمي بن ملوك البلغيثي فبنى ذلك في مدة يسيرة على غاية الإتقان والإبداع وبولغ في تنميقه وترقيقه وتخريمه وتزويقه لا في أرضه ولا في سقوفه، ولا في سواريه الرخامية والزليجية، وكنت نظمت التاريخ المنقوش في خدود الباب المجاور لباب القيسارية ونظم الفقيه السيد عبد الواحد بن شيخنا القاضي أبي العباس سيدي أحمد بن التاودي(7) التاريخ المنقوش على السواري الزليجية التي في المسجد الجديد، وكان ضمن فيه قول المتنبي في سيف الدولة :

مبارك الاسم أغر اللقب   كريم الجِرِشّي شريف النسب

والبيت من المتقارب، والشعر الذي ضمنه فيه من السريع، فأنكر الناس عليه ذلك، وكتبت له بطاقة أداعبه فيها وأمازحه على عادتي معه، ثم أنف من ذلك وغضب وظن أنني هجوته، وكان تعتريه سوداء في آخر عمره فشكا الى العامل سيدي محمد بن الطيب وكان صهره على بنته وبكى عليه بكاء شديدا، فهم ابن الطيب بالبطش بي وكان يتفاخر بذلك، فوجه علي فأتيت محل حكومته ووجدته قد دخل فكان ذلك من لطف الله بي لأنه ما وجه علي حتى سكر وأبرق وأرعد وقال لأصحابه : إن فلانا يكرهنا ويكره من يحبنا ويكره السلطان، والله لأعاقبنه فنهاه من حضر من أصحابه كالسيد عبد الخالق الموقت، والسيد العربي الساحلي، وقائد مشوره القائد إدريس البواب، فلم يزدد إلا غلظة وطفوحا والزبد متراكم على فمه، ثم غلبته الخمر ودخل للدار، فذهب أولئك الإخوان إلى عمه مولاي عبد الواحد وكان نازلا بقربه فأخبروه فجاء يجر رداءه مخافة أن يفرط علي أو أن يطغى، وأنا لما جاءني عونه أتيت ولا علم لي بشئ فأدخلوني الى محل هناك، فجلس مولاي عبد الواحد ينتظر خروجه، فلما

(7) هو ابن قاضي الجماعة أبي العباس احمد بن التاودي بن سودة المري الغرناطي الفاسي ت آخر رمضان عام 1253 هـ 1837 م "السلوة" ج 1 ص 120 "الوفيات" ص 70 "الاعلام" ج 8 ص 533.

خرج قام إليه ونهاه وزجره وقال : إن الطلبة يقع منهم مثل هذا، والسيد عبد الواحد بن سودة رجل أحمق وأنت أحمق منه، فسكن غيظه، وكفانا الله شره، والحمد لله ببركة مولانا عبد الواحد رحم الله الجميع، ثم وجه السلطان ولد عمه مولاي مبارك بن علي عاملا الى مراكش، وفي أثناء ذلك وردت قصيدة بليغة من تونس تهنئة لمولانا المؤيد بالولاية السعيدة من إنشاء عالم البلاد الإفريقية ومفتيها وبركتها أبي إسحاق سيدي إبراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي وهي هذه :

نصر من الرحمان جل لعبده ... أيروم خلق نقض مبرم عقده
وعدت به الأقدار وهي نوافذ ... لا تحسبن الله مخلف وعده
والله أعلم حيث يجعل نصره ... والشاكرين له سوابغ رفده
فليبتسم ثغر الهنا مستبشرا ... فالوقت ينطق عن سعادة جده
إن يمض مولانا سليمان الرضى ... وعليه تبكي الباكيات لفقده
والعلم والتقوى وكل فضيلة ... منشورة طويت به في لحده
فلقد أقام لنا أبا زيد هدى ... نورا مبينا يستضاء برشده
لو لم يكن كفؤاً لما أوصى به ... وبنوه ترفل في ملابس مجده
سعدت به الأيام ثم أراد أن ... تبقى السعادة للورى من بعده
أعظم به نصرا يدوم سروره ... للخافقين سرى تضوع رنده
أهدى إلى الأعداء أقتل غصة ... والأوليا متنعمون بشهده
فاستبشروا باليمن من مرضاته ... واستمطروا نيل المنى من وده
ما هو إلا ابن الرسول وهل فتى ... في الناس يعدل عن مكارم جده
وتناسقت أسلافه كرما كما ... راق النواظر لؤلؤ في عقده
لاغرو ان جمع المحاسن كلها ... منهم فارث الجمع حق لفرده
لا يأفك الخراص حيث يقول قد ... ذهب الزمان بعمره وبزيده
فبسيف ما ننسخ يقد أديمه ... حتى ولو وفى العيان بسرده
فلكم وكم من آخر زمنا له ... فضل عظيم لا يحاط بسرده
يا أهل فاس والمغارب كلها ... والشرق من مصر لغاية حده
يهنيكم هذا الزمان فإن في ... أيامه للدين مطلع سعده

والعلم والتقوى وكل معظم	عند الشريعة فهو بالغ قصده
النور أوقد منهم أتراهم	يرضون إلا باستدامة وقده
الله يبقي نوره متوقدا	يفنى الزمان ولا فناء لخلده
ويخص مولانا الأمير بنعمة	لا تنقضي وعناية من عنده
ويديمه ظلا وريفا كلما	حمي الورى هرعوا لجنة برده
وحسام فتح كلما نهضت به	عزماته فالنصر شاحذ حده
وتمام بدر كلما اقتعد السرى	لم يسر إلا في منازل سعده
وعليه تسليم تأرج نده	لكنه في الفضل عادم نده
ثم الصلاة على النبي وآله	والحمد في بدء الكلام وعوده

ولما بلغ مولاى مبارك إلى مراكش أساء السيرة في أهلها وفتح فاه لأكل الحرام، واستولت عليه بطانة السوء فتكررت به الشكايات إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه ينهاه ويشنع عليه فكف عن غربه بعض الكف، فعزم السلطان على إعمال الحركة الى مراكش بعد دخوله إلى مكناسة وتمهيد حالها وترميم ما تلاشى من قواعد الملك بها وإصلاح ما أفسدته الفتن السالفة المتوالية عليها، فإن العبيد قد لعبوا في أيام الفترة كيف شاءوا ويددوا بيوت الأموال التي فيها وأسرفوا في الاقتضاء بلا طائل ولا فائدة، وكانت البرابر تنهب دولهم من أبواب مكناسة وهم متكئون في ظلال الأسوار ينظرون إليهم، بل باعوا الخيل والسلاح وأكلوا أثمان ذلك وأفسدوه حتى أشرفوا على الاضمحلال لولا أن الله تداركهم بمولانا أمير المؤمنين المؤيد ما بقي منهم عين ولا أثر. فلما خرج من فاس وقرب من مكناسة خرجوا للقائه بالعلامات مرفوعة على العصي وليس معها إلا شرذمة قليلة. فقال لهم السلطان : أين عبيد البخاري ؟ فقالوا هذه البركة التي أسأرتها السيبة، وعلى الله وعليك الخلف. فما زال أعزه الله يجدد مددهم ويزيد عددهم بالخيل والسلاح والرواتب المترادفة، والمواهب الواكفة، مع أنه وجد بيوت الأموال التي هناك تتسابق فيها الفيران، وحاصل الامر أنه أيده الله وجد الدولة قد ترادفت عليها الهزائز، وصارت بعد حسن الشبيبة إلى حالة أشوه العجائز، تفانت رجالها، وضاق مجالها، من وقعة اصرو ببلاد زيان إلى موت السلطان العادل مولانا سليمان، فلما قام مولانا

المؤيد لم يجد فيها إلا رمقا قليلا، وخيالا عليلا، وقد وهت دعائمها، وتداعت للسقوط وأشرفت على الانهدام، المفضي إلى الانعدام، فأمده الله تعالى بالسعادة الخارقة للعادة، فقام بأعبائها بلا مال ولا رجال ولا معين ناصح أمين، قريب، أو بعيد، فجعل يكابد تلك الشدائد بنهاية جهده والسعادة تكتنفه أماما وخلفاويمينا وشمالا، والتأييد من الله تعالى يمده، والتوفيق يسدده، والعناية تساعده والخور يباعده، حتى أقام بناء الملك الإسماعيلي على أساسه الوثيق، وعاد جديده أبهج وآنق من العتيق، ثم أقام بمكناس حتى سدد أغراضه، وعالج أمراضه، وأزال علله، وجبر خلله، ثم صرف همته إلى آيت يمور وكانوا نازلين في الولجة الطويلة وسلفات فأطغاهم نزولهم بتلك البقاع المضمونة، والمزارع الخصيبة المأمونة، فسعوا الفساد في الأرض وأضروا بجيرانهم الزراهنة وأهل الغرب والسحيرة، فأمر عامله القائد محمد بن يش الغرباوي المالكي العروى، أن يحتال على فسادهم حتى يحصلهم، فكادهم ابن يش حتى قبض منهم نحو الأربعمائة، ونقلهم السلطان للحوز، ثم توجه السلطان الى رباط الفتح، ثم وجه أخاه مولاي المأمون خليفة لمراكش وعزل مولاي مبارك بن علي لسوء أفعاله وشكاية الناس به كما قدمنا، فلما مر أمير المؤمنين بالشاوية عزل وولى من ولى وأعرض عنهم حتى يتفرغ لهم، وقتل الهاشمي الزياني، فلما بلغ دكالة وجدها كلها رؤوسا يانعة تدعو إلى قطافها، فقتل من قتل، وقيد العباس بن المزوار وفتك بالعونات، فلما بلغ مراكش قبض ابن الغازي الزموري ووجهه للجزيرة، وأخرج من الجزيرة السيد أحمد بن سليمان الفاسي موقد نار فتنة أولاد مولاي اليزيد فقتله وعلق رأسه بباب الخميس ونجى الله تعالى السيد الطيب البياز فأخرجه من الجزيرة وسرحه ولم يكن على مذهب ابن سليمان، بل كان صاحب مروءة وجد في الأمور التي يتولاها، ولذلك ولاه السلطان بعد ذلك وجعله أمينا على مرسى طنجة، ثم ولاه على فاس بعد ذلك مدة مديدة، ثم شرع السلطان في غرس أكدال وجلب له الساقية السلطانية وانتزعها من أيدي مسفيوة رغما على أنوفهم، وكانوا من زمان سيدي محمد بن عبد الله السلطان المنصور يتغلبون عليها ويقطعونها ليلا، فلما أعيوا السلطان العادل مولانا سليمان أعطاها لهم على ألف مثقال في كل سنة، وإلى ذلك أشار أخونا في الله الفقيه الكاتب سيدي محمد بن

ادريس في القصيدة الجيمية وهي :

وردت وكان لها السعـود(8) مواجهـا ... والحسـن مقصور على مواجهـا(9)
وبدت طلائع بشرها من قبلهـا ... كالشمس طالعـة لـدى أبراجهـا
وتسير ما بين الأباطـح والربـى ... ترمـي فريـد الـدر من أمواجهـا
وتصوغ من صافي النضار سبائكا ... حلت بها الأعطاف من ثجاجهـا
هبطت إليك من الجبال وطالمـا ... تعبت ملوك الأرض في إخراجهـا
وأتتـك راغبـة تجـر ذيولهـا ... وتفيـض غمر النيـل في أفواجهـا
تنساب مثـل الأفعـوان وتنثنـي ... كالغصـن بين وهادهـا وفجاجهـا
خطب الملـوك نكاحهـا فتمنعـت ... وأتتـك واهبـة حـلال زواجهـا
فلتهنك الخود الرفيعة قدرها(10) ... وليهنهـا أن صـرت من أزواجهـا
حمـراء عباسيـة بدويـة ... نشـرت ذوائبهـا على ديباجهـا
وافتك وافيـة وقـد صبـغ الحيا ... وجناتهـا وجـرى علـى أدراجهـا
فكأنهـا بلقيـس جاءت صرحهـا ... لكنـه صـرح بغيـر زجـاجهـا
عرفـت أناملـك الشريفـة أبحـراً ... غرقت بحار الأرض في عجاجها
فأتتـك طالبـة الأمـان لنفسهـا ... لتنـال بعض الطيب من ثجاجهـا
لبتك إذ سمعت نـداك وأقبلـت ... مرهويـة تستـن مـن إزعـاجهـا
ونزعتهـا بالقهـر مـن غصابهـا ... والسابقون رضوا ببعض خراجها(11)

فلما جاء مولانا أمير المؤمنين المؤيد انتزعها منهم قهرا وغرس أگدالا ووجه على الأكارين والفلاحين من أجبالة وأهل تطوان، وجلب الأغراس المنوعة من كل بلد وكل نوع غريب وجنس عجيب وأمر الغراسين فغرسوا والزراعين فزرعوا فلم يمض إلا مدة قريبة فأطعم إطعاما خارقا للعادة، فلما بلغ إبان تعريشه أمر قبائل الجبل أهل الخشب فجاءوا بما لا يحصى من الخشب فعرشت الأعناب الدائرة مع الأسوار والتي على المشاءات كلها فجاء على أحسن الهيئات التي تبهر الأفكار، وتكل

(8) كذا بالأصل ومثله في (م) و (ش) وكذلك هو في مخطوطة الديوان بالمكتبة الملكية أما (ف) ففيها (الصعود) بالصاد.
(9) المراج : الكثير التمرج.
(10) في (ش) و (ف) : (منصبا) بدل : (قدرها).
(11) القصيدة أكثر مما أورده المؤلف إذ يبلغ عدد أبياتها 52 بيتا.

الأبصار، ولا أظن الوهوط(12) الذي كان لعمرو بن العاصي رضي الله عنه بالطائف يبلغ عشر أگدال، فإن الوهوط كان يغْرش في كل سنة بمائة ألف خشبة، كل خشبة بدرهم كما ذكره في القاموس، وأگدال لا أظن يكفيه مثل ذلك عشر مرات، وكنت أردت ذات يوم أن أعد جهة واحدة منه فغلطت وضاع الحساب، وكذلك المسرة التي كانت للموحدين لا إخال إلا أنها دون أگدال بكثير والله أعلم.

فلله در مولانا المؤيد ما أعلى همته، وأعظم حرمته، وأكثر نعمته، فإن السلطان الناصر المنصور سيدي محمد رحمه الله تعالى لو وجد السبيل إلى إدراكه لهذا ما كان يكتفي بالنيل أو رضوان أو يحتاج الى حصيرة أو عافية، وربما أدرك المتأخرون ما عجز عنه كثير من المتقدمين كما قال ابن مالك في التسهيل(13) ثم لما فرغ مولانا من شأن أگدال رجع لفاس لتفقد تلك النواحي وثغور السواحل مع أن أقطار المغرب كلها قد عمها الهناء والسرور ببركة وجود مولانا المنصور المؤيد لاسيما بعد ورود ولده البار المبارك السعيد سيدي محمد، فإنه ورد من تافلالت في طالع قد احتفت به السعود من كل جانب، وبوروده تهيأت لمولانا المؤيد جميع المطالب، وأكمل الله له جميع المرادات، وأقبلت لحضرته العالية جميع الإفادات، وأتم الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأفعم بالفتوحات والخيرات موارده ومعاطنه، وكان مولانا أمير المؤمنين المؤيد يذكر من يمن ولده هذا، وبركة وجوده أنه من يوم لاحت غرته، وأضاءت بنورها حضرته، تحولت حالته من الضيق الى السعة، ومن التعب إلى الراحة والدعة، وكان قبل ذلك من العيش في شدة شديدة، ومشقة عتيدة، فلما ولد عنده فاضت عليه الخيرات، من جميع الجهات، وكان لما حملت أمه به يترقب مولده ويتشوف إليه، ويتحين زيادته لديه، لأن وليا من الأولياء يقال له مولاي أحمد مشهور بالولاية، لما تزوج أمه هنأه بها وقال له : استوص بها خيرا فإذا ولدت ولدا فسمه باسم النبي

(12) كذا بالأصول المعتمدة والصواب : الوهط بالأفراد والوهط بفتح فسكون وطاء مهملة : المكان المطمئن المستوى الذي ينبت العضاه والسمر والطلح والوهط كما في معجم البلدان قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج كانت لعمرو بن العاصي قال ابن الأعرابي بالوهط يصفها :

"غرسُ عمرو بن العاصي بالوهط ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم فحج سليمان بن عبد الملك فمر بالوهط فقال : أحب أن أنظر إليه فلما رآه قال : هذا أكرم مال وأحسنه ما رأيت لأحد مثله لولا أن هذه الحرة في وسطه فقيل له : ليست بحرة ولكنها مسطح الزبيب وكان زبيبه جمع في وسطه فلما رآه من البعد ظنه حرة سوداء". انتهى من معجم البلدان بتصرف.

(13) (التسهيل) كتاب لابن مالك في النحو.

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو سبب ربحك وسعادتك، وسيكون له شأن عظيم، فلذلك كان يستشرف إلى طلعته الملازمة للبشرى، المقابلة بالرحب والسهل ألفا لا عشرا، هكذا حدث مولانا المؤيد الفقيه العلامة البركة مولاي الهادي إمام الحرم الإدريسي رحمه الله، وأخبرنا الفقيه المذكور بذلك مرارا، والولد المذكور هو أمير المؤمنين اليوم أدام الله عزه ونصره ، وزين بدوام سعوده زمانه وعصره، فلما ورد الولد المظفر على الوالد المؤيد استبشر بثبات قدم عزه في مقام الملك الشامخ، والمجد الباذخ، فتهيأ لإعمال الحركة للحوز بقصد تخريب القرية الشرادية وتشتيت شمل جموعها، ومحوا آثارهم من ربوعها، فكتب لأخيه وخليفته مولاي المأمون أن يحشر القبائل الحوزية أعرابها وبرابرها، ويربط على زرارة والشبانات وأولاد دليم ومن انضاف إليهم، وخرج مولانا المؤيد من فاس بالعساكر السلطانية من العبيد والوداية وأهل الغرب وبني حسن وآيت ادراسن وزمور، وكتب إلى الشاوية ودكالة أن تكون خيلهم موجودة حين يمر عليها، فلما خرج من الرباط تعرض له الحجاج الذين نهبهم اشتوكة والشياظمة الذين في حوز آزمور، وشكوا إليه بهم، فصرف الوجهة إليهم حتى فتك بهم وشرد بهم من خلفهم، وتركهم عبرة للمعتبرين، فامتلأت أيدي المحال بأموالهم ومواشيهم بعد ما نسف زروعهم نسفا، وكانت هذه الوقعة طالعة الفتح ومقدمة الظفر.

ثم ازدلف بتلك الكتائب المنصورة، والعساكر المحشورة، حتى نزل على تلك القرية المنسوبة الى الشرود، تفاؤلا على رئيسها المخذول المطرود، فحاصرها مولانا المؤيد حصارا هائلا يذيب الحديد، وكان أهلها أولي بأس شديد، وحزم عتيد، فأوقع الله بينهم التنافر والخلاف، لما أراد الله بهم الإهلاك والإتلاف، فدخلهم الجزع، وتمكن منهم الفزع، فطلبوا العفو من أمير المؤمنين والتأمين، فعفا عنهم وأمنهم على شرط أن يخرجوا بأنفسهم وأولادهم وينتقلوا عن بلادهم، وفر صنمهم المعبود، بعدما أنفد في الدفاع غاية الجهد المجهود، فوقع عليه البحث والاستقصاء فخفي أثره حتى ظهر بعد مدة بسوس الأقصى، وأما قبائله فاجتاحتها الجوائح، وأطاحتها الطوائح، وعاد أمرهم بمنزلة الهبا، والنعم التي أطغتهم أيادي سبا، وأدركتهم دعوة مولانا سليمان السلطان العادل، التي تنشق لها الحجارة

وصُمّ الجنادل، والله تعالى قد يرجئ المتجاسر على حرماته، ويمهله ولكنه لا يهمله :

وهيهات أن ينجو الظلوم وخلفه   سهام دعاء من قسي ركوع

فسلط الله عليهم مولانا المؤيد آخذا بالثأر، بسيفه الصارم البتار، فسقاهم كأس الردى وأراهم كيف يكون مآل الطغيان والاعتداء ، وأشمت بهم الأعدا، فتركوا الديار بغير اختيار، وساروا الى بلاد أزغار، في أسمال الذلة والصغار، تحملهم الإبل ثلاثة أو أربعة على بعير، الذكر والأنثى والكبير والصغير، وأما الأموال والمتاع، وذات الحافر والكراع، فقد سارت بها الجنود المجندة، وتركت عجائزهم ومشايخهم في البراح كالخشب المسندة، ثم لما ظهر مرابطهم بحيث ذكرنا بعد زمان مديد، وجه من يشفع له عند أمير المؤمنين فشفع فيه، وأبدل تلافه بتلافيه، وقابله بالتجاوز والصفح، ثم ولاه على قومه فعاملهم بالإساءة والقبح، فعادت محبتهم المفرطة، عداوة محبطة، فاستغاثوا بالسلطان راغبين في عزله، والإراحة من ولايته بنقض غزله، ونعوذ بالله من رجعة النجم بعد استقامته، ومواخذة العفو الكريم وانتقامته، ثم طلب من السلطان المؤيد أن يأذن له في الحج، فأذن له فحج ورجع، ثم ولاه أيضا على إخوانه فلم يقبلوه، فعزله عليهم وسجنه مدة طويلة حتى ولي السلطان المظفر أمير المؤمنين نصره الله فسرحه، ولما ورد خبر هذا الفتح لفاس ومكناس، فرحت الناس، وزينت الأسواق، وركبت الخيل للمسابقة، واللعب، وضربت الطبول، وبرزت الزينة، ثم خرجت الأخبية والأبنية والمضارب لوادي فاس للتنزه، ونظم العلماء القصائد في التهاني لمولانا أمير المؤمنين، ووجهها القاضي العلامة مولاي عبد الهادي(14) لحضرة السلطان بمراكش، ولما أنشدت بين يديه بحضور البلغاء النقاد كالوزير الأعظم السيد محمد بن إدريس، والفقيه السيد عبد الله الديماني(15) فوقع الازدراء بالقاضي والغض منه، حيث وجه للحضرة العالية ما لا يناسبها من القصائد الركيكة الخالية حتى من الإعراب فضلا عن الوزن فضلا عن أسرار البلاغة التي تزف لحضرات السلاطين العظام،

(14) عبد الهادي هو ابن الفقيه مولاي عبد الله، الحسني العلوي السجلماسي الدغري وكان من الأئمة المعتبرين، والأعلام المشهورين توفي عام 1272 هـ - 1855 م "السلوة" ج 1 ص 117 "الإعلام" ج 8 ص 505.

(15) عبد الله الديماني : لم نقف على ترجمته

وذلك أن القاضي لما لم يكن من أهل هذا الشأن، لم يميز بين اللُّجَيْن واللُّجين، فصار كل من أتاه برقعة مكتوبة وقال له قصيدة أريد توجهها للسلطَان أخذها حتى جمع من ذلك شيئا كثيرا من الغث والسمين، والرخيص والثمين، وكان الفقيه العلامة الشريف سيدي محمد بن الطاهر الفلالي(16) حاضرا في الحضرة السلطانية، وكان يقرأ البخاري وكان بينه وبين القاضي منافسة تامة، فبالغ في تشنيع ذلك حين وجد سببا حتى أمر مولانا أمير المؤمنين بعض الحاضرين من الدائرة أن ينعي على أهل فاس ما فعلوه من توجيه تلك الأقوال السخيفة التي لا تليق نسبتها لحضرة فاس التي هي محل النفيس الفاخر من كل شئ، فنظم ذلك البعض ذلك كما أمر، وهو العلامة أبو محمد السيد عبد الله الديماني، ووجهه مولانا السلطان لحضرة القاضي، ووجه معه كتابا يقول فيه : إن من رد علي هذا القائل يقطع رأسه، فقرئ ذلك بحضرة القاضي بعد جمع أصحاب القصائد الموجهة كلهم، وإحضار الدراهم التي أمر مولانا السلطان أن يعطي منها لكل واحد على قدر شعره، حتى إن منهم من جعل له مائة مثقال، ومنهم من جعل له مثقال واحد، ثم إن القاضي أنف من ذلك ولم يظهر كتاب التفاضل وسوى بين العالي والسافل، والشارق والآفل، وكتب إلى السلطان بذلك، وكان مقبول الكلمة عنده، ومن القصائد قولنا :

بشائر لا تحيط بها الشروح ... كأن سميعها فنن مَرُوحُ
سقى ربع البشير بها غمام ... يباكره هتونا أو يروح
تفديه المحافل وهو يشدو ... فتوح في مضمنها فتوح
وتأمل أن تقبله الغواني ... تذيل له المباسم أو تبيح
بشائر كاد يسمعها دفين ... ويسرى بالجماد بهن روح
شفى المولى المؤيد كل صدر ... به من قبل وقعتها جروح
وأدرك ثأر عصبته وأضحى ... لعزة قدره شرف صريح
لقد حسم الفساد بكل أرض ... فساد لنا به الدين السميح
وزر على زرارة كل خزي ... تشق له المجاسد إذ تنوح
وقد كانت تصر على ازورار ... وكانت لا ينهنهها قبيح
ومن كانت مراكبه جماحا ... فسحقا حين يصرعه الجموح

(16) محمد بن الطاهر الفيلالي : لم نقف على ترجمته

أتيــح لهــم لِحَيْنِهــم جهــول غــوى للضــلال لــه جنــوح
يقــودهــم الــى العصيــان ســرا ويظهــر أنــه البــر النصــوح
يحدثهــم إذا ما حــم[17] خطـب حديثــا كــان مصــدره سَطيــح
هـو الدجـال فـي سَمْـت وفعـل فمــن يـدعــوه مهـديـا وقَيـح
فأهلكـه الإمــام فكـان عيسى كــذا الدجـال يهلكــه المسيــح
فصيـــر دار منعتـــه فـــلاة علـى أطلالهـا البـوم السنيــح
وفرعــن الذمــار علــى حمــار عليــل العـرض جؤجـؤه صحيـح
فيــا لـؤم الذليـل فـلا وهيـن فيعــذر بالفــرار ولا جـريــح
وخيـــر مـــن حيــاة في هــوان يبــوء بــه الفتـى مــوت مريــح
أيطمــع في النجاة فـلا نجـاة سيـدركــه الهزبــر المستبيــح
إذا كــان الســراب لـه بحــارا تخـــوض إليـه سلهبــة سبــوح
ستدركــه العزائــم مــن إمــام تــدك لــه المعاقـل والصـروح
إمـــام قد أعــاد لنــا ســرورا وجـاد لنـا بـه الزمــن الشحيــح
أعــز اللــه ملــك بنـي علــي بصــولتــه وتــم لــه الوضــوح
وجـــرد مــن جلالتـــه حسامــا يزيـل بــه الضـلالــة أو يزيــح
وقــد كــان الخلائـــق في ظـلام فـلاح على الخلائق منه يُوح[18]
وأصبحـــت المكـــارم باسمـــات وكــان علـى مناظـرهــا كلــوح
أغـــر معـــود للنصـــر ســـاع إلى العليــاء مسعــاه نجيــح
يخاطـر في منــال العــز دأبـا بــرأي كـــل مـدركـــه رجيــح
فرايــات السَعـــود عليـه نشــر وساحــات الفخـار لديـه جـوح
أبــا زيـــد فأنــت لنــا مـــلاذ وجاهـك فـي المهـم لنـا فسيـح
فقــد زانــت مآثــرك الليالـــي ولاح لعـدلــك الـوجــه المليــح
وهــذا الدهــر كالطوفــان موجــا وطاعتــك السفيــن وأنــت نــوح
وأنـت خليفـة الرحمــان مــن لا تــؤمنـــه فمشــربـــه نشـــوح
كمــا أن الشبانـة حيـن زاغـت وهـب لهـا مـن الطغيـان ريـح
عصفت عليهـم بالبـأس تزجـي كتائــب كالسحائـب إذ تلــوح
فألقيــت الجــران علـى ذراهــم بجيـــش كلهـــم بطـــل مشيــح
فجــاء العفـو منـك وهـم ثـلاث أسيـــر أو كسيـــر أو ذبيـــح

(17) في (ف) : (طم) بدل (حم).
(18) يوح بالياء المثناة اسم من أسماء الشمس.

وقد قسمت بلادهم بعول ... ودورهم كما قسم الوطيح[19]
وكم نطحت مكايدهم قديما ... بني سعد وزيدان نطيح
فظنوا آل إسماعيل يرنو ... بغير الحزم طرفهم الطموح
وما علموا بأبكم سيوف ... بحدكم نجيعهم سفوح
أبا زيد إذا تبقى عليهم ... بصفح ربما ندم الصفوح
فلا تحلم فإن الجرح يكوى ... طريا بالمحاور أو يقيح
فلا زالت بك الدنيا عروسا ... ومجدك من مفارقها يفوح

ولنا أيضا باقتراح القاضي للقافية والوزن لبساط اقتضى ذلك :

فرحا يدوم لنا على الآباد ... ورد البشير بمبرد الأكباد
جاد الإله وذاك من أوصافه ... بمسرة تسري بكل فؤاد
لما أفاض على الأمير مواهبا ... ظفرت مقاصده بكل مراد
مازال ينصره على أعدائه ... سبحانه ذو الفضل والامداد
حتى أقام به قواعد ملة ... جلت مآثرها عن التعداد
فالدهر مبتهج وكل زمانه ... آناؤه في الحسن كالأعياد
ملك مواطئه النجوم وخيله ... مستننة بمرابض الآساد
ملك يذيب المرهفات جلاله ... ملك يهد رواسي الأطواد
إن كان ينماع الحديد لبأسه ... أنى يلام الشارد الشرادي[20]
فليذهب الضليل طوع عنانه ... فالسيف حول النطع بالمرصاد
باغ تباشرت البلاد لفقده ... فلتهنإ البشرى لكل بلاد
وليهنإ المولى المعظم قدره ... قاضي قضاة العصر عبد الهادي
شيخ الجماعة عالم العلماء من ... هو واحد في مجمع الآحاد
زاك تلت أيامنا آياته ... لتَعَوُّذٍ من جنّة الإلحاد
وأغاث ربع الدين صيب علمه ... فَانشق زهر العَدل والإرشاد
يا أيها العلم الملوذ بظله ... من حر أزمان علينا شداد
زفت لك العلياء زف خريدة ... فأتيتها بجواهر الإنشاد

ومما أعجبني من تلك القصائد المتكاثرة قول بعضهم وأظنه الفقيه العلامة أبا محمد عبد الله الديماني أبقاه الله آمين.

(19) الوطيح : حصن من حصون خيبر.

(20) هو المنصوص عليه في وقعة زاوية الشرادي. حيث هنأ المؤلف المولى عبد الرحمن بهذه الدالية لانتصاره على الشرادي وجماعته.

بشرى تقر بأعين الإيمان ... كالوصل ينسخ دولة الهجران
جاء الزمان بها على مقداركم ... فتقاصرت عنها خطى الأذهان
أين المفر لمن عتا عن أمركم ... أترى البغاث تفوت للعقبان
ألا هو(21) أمر الله غير منازع ... لاح الصباح لمن له عينان
يا من يطالب أمرهم بدلائل ... أتطالب البرهان بالبرهان
إن كنت تجهل فالحسام معلم ... يشفى البرئ به ويشقى الجاني
كم من غوي قد عتا عن أمرهم ... كزرارة فسرى الى الخسران
أين المفر لكل من شق العصا ... يوم الكفاح إذا التقى الجمعان
لم يمنع الأعداء منهم معقل ... لو أنهم صعدوا الى كيوان
لكنهم باءوا بأخسر صفقة ... فكأنهم عصبوا أبا غبشان(22)
جيش تسد وفوده مسرى الصبا ... وتهد وطأته ذرى ثهلان
يا مالكا ملأ الوجود محاسنا ... لا تختفي عن أعين العميان
أجريت بين المعتفين مكارما ... يسلو الغريب بها عن الأوطان
لو قيل للغيث اعترف لم يعترف ... إلا بفضل نداكم الهتان
إنسان عين الدهر أنت، وإنما ... تكميل شكل العين بالإنسان
ذكراك في الأفواه يعذب كاللّمى ... وتخف كالبشرى على الآذان
أيقظت جفن الحق من إغفائه ... وأقمت ميلة عطفه الكسلان
ألقى لك الزمن العصي زمامه ... وعنا لطاعة أمرك الثقلان
فالدهر دونك دافع ومدافع ... وصروفه لكم من العبدان
فإذا أشرتم في الزمان لمقصد ... كان القضاء لكم من الأعوان
أخلصت للرحمان في طاعاته ... فلذا دعيت بعابد الرحمان
ألقيت رحلي في ذراك مخيما ... فجريت في الآمال طوع عناني
وتركت أوطاني وجئت وإنما ... من فرط حبك غبت عن أوطاني
يا ليت قومي يعلمون بأنني ... من جودكم أرد الفرات الثاني
لا زلتم في أسعد مبسوطة ... مقبوضة عنها يد الحدثان

ثم وجه السلطان أخاه مولاي المأمون بن هشام لاقليم سوس وجباية زكواتهم، ورجع السلطان لفاس ووجه القائد محمد أميمون الجرواني عاملا

(21) كذا بالأصل ومثله في (ك) و (ش) و (ف) أما (م) ففيها : (الأمر أمر الله...) وبه يستقيم عروض البيت.
(22) كذا بالأصل ومثله في (م) أما (ك) و (ش) و (ف) ففيها : غصبوا بالغين وهو الأنسب للسياق وأبو غبشان هو المحترش بن حليل الخزاعي كان يتولى سدانة الكعبة قبل قريش وكان اجتمع مع قصي في مجلس شراب فأسكره قصي واشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر وضربت به الأمثال في الندامة وخسران الصفقة... انظر تاج العروس ج 4 ص 329 مادة غبش.

لطنجة، وعزل العربي السعيدي، ووجه السيد الطيب البياز أمينا على مرساها، ووجه سيدي محمد بن الطيب لتافلالت وكان واليا على الشاوية ودكالة وقبائل الحوز فعزله وتوجه للصحراء فأخفق مسعاه فيها ولم يجد شيئا فرجع، ووجهه السلطان لوجدة فرجع كذلك بلا طائل.

ثم لما أخذ العدو الكافر بلاد الجزائر وذلك في محرم سنة ستة وأربعين ومائتين وألف جاء أهل تلمسان ووهران وأعيان تلك المملكة الى مولانا السلطان المؤيد، ورغبوا في الدخول تحت طاعته والاكتناف في كنف ولايته، فامتنع من ذلك وشاور في أمرهم أعيان الدولة وأهل دائرته، فاختلف الناس عليه في ذلك، فمنهم من زين له ذلك وقال له : إنما هي طعمة باردة، وسلطنة زائدة، كثيرة الفائدة، ومنهم من نهاه عن مقاربتها على كل حال، وهؤلاء هم أهل العقول الراجحة، والآراء السليمة، والطريقة الواضحة، فقالوا إن تلك الناحية تنور متقد الجمار، لا يصلح تملكها إلا لكل جاف جاهل حمار، كالأتراك السفهاء الأغمار، وأنها ما أضيفت لهذه الدولة قط إلا أثرت فيها فسادا وخللا، وأظهرت فيها آفات وعللا كما علم ذلك في أخبار الدول السالفة، وكان ممن زين له في قبول ذلك القاضي مولاي عبد الهادي لعدم اطلاعه على أحوال سابقي الأمم، وأخبره بذلك بعض الناصحين ليرده عن ذلك، فكان في حاسة سمعه صمم، وكان مولانا السلطان المؤيد يعتمد رأيه في المهمات، والنوائب العظام الملمات، فقبل السلطان مرغوبهم، ووجه معهم المحلة من العبيد والوداية، وحراك القبائل الغربية مع ولد عمه مولاي علي بن سليمان، وكان مولانا المؤيد قد انتقى تلك المحلة ولم يتوجه فيها إلا الأعيان، وكانت كلها رءوسا، مثل الطاهر بن مسعود، وابن الطاهر العقيلي، وابن فرحون، وإدريس بن حمان [عامل وجدة](23) وأمثالهم من العبيد، وكان الوداية قد تناهوا في الصعود والعروج، حتى مالت بهم السروج، لأن مولانا السلطان قد بالغ في إكرامهم، وإعلاء شأنهم، وكان ذلك سببا في فسادهم وطغيانهم، فلما بلغوا تلمسان وجلسوا بلا شغل ولا قتال ولا ترويع وجدوا تلك البلاد كالغنم السائمة، التي مات راعيها وكل واحد يقول : أنا لها، فانتشأ من

(23) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

ذلك فساد البواطن، وتكدير المعاطن، فلما رجعوا رجعوا كذلك، فأنهي ذلك إلى علم مولانا المؤيد فأمهلهم أياما ثم دعا ابن الطاهر العقيلي وكان هو قائد المغافرة، وعلى مركزه كان مدار ذلك الفساد، فلما وقف بين يديه وبخه وشنع عليه سوء أفعاله وعددها، ثم أمر بقبضه وتوجيهه للسجن، فخرجوا به وهو يضحك لأنه في صبيحة ذلك اليوم تحزبوا علي أن من قبض منهم يطلقه الآخرون، فلما بعدوا به عن باب دار السلطان وجدوا الطاهر بن مسعود وحزبه جلوسا في الطريق، فقاموا وأطلقوه من يد من جاءوا به بعد محاربتهم حتى جرحوا إدريس البواب أحد القابضين له، فقامت حمية أصحاب السلطان لمدافعتهم فغلبتهم شيعة أهل الفساد، لأنهم قد استعدوا لذلك والناس غارون غافلون، فماجت فاس الجديد موج البحار، وبرزت ضباب الفتن بعد الانجحار، وزلزلت الأرض زلزالها، وأظهرت الدنيا أهوالها، ونكرت أحوالها، وأظلمت من فاس البالي أرجاؤها، وسبقت عند منقلب الدود عرجاؤها، وأشاع المرجفون أن السلطان قتله الوداية فتسارعت الغوغاء والهمج الى الطيب الوديني عامل فاس يريدون قتله، فهرب ودخل داره وسد الباب، وتفرق من معه من الأعوان والأصحاب، وأما مولانا المؤيد فإنه لما وقع ذلك ركب وخرج من باب البوجات، وتبعه أصحابه ومن حضر معه من العبيد المسخرين وغيرهم، منهم من ركب، والجل على أرجلهم، فلما رأى الوداية السلطان خرج ركبوا وخرج أهل قصبة اشراقة بحذافيرهم وأدركوا السلطان عند قنطرة عياد، فنزلوا الى الأرض يقبلون حوافر فرسه ويتشفعون له، ويتبرأون من فعل السفهاء، وكلهم في الحقيقة سفهاء، وكان الحال إذ ذاك حال مطر خفيف، والشمس قد غربت أو كادت تغرب، فساعدهم على الرجوع فرجعوا به الى قصبة اشراقة لدار ابن فرحون، ثم تلاحقت عقالهم وكبراؤهم فجاءوا وطردوا الغوغاء فركب السلطان فجاءوا به حتى دخل الدار العالية، فلما أصبح طلع أهل فاس الحاج الطالب بن جلون والأشراف والعلماء ورؤساء الوداية غير الطائفة المتمردة، وأخذوا بخاطر مولانا المؤيد فأظهر لهم الرضى والعفو، فسكن الحال بعض السكون، فجلس السلطان أياما حتى اطمأنوا وظنوا أنه نسي فركب في غفلتهم وذهب لبستان أبي الجلود، فانحازت أصحاب السلطان كلهم لفاس البالي، العبيد والأحرار، ووجه السلطان لعبيد البخاري بمكناس

أن يقدموا عليه، فجاء القائد بوسلهام وأصحابه المسخرون والتباعة، فلما قربوا من فاس ركب الوداية وتحالفوا أنهم لا يتركون العبيد يدخلون، فحاربوهم حتي دخلوا رغما على أنوفهم، ومات من الفريقين عدد كبير، فدخل العبيد لقصبة أبي الجلود مع السلطان وأهل فاس، وبقيت الوداية وحدهم، ثم تهيأ السلطان للخروج فخرج على طريق قبقب على بلاد أولاد جامع، وكانت الوداية قد وافقهم بعض البرابر فتبعوا المحلة يوم خروج السلطان فنهبوا كل من تأخر، فبلغ السلطان دار ابن يش، ومنها توجه لمكناس {وقد اختصرت هذه القضية أشد اختصار، وليس لقصور في اللفظ ولا لانحصار، ولكن المجال فرج والمقال غير منفرج}(24) فكتب للقبائل كلها للحوز والشاوية ودكالة وبني حسن وأهل الغرب وزمور وآيت ادراسن، فاستعد السلطان للحركة إليهم غاية الاستعداد، فلما تهيأ لذلك زحف إليهم بتلك الجنود التي لا قبل لهم بها، وكانوا في أثناء المدة التي أقام السلطان بمكناس يستغوون القبائل في الدخول معهم في حزبهم، فبعضهم يعدهم ويمنيهم، وبعضهم يردهم خائبين، وكان أولاد جامع ممن خالفهم وجاهرهم بالرد، فاستضعفهم الوداية وركبوا إليهم يظنون أنهم يستأصلونهم في ساعة واحدة، فأعان الله أولاد جامع فهزموهم هزيمة قبيحة، فقتلوا منهم عددا كثيرا وأخذوا كثيرا من الخيل والعدة ورجعوا خائبين، ثم لما أراد الله تعالى فضيحتهم والانتقام منهم، وجهوا طائفة منهم لابن الطيب وهو عامل بتازا وجاءهم مسرعا، وبايعوه فبذلك تبرأ جميع الناس منهم لأن ابن الطيب مبغوض عند جميع المسلمين {فلم يوافقهم على ذلك أحد إلا ما كان من جماعة من أهل العدوة أحداث أغمار استهوتهم الأوهام، وخانتهم العقول والأفهام، فخطبوا بابن الطيب يوم الجمعة بجامع الأندلس، وكان الخطيب لهم الشريف سيدي عبد الوهاب القادري(25) ولم يساعدهم أحد من أهل فاس البالي على ذلك، فانفرد الوداية بجريرتهم حتى أخذوا بسوء سريرتهم}(26) فلما جاء السلطان نزل عليهم وحاصرهم ونصب عليهم المدافع والمهاريز، فكان الضرب عليهم من المحلة بعين قادوس ومن بستيون بو الجلود وبستيون باب الجيسه وبستيون باب الفتوح، والقتال عليهم كل يوم

---

(24) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) ثابت في غيرهما. وفي (ش) فرج مكان حرج.
(25) عبد الوهاب القادري ت 1282هـ 1865م «الرفيات» ص 70.
(26) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) ثابت في غيرهما.

من كل ناحية، ولا يدخل إليهم شئ من المرافق حتى أشرفوا علي الهلاك، فوجهوا للحاج الطالب بن جلون وطلبوا منه أن ينظر في الصلح مع مولانا المؤيد، فكان يتردد بين السلطان وبينهم أياما، والسلطان كان عزم على المقام عليهم حتى يمحو آثارهم من الوجود، ولو أقام عشرة أعوام، وأراد البناء عليهم وجاء اللواحون وشرعوا في البناء، ثم لم يزل الحاج الطالب وقواد العسكر ورؤساء الأجناد يرغبون من السلطان في قبول التوبة منهم والصفح عنهم حتى أنعم بذلك علي شرط الخروج من فاس الجديد، فقبلوا ذلك على أن يمهلهم ريثما يتهيأون، فأمهلهم وخرجوا للاستشفاع بالصبيان والألواح والمشايخ والعجائز، ومعهم سلطانهم المذكور، فأظهر لهم مولانا المؤيد العفو والقبول، ثم ارتحل لمكناس وأطفأ الله نارهم التي أوقدوها، فلم يحترق بها أحد غيرهم [ومن ساعدهم من أهل العدوة](27) <وقد أعرضنا عن شرح حقيقة هذه القضية الهائلة فإن شرحها يفوت المقول ويذهل العقول>(28) ثم بعد ذلك أمرهم مولانا بالارتحال متفرقين، فرحل الوداية للعرائش، وأهل سوس للرباط، والمغافرة للحوز، وذلك بعد ما رجع السلطان لمراكش، ثم قبض على الطاهر بن مسعود، وابن الطاهر وابن فرحون وأمثالهم من مساعير الفتون، وأما إدريس بن حمان فهو مومن آل فرعون من أول الأمر الى آخره، وهو محل نظر السلطان وعيبة أسراره معهم، فأنجاه الله تعالى وأبقى السلطان عنايته عليه، ورفع له منار العز في قومه حتى مات وسدل ذلك الرواق على أولاده، ثم لما استقر السلطان مولانا المؤيد بمراكش أمر بقتل الطاهر بن مسعود وابن الطاهر في الموضع الذي أطلق فيه الأول الثاني، وكان الذي وقف على قتلهما الحاجة زويدة(*) إهانة لأمرهم، ومن حلم مولانا ورحمة الله التي جبله الله عليها وملأ بها باطنه لم يواخذ غير هذين اللذين هما أصل الفتنة، وقد كان أراد العفو حتى عن هذين لأنه نوى أن لا يواخذ أحدا كما حدث عنه بعض جلسائه، قال : وكل من عاقبه السلطان على هذه الفتنة إنما كان بإلحاح رجلين عينهما فأعرضنا نحن عن تسميتهما غفر الله لهما.

---

(27) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

(28) ما بين العلامتين ساقط من (ك) و (ش) و (ف).

(*) الحاجة زويدة عريفة الدار العالية بالله.

ثم وجه السلطان وصيفه ابن عبد الصادق لسوس وكان واليا على مراكش فأمره أن يترك خليفته بمراكش الحاج عمر النجار، وذلك بعد فراغ مولانا المؤيد من إقامة العرس المبارك الذي ما سمع مثله منذ أزمان، وهو عرس ولده البار مولانا محمد أمير المؤمنين المظفر، فقد احتفل به غاية الاحتفال، وأظهر فيه من الأبهة الملوكية، وزينة الحياة الدنيا السلطانية، الخارقة للعوائد، الدالة على ضخامة الملك وفخامته، مما تذهل العقول عند سماعه، وتكل الألسن عن وصفه، وكان ذلك بحضرة مراكش، وأمر السلطان أهل فاس والقرى والمدائن كلها أن يوجهوا العلماء والأشراف والأعيان والتجار، وأكابر كل حرفة، فجاء أمين الأمناء وقهرمان الدار العالية السيد علال الشامي، وحشد كل من يحسن شيئا من أنواع الطبخ من أهل فاس وأهل تطوان وأهل الجزائر المستوطنين بفاس، وكل أهل الموسيقى وأنواع الملاهي والطرب والآلات المعدة للأفراح والسرور، فلما وردوا مراكش هُيِّئَ لهم محل متسع من بساتين السلطان بالقصبة يسع العالم، فاشتغلت كل طائفة بما هي بسبيله، وقد فرشت القباب والمنازه والمقاعد والمجالس بالفرش المنضدة، والستور المزخرفة، والبسط الديباجية المذهبة، وأفيضت نعم الله وبركاته الواكفة على الحاضرين، الخواص والعوام، ولم يحجب فيها أحد، واستمر الحال على ذلك عدة أيام حتى سئم الناس من ترادف الخيرات، وتكرر المفرجات المسرات، وكثرة الغيث والمطر، قد يعد من الخطر، وبالجملة، فهي وليمة تجلى الله فيها بصفة الإحسان والرضى، وأشرق نور جماله على الكون فأضا، وانهلت مواهبه فطبقت الفضا، ونودي لها كل حسن بلسان الكمال فأجاب الندا، وأهانت هذه الوليمة وليمة بوران وقطر الندى، ومن بركات هذه الوليمة أن مولانا المؤيد بفراغه منها استوى على كرسي السعادة والراحة، وأتته جميع المقاصد من غير أن يوجف عليها خيلا ولا ركابا أو يمد إليها الراحة، فإنه صدر ولده العروس، السلطان المظفر المحفوظ المحروس، فألقى إليه جملة أمره بأزمته، وفوض إليه كلية ملكه برمته، فكفاه جميع المهمات، قام دونه في النوائب والملمات، فتمهدت الأقطار بيمن إمرته، وسعادة غرته.

ولما زهد مولانا المؤيد في إيالة الجزائر، وتخلى عنها بعد ظهور شؤمها، وخستها ولؤمها، طمع فيها كل فتان مغرور، كولد محيي الدين

المعسكر موقد نيران الشرور، وكان مولانا المؤيد في أول الأمر ربما أعانه وأمده، لأنه يظن أنه في تلك الناحية لأهل الإسلام عدة، وأن طلب الحق هو الذي أنهضه وأعده، فنما أمره حتى بلغ أشده، وبرقت له بارقة فتعدى طوره وتجاوز حده، حتى إنه من فرط جهله، طمع في مملكة المغرب كله، وكان يصرح بذلك جهارا، ويظهره في محافله إظهارا، فجعل يستهوي بعض القبائل الريفية والجبلية. وشاع ذلك حتى تحققه مولانا المؤيد فوجه محلة لتلك القبائل يستكشف باطن الحال مع القائد محمد بن سالم الأحمر المالكي العروي، فقتل غيلة ورجعت المحلة، فازداد بذلك طمع المغرور، فجعل يحبو في تلك النواحي إلى تازا حبو الخائف المطمئن، تارة يتقدم، وتارة يتأخر، وتارة يتيامن وتارة يتياسر، ثم دبر مكيدة، ووجه شرذمة عتيدة، وأمرها أن تظهر أنها منه فارة هاربة، مع أنها مستبطنة أفاعيه وعقاربه، فجاءوا حتى قربوا من فاس ونزلوا، فطلبوا التأمين والأيواء، وزاد هو في حبوه وزحفه حتى نزل بالقعدة الحمراء، وهو يخفي أمورا ويظهر أمرا، فلما تفطن مولانا المؤيد لتلك الدسيسة أمر باجتياح تلك الشرذمة الخسيسة، فسارت إليهم الخيل والرماة، فدافعت بالقتال الشديد عن الأموال والحرمات، حتى إن منهم من قتل بنته وحليلته مخافة أن تؤسر وتهان بعده، ويتقابل اثنان منهم وقد أطلع كل منهما مكحلته، فيقول كل منهما لصاحبه أخرج في وأخرج فيك فيموتان معا. فلما حيل بينهم وبين ما يشتهون، وسمع المغرور ما وقع بقومه تأخر ويئس من نجاح تلك المكيدة، فرجع الى برابر الريف الصم البكم، فاشتغل فيهم بالإغواء يعدهم ويمنيهم، ويبعدهم من الخير وإلى الشر يدنيهم، فاشتد أمره فيهم وتمكن ناموسه، فخرج إليه أمير المؤمنين السلطان المظفر سيدي محمد بأمر والده بالعساكر المنصورة، والقوة القاهرة الغير المقهورة، فلما نزلت المحلة السعيدة بقربه، خنس الى الكيد على عادته ودأبه، فنادى في تلك البرابر الريفية، فجمعهم وأمرهم أن يتأهبوا في ليلة عينها لهم لتَبْييتِ المحلة، وقال لهم : إنه لا قدرة لنا على مكافحتهم نهارا. فجاء مَن أخبَر مولانا المظفر، فأخذوا أهبتهم، فجاء المغرور في أثناء الليل بحرب شديد، فلم يصادف إلا النار والحديد، فرجع يجر ثياب الصغار والذلة والمهانة، بعد إنفاذ غاية الغلظة والمتانة، فأصبح في حوالي المحلة من جثتهم وجيفهم ما لا يعد ولا

يحصى، فأقلع عن محله متأخرا، فتبعتهم المحلة فضربت بقربه ثم صدمته صدمة الختام، ففر في سدفة العجاج والقتام، وترك مضاربه وخيامه، واستقبل ليالي الخزى وأيامه، وتوجه نحو بر النصارى، واتخذهم أعوانا على أهل الإسلام وأنصارا، ورجع مولانا المظفر ترف بألويته رياح النصر، وتقدمه السعادة التي لا نهاية لها ولا حصر، فلما بلغ حضرة مراكش أنشدته القصيدة النونية(29) المتضمنة للتهنئة بالظفر وبلوغ الأمنية.

وكانت خلافة مولانا المظفر عن أبيه مولانا المؤيد كخلافة السلطان سيدي محمد بن عبد الله عن أبيه مولانا عبد الله سواء بسواء، فقد أدرك كل منهما في أيام أبيه ما لا يقدر قدره، وخلد كل منهما من المآثر وشيد كل منهما من المباني والمصانع ما تعجز الأقلام عن وصفه، أما سيدي محمد بن عبد الله فقد تقدمت آثاره في رايته وراية أبيه، وأما مولانا المظفر فإن آثاره في أيام أبيه لا تحصر، فمن ذلك إجراء الأنهار، وتفجير العيون التي عجز الملوك المتقدمون عنها فتركوها بائدة مع كونها في أبواب ديارهم، ومناط استنباطهم واختيارهم، فنهض إليها مولانا نصره الله فأحياها بعد مماتها، ونسخ آياتها، فصير القفار رياضا ناضرة، ذات أزهار عاطرة، وثمار حاضرة، وغلل متكاثرة، وفاخرت بها مراكش غوطة الشام، وأنست بني مروان ملوك بني مولانا هشام، فمن ذلك تكميله ما أنشأه والده المؤيد من أغراس أكدال، فإنها في زمان المصيف تنالها المعطشة الفادحة، لأن البرك والصهاريج التي كان يختزن فيها الماء ويدخر من الشتاء للمصيف كما كان ذلك في أيام مسرة الموحدين قد تعطلت بامتلائها بالتراب والطيون التي تجلبها السيول إليها حتى بطل الانتفاع بها، وأكبرها البركة العظمى التي بدار الهناء، وكان يقال لها البحر الأصغر، لأن ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشأوها جعلوا فيها الزوارق والفلك الصغار للتفرج والتنزه بها، وفي ذلك الصهريج غرق أحد ملوكهم وهو عبد الواحد بن المأمون كما تقدم في لوائهم، وطول هذه البركة اثنتا عشرة مائة قدم، وعرضها تسعمائة كما أخبرنا من قاسها، وهي أيضا مردومة عاطلة، وكانت دائرتها المربعة بمنزلة سور قصبة، فجاء من بنى في وسطها قرية

(29) لم نقف عليها فيما تبقى من شعره.

بدورها وأزقتها وأسواقها، فجاء مولانا محمد المظفر فأمر بإخراج ما في تلك البرك والصهاريج كلها وتنقيتها من الطيون المتحجرة، حتى صارت كالربى والهضاب العالية، لاسيما البحر الصغير الذي هو البركة الكبرى، فاجتمع على ذلك عوالم من المخلوقات حتى أفرغوا ما فيها وعادت البرك الى حالها الأول الذي وضعت لأجله، وهو اختزان الماء لوقت المصيف، وبذلك كمل المراد من أگدال وصار آمنا من العطش والهلاك، ومن ذلك أيضا إحياء عين أبي عكاز خارج المدينة يخرج إليها على باب الطبول، وتلك العين أيضا من آثار الموحدين، ولها بركة بائدة على الوصف الذي ذكرنا، فقام إليها مولانا المظفر ففجر لها عينا غدقا وأجراها إلى البركة التي صار طينها المتراكم طبقا طبقا، فأمر نصره الله بإفراغها وتنقيتها وإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح منها، فعاد ذلك البسيط الذي حولها مزارع نفاعة، تغني الزارعين، وتبهج الناظرين، وبني نصره الله حولها قلعة عجيبة يأوي إليها الحراثون بأنعامهم ومواشيهم، واتخذ هناك من الخيل الإناث المعدة للنتاج عددا كثيرا، ومن ذلك أيضا إحياء عين المنارة وبركتها العظمى التي تقرب من البحر الصغير الذي بدار الهناء المتقدم الذكر، وهي أيضا من آثار الملوك الموحدين أبناء عبد المؤمن بن علي، إلا أنها تعطلت منذ أزمان، فقيض الله لإحيائها مولانا السلطان المظفر، فأجرى لها العيون والأنهار، وجمع الخلائق لإخراج الجبال التي في جوف البركة وإلقائها خارجا، ورتب العملة في إصلاح ما اختل من حيطان دائرة البركة، وفي أقرب زمان عادت كأحسن ما كانت عليه، فأمر نصره الله بغرس ما دار حولها من الفضاء المتسع بأنواع الأشجار من الزياتين والتيون والفواكه الصيفية والخريفية، ضاهى بها أگدال الذي أنشأه والده المؤيد، فلما رأى مولانا المؤيد ما ابتكره سيدنا ومولانا المظفر تعجب من تسخير الله له ما عجز عنه الأولون والآخرون، وعلم أن قدرة الله تعالى لا تحد بحد، ولا تقيد بقيد، ومن ذلك أيضا إجراء النهر المسمى بتارقى المستمد من وادي نفيس، فإنه ضاهى به النهر القديم السلطاني المسمى بأسكجور، وهذا النهر المحمدي الجديد أنفع منه وأوسع مجالا، فقد أحيا الله به تلك البسائط، التي بين مراكش ووادي نفيس، وصار النهران به القديم والجديد بمنزلة الفرات ودجلة بأرض العراق ببركة مولانا المظفر، وقد كنت خاطبته نصره

الله لما أبطأ بفاس في بعض حركاته بالقصيدة الرائية وذكرت فيها المصانع المراكشية تشويقا له واستدعاء وهي هذه :

لك الخير تحدوه إليك البشائر ... هل اذكرت أحبابهن العشائر
أراهم على شحط المزار هواجعا ... وطرفي من طول التفرق ساهر
تحن إليهم كل حين ركائبي ... عشارا وتحكيها الجياد الضوامر
وترقص ما بين المرابط كلما ... سرى من حواليها الخليط المجاور
أما والذي لو شاء قرب دار من ... هويتهم والله ربي قادر
لقد نال منا البين ما لا تناله ... عداة بأيديها الصفاح البواتر
ولكن إذا ما الأمر بالغ وانتهى ... لغايته لاشك فالأمر قاصر
وقد آن من نور الصباح انصداعه ... فتنزاح بعد الانصداع الدياجر
إذا ما بدا وجه الإمام محمد ... فقد جاء نصر الله والفتح ظاهر
محمد نور الله في الأرض كلها ... محمد سيف الله للدين ناصر
سليل أمير المؤمنين وزيره ... ومن أهله يرضى الفتى من يوازر
وشبل ملوك من ذؤابة هاشم ... تراثهم ملك السورى والمفاخر
يجاذبه أنى تلفت سؤدد ... أوائله مشهورة والأواخر
فأعمامه مثل الشموس ضواحيا ... وأخواله مثل البذور زواهر
هو الملك الجحجاح ليس لمعتف ... سواه إذا دارت عليه الدوائر
هو السيد المرهوب يفلق بأسه ... رءوس الأعادي لا تقيها المغافر
يسير فتغشاه السعود مطيعة ... أماماً وخلفا حيث ما هو سائر
وتختفق الرايات فوق كتائب ... لهـا عزه ناه لهن وآمر
أسود على جُرْد إذا احتدم الوغى ... لها النقع غاب والسيوف أظافر
هو العالم البحر المحيط علومه ... تناقلها في الناس باد وحاضر
تضيء وراء الغيب أنوار رأيه ... فما هو راء فهو بالنجح سافر
به جبر الله المغاربَ فاغتدت ... صحاحا ونالت ما تروم المكاسر
أسيدنا يا كهفنا يا إمامنا ... دعاك اشتياق في الجوانح ثائر
دعاك إلى هذي المواطن أهلها ... فكلهم من فرط حبك سادر
دعاك الى أرض البديع منارة ... يزايل عنها الصبر من هو صابر
مبان كما شاء الجمال تكونت ... تحار بمرآها الأنيق النواظر
قباب على سمت السعادة شيدت ... تحف بها الأدواح وهي نواضر
فمنها التي في النيل تلعب حولها ... ظباء تجاريها المها والجآذر

وفي مدخل رضوان أخرى تصويت قد ابتهجت في جانبيها المشاور
وأخرى على أرض المصلى مطلة قد اعتدلت أهواؤها والعناصر
وفي وسط الزهراء ذات مجالس مفتحة تفتر فيها الأزاهر
ودار الهنا حول الخليج مقاعد يلذ بها للسامعين المزاهر
وفي ابن عقيل للمقيل مسارح يردد فيها الطرف والطرف حائر
كذلك أكدال الصغير الذي له منارة عز ترتضيها المنائر
إذا انفجرت تلك المنارة أو جرت فليست تضاهيها البحار الزواخر
وليس لفاس مثلها برياضه وليس يحاكيها زرود وحاجر
ولكنها لا يستتم جمالها وبهجتها إلا بأنسك حاضر
فبادر أدام الله عزك وصلها فكم حاز إدراك المنى من يبادر

ومن ذلك أيضا إجراء النهر الذي جلبه من تاساوت إلى بسائط القفار التي بين بلاد زمران والرحامنة والصراغنة وهي المسماة بفيطوط من جملتها كدى تملالت فعاد ذلك كله رياضا مخضرة، وبساتين ذات أزهار مفترة، ومزارع مضمونة، ومحارث مأمونة، وغابات من الزياتين ظليلة، تنظر الأبصار الى غايتها فترجع كليلة، وبنى فيها مولانا المظفر قصبة عامرة، يصرف فيها الفلاحون والوكلاء نواهيه وأوامره، وكانت تلك الفيافي مفازة مخوفة، ومهلكة للسيارة بشدة العطش موصوفة، تضل فيها القطا، وتقصر فيها الخطا، فأحياها الله وأمنها ببركة مولانا المظفر، وعمرها بعد الخلاء بيمنه الموفر، الى غير ذلك من الآثار العظام، التي أثلها وخلدها، والمباني والمصانع التي شيدها، ومرادنا بذكر هذا بيان الشبه الذي أشرنا إليه بينه وبين سَمِيِّه جد أبيه، الذي ليس له سواه شبيه، وسيأتي ذلك في رايته المرفوعةَ بيمين السعود، الظافرة بالعز الموعود، ثم إن مولانا أمير المؤمنين المؤيد وجه ولديه مولاي سليمان ومولاي الرشيد لأداء فريضة الحج وزيارة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، ولما عزما على السفر المبارك أمر وزيره الأعظم الأجل الأكرم الفقيه لسان الدنيا البليغ أبا عبد الله سيدي محمد بن إدريس أن ينشئ قصيدة على لسانه يخاطب فيها جده خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، ويشكو إليه بحال الزمان وأهله، فكتب إلي الوزير رحمه الله بما نصه :

بعد حمد الله والصلاة على رسول الله صدر الأفاضل، ومظهر

الفضائل، الفقيه العلامة الأخ في الله، والمحب من أجله فلان حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد، فإن مولانا نصره الله أراد توجيه ولديه لحج بيت الله الحرام، وأمرني أن أنظم قصيدة على لسانه توجه معهما لحضرة رسول الله صلي الله عليه وسلم، يكون مضمنها التوسل إليه بالرحم والشكاية بهذا الزمان الذي قل فيه المعين على الحق، وترادفت فيه الأهوال، وتقلب الأحوال، وقد علمت ضعف أخيك وكثرة ما يعتريه من الأمراض، ولاسيما هذه المدة، فإني من يوم ورود هذه الحضرة المباركة، اشتد بي صداع لازم، ويكثر آخر النهار من الزوال إلى أنصاف الليل، عافاك الله، وأريد من أخي أن ينوب عني في ذلك ويكفيني مئونته كفانا الله وإياك جميع النوائب، واعلم أن سفرهم في أول الشهر الداخل والسلام، انتهى.

فلم أجد بدا من الامتثال فأنشدت القصيدة اليائية(30) وهي هذه :

أركبا سرى إذ شام برقا يمانيا ... ليهنكم أنا بلغنا الأمانيا
تألق في ظلمائه فكأنه ... مباسم تحكي في سناها اللآليا
زجرنا به الآمال فابتسمت لنا ... وضاءت كما أضحى يضيء الدياجيا
وروع أحشاء تحن لمعهد ... تقضت به عهد الشباب تقاضيا
وما زال هذا البين يوقد لوعة ... أبت في فؤاد الصب إلا تماديا
فؤاد دعاه الحب من بعد كبرة ... وما للهوى بعد المشيب وماليا
ولكن أدواء الهوى إن تمكنت ... لواعجها لم تلف منهن شافيا
ألا حي مغنى للحبيب وإن نأى ... وماذا على صب يحيي المغانيا
ونحن وقد جف الكتاب معاشر ... رضينا الهوى فليقض ما كان قاضيا
رعى الله أهل الحب من كل حادث ... ولا راعهم عذل لمن كان لا حيا
نرد على الأعقاب صوب مدامع ... حذار رقيب ليس يبرح واشيا
ولولا عيون الكاشحين لأخلفت ... مدامع تجريها الغمام الغواديا
وهيهات إطفاء الجوى بجوانح ... تذوب إذا ما الركب أصبح غاديا
يهيج الصبا إن هب من أرض حاجر ... كوامن أشواق تزيل الرواسيا
عذير غرير في الهوى لعبت به ... صبابات ذكراه الربوع القواصيا
إذا غردت في الأيك وهنا حمامة ... تذكر نجدا والنقا والمطاليا

(30) نسبت هذه القصيدة في اتحاف أعلام الناس لابن زيدان للوزير محمد بن ادريس وهي من إنشاء صاحب الجيش كما أشار إلى ذلك هنا. قلت وكم لها من نظير.

وبيتا عتيقا في أباطح مكة رفيعا من الديباج مازال كاسيا
إذا ما دنا الركبان منها تجردوا وطافوا بها شعثا ظماء بواكيا
وأيقن كل أنه ببلوغه لذاك الحمى نال المنى والأمانيا
وأضحى أمينا من عَذاب إلاهه ومن بعد سخط يستبيح المراضيا
هنيئا لقوم ناظرين جمالها عكوفا لديها يحمدون المساعيا
قضوا تفثا بعد الإفاضة وانثنوا لطيبة يزجون القلاص النواجيا
وراحوا على إثر الوداع وحصبوا على مرح يطوون تلك الفيافيا
وما فصلوا حتى تراءت بعيدة من الغور أنوار تنير المحانيا
وهبت رياح* عاطرات بليلة كما فاح روض بالأزاهر حاليا
فجدت على الأين الركاب وهيمنت ركائبهم كيما تنال التدانيا
ولما دنا أرض الحبيب ترجلوا وأظهرت الأشواق ما كان خافيا
وعفر كل في التراب وجوههم تراب به خير الورى كان ماشيا
وخرت ملوك الأرض فيه جلالة لمن بان فيه يسحبون النواصيا
ألا يا بقاعا في البقيع وواديا به خيرة الرحمان حييت واديا
فوالله لا أنسى زمانا قطعته بمغناك حيث السعد كان مواتيا
ويا وافدا قد أنزلته عناية هناك فأضحى بالكرامة راضيا
نك الله ما أهنا وأكرم موطنا ثويت به حياك ربي ثاويا
فَعَنِّي لخير الرسل أد رسالة وإياك تنسى أو ترى متناسيا
فقل بعد إهداء السلام تحية تعم ضجيعيه الكرام المواليا
إليك رسول الله من أرض مغرب عن المذنب الجاني أتيتك شاكيا
عن ابن هشام الاسير لنفسه وأهوائه يبغي لديك التفاديا
عن ابن هشام الذي قد تقاعدت به عنك أشغال أصارته غانيا
عن ابن هشام الذي ليس يرتجي سواك فحقق فيك ما كان راجيا
يحاول إصلاحا لأمتك التي رجوناك تنفي عن حماها الأعاديا
رجوناك تكفينا المخاوف كلها فما زلت من كل المخاوف كافيا
رجونا لديك النصر في كل حالة على من غدا بالغي في الناس باغيا
رجوناك ترعانا من الفتن التي غدا أهلها فيها الأسود الضواريا
فليس لهذا السرح غيرك كالئ فكن يا رسول الله للسرح كاليا
وليس لنا إلا بملة أحمد دعاء إذا ما الغير أصبح داعيا
وحاشاك من ينمى إليك تمله وتسلمه إن أصبح الهول داجيا

وحاشا ندى كفيك وهو مفجر ... على سائر الأكوان يترك صاديا
ألا يا رسول الله إني خائف ... وأنت مجير الخائفين الدواهيا
ولي رحم موصولة بك أبتغي ... لها صلة تولي لديك التراضيا
ومثلك للأرحام يرعى ذمامها ... ولا شك ترعى لي كذاك ذماميا
فرحماك للرحم القريب وعطفة ... فأولى بعطف منك من كان دانيا
وعونا لنا من صولة الدهر إننا ... بغيرك لا نرجو من الدهر واقيا
فقد أحكمت فينا المقادر حكمها ... سياسة أقوام تحاكي الأفاعيا
وقد ألزمتنا أن نعاشر معشرا ... يسرون شيئا غيرما كان باديا
على قلة الإنصاف والخير فيهم ... وكثرة أقوال تطيل التناجيا
سوابق للأطماع ينتهبونها ... كواسل عند الروع تخشى التلاقيا
عزائمهم في نيل ملء بطونهم ... فندعوهم روبى بطانا بواطيا
فلا عون إلا من عنايتك التي ... بها نتقي هذي الذئاب العواديا
ولا ملجأ إلا إلى عزك الذي ... نلوذ به حصنا من الضيم عاليا
بجاهك يا قطب العوالم كلها ... ويامنبع الأمداد نرجو الأمانيا
فوجه من النصر الإلهي عاجلا ... لنا مددا مادام عزك باقيا
وصلى عليك الله في كل لمحة ... بكل صلاة لا تروم التناهيا

وفي هذا العهد وجه السلطان المؤيد ولده البار المظفر لناحية وجدة لحياطة البلاد وحفظ الإيالة من العدو الكافر الفرنصيص لأنه تكالب على من جاور قبائل إيالة الأتراك التي التقمها أعوانه، فخرجت العساكر من مكناس وفاس وما أضيف إليهما من الأعراب والبربر مع مولانا المظفر، وكانت الرؤساء من تلك المحلة غير مؤتلفة، والأجناد الداخلة في العسكر من زرارة الشبانات وأولاد دليم غير ناصحة لأمرائهم لسوء أفعالهم، فلما بلغ مولانا المظفر بلاد أنجاد، ونزلت المحلة بالعيون جاءه أهل البلاد العارفون بمكايد الروم، المباشرون لحربهم، المطلعون على عوائدهم، وقالوا يا سيدنا : إنه يجب أن تبقى المحلة ههنا ولا تتعداه، وتكون الخيل تغير على الأعداء وترجع لمأمنها، فقال لهم : نعم ذلك هو الذي يكون عليه العمل إن شاء الله، ثم جاءه رؤساء المحلة وقالوا له : هذا خور ووهن لا يليق مع القدرة والصولة وكثرة الجنود التي لا يطيق أحد مقابلتها، والذي يليق هو أن تربط المحلة بطرف بلادنا، وتغير على العدو في بلاده، فوقع الخلاف في

ذلك وغلب من لا رأي له على أهل الآراء والتجارب، فزادت المحلة إلى حيث أرادوا، فنزلوا غير مبالين ولا مكترثين، غارين آمنين، كأنهم في ديارهم، واغتروا بكثرة الجنود، وظن الرؤساء أن قلوب الأتباع متواطئة، وأنهم معولون علي صدق اللقاء، وجاءت العيون وأخبروا أن العدو في غاية الاستعداد، وأنه عازم على أن يسوق إليهم بكرة غد، فلم يبال أولئك الرؤساء بأخبار العيون، وقالوا : إنهم مرجفون يعظمون شأن الكفار ويوهنون شأن المسلمين، فأصبحوا متكئين على أرائكهم، يطبخون أغديتهم، فلم يرع الناس إلا طائفة من خيل المحلة كانت راكبة، فجاءوا يستبقون وقالوا : إننا رأينا جيش العدو بأبصارنا مقبلا، وسمعنا طبولهم، فلم يفرغوا من ذلك الحديث حتى أطلت رايات العدو، وعاجلت الناس عن إسراج مواكبهم،فضلا عن حمل مضاربهم، ومولانا المظفر ما أخبروه بحقيقة الأمر إلا في هذه الحالة، فجاءوه بمراكبه، فلم يرد الركوب لئلا تفر المحلة إذا رأوه ركب، فقيل له إن المحلة وسرعان زرارة والشبانات ومن وافقهم ساروا وقد قطعوا مسافات وبلغوا مأمنهم، وباتوا معولين على الفرار، فكان مولانا المظفر آخر من ركب من المحلة فرجعت المحلة إلى فاس على كثرتها بلا قتال ولا وقوف ولا التفات، بل جل من نهب المحلة أولئك الخونة الهراب لإنكاء قوادهم وأمراءهم.

وفي عام ستين ومائتين وألف هجم الفرنصيص على ثغر الصويرة غدرا والناس غافلون، فرمى عليها من البمب آلافا، ودخل الجزيرة التي فيها المساجين : أهل الجرائم، فأخذهم ولم يتجرأ على دخول الصويرة، وإنما وقف في البحر ينظر إلى المسلمين ينهبون إخوانهم المسلمين، وذلك أن الشياظمة والغوغاء الأخلاط البطالين الذين بداخل البلد لما رأوا العدو دخل الجزيرة لم يشكوا أنه يدخل البلد، فمدوا أيديهم في متاع الناس، وكان ذلك أولا في أهل الذمة، ثم عم غيرهم فضاعت في ذلك أموال التجار، ودخلت في ذلك دار الأعشار التي فيها ذخائر السلطان وأموال بيت مال المسلمين، وخرج الناس جافلين نحو البادية، فكل من دخل بلاد الشياظمة نهبوه وفضحوه وسلبوا الحرمات، ولم يتركوا شيئا من المحرمات، ومن دخل بلاد حاحة الغالب عليه السلامة والأمان على المحارم والأعراض، وقد ظهر بهذا الفعل من المسلمين أن الدين قد بلغ الغاية في الضعف نسأل الله البر

الرحيم أن يجبر كسر هذه الملة ويرحم ضعفها، والذي يدل عليه حال عوام الأعراب سكان البوادي اليوم أنهم لولا ما يتقون من سطوات الملوك والحكام لا يفرقون بين الحلال والحرام، ولا يدينون دين الحق إلا بألسنتهم، وهذه المعرة التي وقعت بالصويرة وقع مثلها لأهل الأندلس، لما أخرجهم النصارى إلى هذه العدوة ونهبهم إخوانهم الذين يقولون بألسنتهم إنهم مسلمون، قال المقري في نفح الطيب ولما كان إخراج النصارى لهم بهذا العهد القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس وألوف أخرى بتلمسان ووهران، وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله سبحانه في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهكذا ببلاد تلمسان وفاس وقليل من نجا من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم انتهى. ثم لما أقلع العدو وأخذ المساجين الذين بالجزيرة تراجع الناس إلى عقولهم وإحساسهم، وانتبهوا من منام غفلتهم، وأمر السلطان المؤيد عمال حاحة والشياظمة أن يردوا الناس إلى منازلهم، ووجه السلطان أمينه المحتسب بمراكش مولاي إبراهيم البوكيلي المعروف بالسوارت، ووجه معه مالا كثيرا يفرق علي من سلب ولم يبق له شئ يصلح به بعض شأنه، ويستعين به علي الرجوع حتى يستقيم حاله، وعلى أهل الذمة كذلك، فعاد الناس إلى منازلهم، وسكن الحال واطمأن الناس بحسن مراعاة مولانا السلطان المؤيد وبرحمته وإحسانه، ‹ومن بركته وحسن نيته لم يمر إلا زمان يسير جدا حتى عادت الصويرة كما كانت أو أحسن، وزادت عمارة وامتلأت بالتجار من المسلمين وغيرهم›(31).

وبعد هذا بقريب، ورد أحد الشيبيين حجبة بيت الله الحرام على مولانا السلطان المؤيد فاحتفل بوروده فوق ما يوصف، وركبت القبائل كلها التي يمر عليها بأمر السلطان من قبيلة إلى أخرى، كلما بلغ قبيلة لقيته بخيلها ورماتها وهداياها، ولم تترك شيئا من كل ما تفعل عند ملاقاة السلطان، وهكذا من فاس إلى مراكش ‹فلما بات بقنطرة تانسيفت ركبت العساكر السلطانية والجنود›(32) وخرج أهل مراكش بحذافيرهم فرحا وسرورا وتبركا برؤيته، فكان يوم دخوله من الأيام التي أظهر الله فيها

(31) ما بين العلامتين ساقط من (م).
(32) ما بين العلامتين ساقط من (م).

تعظيم حرماته، وأفاض فيه على سدنة بيته العتيق أعظم رحماته، فأنزله مولانا المؤيد في أعز أماكنه، وأبهج رياضه ومساكنه، ووالى عليه سوابغ النعم، وسحائب الكرم، وأقام مدة طويلة ثم رجع إلى فاس في ظلال المبرة والإفضال، وغاية العناية والاحتفال، فأقام بفاس وتزوج بها حتى أدركه هناك أجله ‹بطنجة بعد خروجه من فاس قافلا لبلاده›(33) وختم عمله، وبعد ذلك بقليل ورد بعض لغوات الحجرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام لحضرة مولانا المؤيد، ففعل به مثل ذلك الاعتناء وزيادة، وكلاهما أحق بغاية التشريف والسيادة، إلا أن هذا واسمه زكرياء لم تطل إقامته فأكرمه مولانا وبلغه مقاصده ورغائبه، وملأ بكل خير حقائبه.

وفي إثر هذا وفدَ رجل ادعى أنه ولد السلطان مصطفى العثماني، وأنه إنما جاء يطلب من مولانا أمير المؤمنين المؤيد أن يكتب لعمه السلطان عبد المجيد يقبله ويؤمنه ويقبل شفاعته فيه، فأكرمه مولانا غاية الإكرام، كما تكرم الملوك العظام، وأظهر غاية الفرح به وبقدومه، وقابله من كل خير بموجوده ومعدومه، وأكرمه مولانا بإيصاله إليه في حضرته، وملاقاته، ومشاهدة عزيز طلعته، وكان يركب لزيارة الصالحين ومقاماتهم، ويزعم أنه ملتمس لبركاتهم وكراماتهم، ثم أجازه السلطان علي وفادته بأعظم الجوائز، ثم انصرف وقد حاز بالاحتيال ما هو حائز، فلما بلغ جبل طارق ظهر أنه نصراني بطريق من البطارق.

وبعد هذا وردت قصيدتان بديعتان بخط عربي رفيع في غاية ما يكون من الفصاحة والسلاسة، من نفائس الأشعار، إحدى القصيدتين في مدح مولانا أمير المؤمنين المويد، والأخرى في مدح وزيره الفقيه العلامة أبي عبد الله بن إدريس، وهما من إنشاء نصراني من مالطة، يقال له فارس الشدياق، فكان ذلك من عجائب ما يروى، وذكر لنا أن فارسا هذا تعلم العلوم الأدبية من النحو والتصريف والبيان والمنطق والعروض وغير ذلك من علوم الإسلام بدمشق، وتضلع من ذلك حتى بلغ الغاية التي لا تدرك لأهل اللسان العربي، فضلا عن المتوغل في العجمة الفادحة،

(33) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (م) و (ف).

فسبحان القادر على ما يشاء، وشأن الشدياق المذكور ودأبه وعادته استجداء مواهب ملوك المسلمين بأشعاره ومدائحه العجيبة، فأدرك بذلك أموالا طائلة، وله مكانة عند كل دولة، وهو اليوم عند سلطان العثامنة على مطبعة اصطنبول.

وفي هذا العهد عزل السلطان المؤيد عامل فاس الرئيس الأجل السيد الطيب البياز الأنصاري الخزرجي، وولى السيد علال الشامي، ولم يعزله لريبة أو نقيصة، وإنما ظعن في السن وضعف عن مباشرة الأحكام، وفيما قرب من ذلك مات أمير الركب النبوي الحاج الطالب بن جلون، وكان ركنا شديدا من أركان الدولة رحمه الله تعالى، وكان له أموال لا تحصى، وتجارات منتشرة في آفاق الدنيا برا وبحرا، في السودان ومصر والشام، وبلاد أجناس النصارى، في كل بلد وإقليم له شركاء وعمال، إلا أنه لما توفي لم يظهر من ماله ما يناسب سعة حاله، وذلك لأنه أصابه داء السكتة فحيل بينه وبين بيان أمواله وتعيين متاعه، فأقام كذلك ينظر ولا يتحرك منه عضو إلا إذا حركه محرك نحو عشرين يوما على ما قيل، فنهب أهله وعبيده وإماؤه ومن يدور به كل ما ظهر له على وجه الأرض في مساكنه، فكانوا ينتهبون ذلك وهو ينظر ولا يقدر على منعهم، فلما مات لم يوجد في حوزه إلا الشيء اليسير بالنسبة لحال أمثاله، نعم بقيت له الأصول الكثيرة لأنه كاد يملك نصف أملاك فاس من رباع وعقار، وجل ذلك حازه السلطان في مقابلة ما في ذمته من متاع المخزن، لأنه كان يخوض في مال السلطان طولا وعرضا، رحمه الله تعالى آمين.

وفي ضحى يوم الاثنين الرابع من محرم فاتح أربعة وستين ومائتين وألف مات الوزير الأعظم، الفقيه الأجل الأكرم، إمام عملة اليراع، ومقدم حملة ذلك الشراع، مقلد الدولة بقلائد النثار والنظام، في المواقف العظام، والمزري ببدائعه، وأوابده وروائعه، ببديع الزمان، والفتح بن خاقان، أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس جدد الله عليه ملابس الرضا، كلما لاح نجم وأضا، فولي مكانه الفقيه النجيب، الوجيه الحسيب، ذو الأخلاق العاطرة، والأنامل الواكفة الماطرة، والرأي الأصيل والأمر المحبوك، والباطن الصافي الذي يحاكيه الذهب المسبوك، أبو عبد الله السيد العربي بن المختار

الجامعي(34) ثم لما قدم مولانا المؤيد لحضرة مراكش آخر قدمة قدمها عام خمسة وسبعين ومائتين وألف(35) عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب الحيي النزيه السيد محمد الصفار التطواني(36). وفيما قبل هذا العهد وقعت فتنة إبراهيم ولد يسمور اليزدكي، وهو رجل مكار خداع من قبيلة آيت ازدك من قبائل الصحراء، وكان يتظاهر بمحبة أهل الخير والأشراف، ويبالغ في ذلك، وكان يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويظهر بذلك نصيحة السلطان، حتى اشتهر بذلك وكثر الثناء عليه، وقبائل الصحراء عائدة إلى لفين، لف آيت عطة وأتباعهم، ولف آيت يفلمال، والغلبة في الكثير لآيت عطة، ولما ظهر إبراهيم هذا ظهرت له بعض الغلبة على آيت عطة الذين بتافلالت، وكان ذلك أمرا غريبا، فمالت القلوب إليه حتى إن مولانا السلطان المؤيد ولاه على تافلالت وقبائلها الصحراوية وكان هذا الظالم مبسوط الكف بالعطاء، لا يمسك شيئا، فاستغوى بذلك أكثر الناس خصوصا البُله من الشرفاء لأنه كما تقدم يبالغ في إظهار محبتهم بالإحسان إليهم أكثر من غيرهم، فاشتد بذلك أمره، وشمخ قدره، فسرت فيه نخوة الرياسة العظمى، ونصرت راياته على كل من خالفه، فيغير على هؤلاء ويعطي هؤلاء، وكان يحدث نفسه وخاصته سرا أنه يملك المغرب، وهو يدعي أنه إنما هو في طاعة السلطان، فلما تحقق عند مولانا المؤيد مكره وخداعه، وأيقن بما تبطنه من الفساد، جعل يكتب له بالأمور التي يعلم أنه لا يريدها، يختبر بذلك ما أظهره من الطاعة، ينظر هل يمتثل أمره أم لا ؟ فكان يخالفه في ذلك، وكلما أمره بأمر لا يوافق غرضه نبذه وراء ظهره، ويقول للناس : انظروا هذا الحمق، وهل يأمر بمثل هذا عاقل، ثم صار ينقص أمور مولانا المؤيد ويصرح بذلك، فلما تفطن له الكذابون على الله تعالى قصدوه من كل ناحية حتى اجتمع عنده من الشياطين عدد كثير، يمدونه ويمنونه، ويزينون له المخالفة، فطبق أقطار المغرب صيته، وجعل

---

(34) محمد العربي الجامعي بن المختار استكتب بالصدارة، وشبابه في عنفوانه الى أن تأدب وتدرب، وجرب من أمور السياسة ما جرب، فتفرعت له العدلية من الصدارة، وشارك صدرها في اسم الوزارة ثم أحله السلطان مولاي عبد الرحمن محل الصدر، حسب «فواصل الجمان» لغريط ص 61 الى آخر قصته المذكورة في الكتاب المذكور، توفي عام نيف وسبعين ومائة وألف هـ.

(35) كذا بالأصل وهو الذي في (م) أما (ك) و (ش) و (ف) ففيها 1271 وانظر تقييد ابن اليمني في المقدمة.

(36) الصفار التطواني الفقيه المدرس العدل المفتي الكاتب الوزير. وهو التطواني الوحيد الذي تولى الوزارة مع ثلاثة من سلاطين المغرب المولى عبد الرحمن وابنه المولى محمد وابنه المولى الحسن. ت 1298 هـ 1880م ودفن بقبة الولي الصالح سيدي يوسف بن علي بمراكش «تاريخ تطوان» مجلد 7 ص 78 «فواصل الجمان» ص 70 «الإعلام» ج 7 ص 34.

أمره يزداد كل يوم شدة وظهورا ومالت قبائل البربر كلها إليه اتباعا للفساد الذي جبلوا عليه، واهتم مولانا المؤيد بشأنه كثيرا، فبينما هو كذلك إذ قيض الله له من قتله من إخوانه، وأقرب الناس إليه، فكفى الله تعالى مولانا المؤيد أمره، ورد كيده في نحره، وأخذه من حيث أمن، وافتضح بمقتله افتراء المفترين واغترار المغترين، والحمد لله رب العالمين.

ثم وجه مولانا المؤيد أولاده لبيت الله الحرام، وزيارة قبر جده عليه السلام، وهم مولانا علي، ومولانا إبراهيم، ومولانا عبد الله، ومولانا جعفر، وولد عم أبيهم مولاي أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله، وكانوا وفدوا عليه للوداع لحضرة فاس، ثم خرج لمكناس، ومنه كتب لهم وأمرهم بالانصراف بالسلامة، وبالغ مولانا المؤيد في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم له مثله لإخوتهم الذين حجوا قبلهم، لا من الأموال ولا من الرجال ولا من الأدوات والمراكب الفارهة، المرافق العديدة، ووجه معهم من الأموال كثيرا لأشراف الحرمين، وللخواص المعينين من الأئمة والفقهاء والمجاورين، ووجه أكابر التجار الأمناء العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم، مثل الحاج محمد الزريني التطاوني، والسيد محمد البارودي الطنجي(37) ووجه معهم قاضي مكناس الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بن سودة الفاسي(38) المري، مع جملة من الطلبة الذين يقرأون عليهم، فركبوا من مرسى طنجة وكل جنس من النصارى يرغب أن يكون ركوبهم عنده في قرصانه، وقد هيأوا القراصين العجيبة فكان ركوبهم في قرصان النجليز فلما بلغوا إلى الإسكندرية تلقاهم سلطان مصر بغاية الفرح والسرور، وفوق ما يوصف من الإكرام والبرور، وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهاها، وأبهجها وأشهاها، وأعد فيها كل ما يحتاج إليه من أواني الفضة والذهب، وفرش الحرير والديباج، والنفائس الغريبة، ورتب لهم الرواتب العالية من أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة الملوكية، التي تناسب أقدارهم، وأباح لهم الدخول الى كل محل أرادوا رؤيته من الأبنية والمصانع والرياض والبساتين

(37) كذا بالأصل وفي غيره (التلمساني)

(38) المهدي بن سودة المعروف بابن الطالب المري كان فقيها محدثا أصوليا بيانيا منطقيا نحويا مشاركا، وكان يقرأ البخاري في الأشهر الثلاثة مع المولى عبد الرحمن ثم مع ولده سيدي محمد ثم مع ولده المولى الحسن ت 1294 هـ 1877 م. «السلوة» ج 1 ص 303 «الإعلام» ج 7 ص 283 عفى الله عنه.

السلطانية التي يتعجب من رؤيتها، وتنقل أخبارها، فشاهدوا من ذلك ما لا يكشف حقيقته اللسان، وما لا يظن أن تناله قدرة الإنسان، ثم ركبوا في بحر القلزم إلى جدة {ومنها إلى مكة}(39) فقضوا مناسكهم، وشفوا غلتهم، من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة، من الطواف والسعي والوقوف وزيارة المشاهد المباركة، وتوجهوا الى أعظم المقاصد وأسناها، التي هي لنفوس المؤمنين غاية مناها، زيارة شفيع الأمم، في الموقف الأعظم، وكانوا صادفوا بمكة وخما وفساد هواء مات منه كثير من الحجاج الآفاقيين، فمات من أصحابهم جملة، ومات أحد الشرفاء أولاد السلطان بمكة، ومات آخر منهم يوم دخول المدينة المشرفة، وسلم الله الباقي وأكرمه، وأعلى مقامه وعظمه، وجمع له بين شرف الحياة وثواب احتساب مصيبته بمن مات ‹ولما فازوا بزيارة سيد الأرضين والسماوات، ووافقتهم السعادة في›(40) ذلك المقام الذي تتضاءل دونه جميع المقامات، وأدركوا ما أملوه من لثم تراب أشراف البقاع وأكرم الحجر، وانفجر عليهم من كرم الله ما انفجر، ونال كل واحد ما كان يأمله ويرجوه، فخرجوا من المدينة راجعين بكل خير، وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه في تلك الأماكن من الوجوه، ولكن نالتهم مشقة فادحة من عتاة الأعراب، في المسافة التي بين المدينة والينبوع لأنهم انفردوا عن الركب عند الرجوع، لولا لطف الله لاستؤصلوا عن آخرهم، وهلكوا حتف أنوفهم ومناخرهم، ولقد كانت نجاتهم من تلك الشدة من أعجب العجاب، وفي خلوصهم منها عبرة لأولي الألباب، فإنهم كمن بعث بعد مماته وإقباره، وانقطاع أنفاسه وأخباره، والحمد لله الذي لا تخفر ذمته، ولا تنتهك حرمته، فلما بلغوا للينبوع وجدوا المراكب التي تحملهم في انتظارهم، فركبوا قافلين، ورياح السلامة تسوقهم، وأرباح التجارة والسعادة تكفل بها سوقهم، فلما وردوا حضرة مراكش تحت ظلال السلامة، وقد نشر عليهم القبول بنوده وأعلامه، باتوا بقنطرة تانسيفت وفي الغد ركبت الخيل السلطانية والعساكر، وخرج أهل مراكش في زينتهم، وكان يوم لقائهم يوما مشهودا، وموسما من المواسم المعظمة معدودا وكان أبو الحسن مولانا علي بن أمير المؤمنين مركز ذلك الركب السعيد، وبياض

(39) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

(40) ما بين العلامتين ساقط من (ك).

غرته، ومناط رضا أمير المؤمنين وموقع نظرته، فوجهت له ذلك اليوم هذه القصيدة تهنئة بكمال حجته، وسلامة رجعته وهي هذه :

نضت عن محياها المحجبة السترا وأبدت على خوط الأراك لنا بدرا
وقامت تجر الذيل من نشوة الصبا كما ريع ظبي عندما استشعرا الذعرا
وباحت بأسرار الغرام تهتكا وتلزمنا في الحب أن نكتم السرا
ومن فضحته في هواه دموعه وأرهقه التبريح من أمره عسرا
وأضرمت الأشواق بين ضلوعه ضراما فلم يسطع خلاصا ولا صبرا
تسابقه في جريها عبراته ومن ذا يرد السيل إن وجد المجرى
فكيف يواري بعد ذلك سره وقد عاد منه السر بين الورى جهرا
فذاك الذي لا يختشي لوم لائم وذاك الذي في الحب قد بلغ العذرا
يهيم به مستعذبا لعذابها فلا يرتجي وصلا ولا يشتكي هجرا
فتاة زهاها حسنها وجمالها فلم ترض سدلا للبراقع والخمرا
تميس كغصن البان رنّحه الصبا تخال بها سكرا وما شربت خمرا
وما هو إلا أن أتاها مبشر يقول لمن في الحي يهنيكم عشرا
هنيئا فنجم السعد قد لاح طالعا وأصبحت الآمال يانعة خضرا
فمن كان يرجو أن توافيه المنى فقد آن أن يرضى وحقت له البشرى
فقد عاد مولانا أبو الحسن الذي يقول أنا سعد السعود ولا فخرا
سليل أمير المؤمنين وشبله وصارمه إن حاول الفتكة البكرا
علي الذي قد شرقت ثم غربت علاه فلم تترك حجازا ولا مصرا
ومن كعلي في المكارم والندى إذا ما الغمام الجون قد منع القطرا
ومن كعلي في مصادمة العدا إذا اقتادها جردا محجلة غرا
{فتى ذخرت منه الليالي ذخيرة سيوسعها جبرا إذا صادفت كسرا}(41)
له همم أعلى من النجم قدرها فما قيصر قد نالهن ولا كسرى
وقد عاد من أرض الحجاز مهنأ بأفضل سعي فيه قد ربح التجرا
وفاز بحج واعتمار وزورة لخير الورى أعظم بما ناله قدرا
تسنم أثباج البحار إجابة لداعي الهدى مستسهلا مركبا وعرا
ولما استقل البحر منه بمثله عجبنا لبحر حامل فوقه بحرا
وهبت له باليمن من كل جانب رياح من الإقبال دائمة المسرى

(41) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) .

إلى أن أحلته السعادة منزلا ... بمكة في مثواه قد وقع الإسرا
وطافت به بين المقام وزمزم ... وقبل ما في الركن واحتجر الحجرا
وشاهد هاتيك المواقف كلها ... ونال من الخيرات مرتبة كبرى
وقال له الإسعاد ها أنت والمنى ... ودونك فالدنيا تجيبك والأخرى
ومن بعدما حاز الرغائب كلها ... وودع بيت الله واستكمل الأمرا
دعاه اشتياق المستجن بطيبة ... فصار يجوب البيد والمهمه القفرا
تلوح له الأنوار من نحو يشرب ... وتهدي إليه الريح من أرضها العطرا
فود لو أن الريح كانت تقله ... على منتها أو كان قد صاحب الطيرا
فما زالت الأكوار والعيس ترتمي ... به ودواعي الشوق موقدة جمرا
فلما تبدت للحبيب دياره ... جرى الدمع واهتاجت صبابته الحرى
وخرت وجوه العاشقين على الثرى ... سجودا لمولانا الذي أوجب الشكرا
هنالك تعتز الملوك بذلها ... ويترك فيه الكبر من ألف الكبرا
هنالك حيث الدين لاحت شموسه ... وحيث بدا الإيمان واختزل الكفرا
منازل حن الجذع فيها لأحمد ... وزلزلت الأحزاب إذ مكرت مكرا
منازل كان الوحي فيها منزلا ... وكانت لها الأملاك زائرة تترى
مواطن كانت تحت باطن أخمص ... به وطئ المختار فبالعرش إذ أسرى
ألم تك أهلا أن تداس بأوجه ... وتجعل في الأجفان تربتها الغبرا
تراب يهين المسك نفح أريجه ... ويرخص أثمان اليواقيت والتبرا
فلو ديف من ذاك التراب وضمخت ... به عاهة كانت بتضميخها تبرا
أمولى الموالي يا علي بلغتك ما ... رجوت من الفخرالذي جاوز الشعرى
دخلت على باب السلام مسلما ... على سيد الأكوان خير الورى طرا
كذاك على الشيخين سلمت بعده ... ضجيعي رسول الله في الروضة الغرا
وصليت بين القبر والمنبر الذي ... لديه يحط الوزر إن أثقل الظهرا
شفيت غليلا واقتضيت مآربا ... جلائل لكن لا تباع ولا تشرى
{وجاءك نصر الله والفتح فارتقب ... لطوى نصر الله أن يعقب النشرا}(42)
وأعطيت كنزا من مواهب ربنا ... فأعظم به كنزا وأكرم به فخرا
وألبسك المولى الكريم ملابسا ... من العز لاتبلى ولاربها يعرى
بعز أمير المؤمنين وسعده ... وأيامه اللاتي عرفنا بها الخيرا

---

(42) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

فنسأل ربي أن يمد ظلاله ... ونسأل ربي أن يطيل له العمرا(43)

‹وفي هذا العهد كتب السلطان وهو بمكناس لولده وخليفته مولانا المظفر سيدي محمد وهو بمراكش يأمره بقبض أحد عاملي الرحامنة القائد علال بن عبد الله، فقبضه واستخلص منه أموالاً كثيرة، ثم بعد مدة قريبة سرحه ووجهه عاملا على قطر السوس الأقصى، وكان في قبضه مفسدة لقبيلته وإيالته، لأنه كان ضابطا حازما قاهرا للمردة منهم والشياطين، فلما قبض انفسح لهم المجال، ولكن في قبضه مصلحة أخرى هي أرجح من دفع تلك المفسدة، وهي أنه كما ذكر بعضهم حصلت منافرة بينه وبين عامل الحضرة المراكشية أبي العباس السد أحمد بن عمر بوستة، فلما قبض علال بن عبد الله، وقيد غيره أظهر ذلك الغير الموافقة والمحبة والمساعدة في غالب الأمور، وانحسمت العداوة المفضية إلى الأضرار والضغائن فيما ظهر، واستقامت الأحوال، وجرت المصالح مجراها بين المتجاورين، وهذه المنابذة التي تحصل بين عمال الرحامنة وعامل الحضرة سببها أن الرحامنة ذاقوا لذة الولاية على المدينة في بعض الأزمان الماضية، فلم يكن عندهم أعدى من عامل مراكش، وسار كل من ولي على الرحامنة لا تكمل لذته وولايته عند نفسه إلا بالولاية على المدينة، وولايتهم على المدينة هي الطامة الكبرى، وما فطمهم عنها مولانا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان إلا بتوفيق الله وسعادة الجد، وكان علال بن عبد الله لما علا أمره في الولاية، وشمخ قدره فيها قوى طمعه في ولاية المدينة كما ذلك عادتهم كما أشرنا إليه، وكان عامل المدينة أبو العباس بن عمر لولا سعة أخلاقه ووفور عقله ودهائه وتحمله لأذى الرحامنة، لظهر منهم الفساد الكبير، والعتو الخارج إلى غاية الطغيان الذي لا دواء له، فما زال القائد السيد أحمد يداري علال بن عبد الله حتى انتقم الله منه، وعزله مولانا وكفى الله شره.

(43) كان الممدوح بهذه القصيدة أميرا عالما وكان تلميذا وصديقا محبا لمؤلف الجيش وتلميذه في علوم التنجيم والتوقيت والتعديل وكان ملازما له ملازمة الظل وفي الاعلام للمراكشي وهو يترجم هذا الأمير ما نصه : ولصاحب الجيش المذكور محمد الكنسوسي في المترجم مولانا علي أمداح كثيرة جمعت نحو سفر. توفي عام 1299 هـ 1881 م كما رأيته منترشا على رخامته بضريح الغزواني بحومة القصور قال في الاعلام المراكشي ز 9 ص 242، انه كان يحضر مع أخويه مولاي العباس ومولاي الرشيد عند العلامة قاضي مراكش الطالب بن الحاج في سرد صحيح البخاري بين العشاءين بجامعة ابن يوسف. كما قال عنه ص 249 انه أخذ عن سيدي الحسن الصالح المراكشي مع أخويه مولاي الرشيد ومولاي برعزة كانوا يردون عليه لمسجد أبي حسون القريب من داره بحارة الصورة في أيام والدهم (يعني المولى عبد الرحمن) هـ وكانت أيامه من عام 1238 الى 1276 هـ. قلت ومن جملة شيوخهم العلامة الأديب أبو مهدي عبد الله بن محمد بن احمد أكنسوس كانوا يحضرون درس الشيخ خليل صباحا. كما وقفت عليه في رسالة كتبها لتلميذه المولى الرشيد. هـ

ولما توجه مولانا المؤيد للغرب في هذه المرة الأخيرة استعد غاية الاستعداد، بالجنود والعساكر المنصورة، فمر في طريقه على قبيلة زمور وبني حكم ومن انضاف إليهم، فاكتسح أرضهم وديارهم وخرب مساكنهم واستباح زروعهم المخزونة والمحروثة، وقد ناهزت الحصاد فلم يبق لهم من الأقوات أخضر ولا يابسا، وأما أرواحهم ففروا بها الى قنن الجبال الرواسي، وهكذا كانت عادتهم معه في كل مرة كلما حرك لهم لا يقفون أمامه إلا في الوقعة الهائلة التي أوقعها بهم في صدر ولايته، فإنهم ظنوا أنهم يقدرون على مقابلته فاستعدوا غاية الاستعداد بكثرة الخيل والرماة، واستهانوا بكل من جاورهم من أهل الفساد من الأعراب والبربر، فوقفوا وقاتلوا قتالا شديدا، فكانت جولة بعد جولة، ثم انهزموا أقبح انهزام، وقتل منهم ما لا يحصى، وقطعت رءوسهم ووجهت لأسوار البلاد، وعلقت بها، وقبض منهم عدد كثير من الأسارى، وعمرت بهم السجون حتى هلكوا فيها، ثم بعد ذلك ما قابلوه قط ولا وقفوا أمامه، مع أنهم أولو قوة وأولو بأس شديد، فلما دوخهم في هذه المرة وسلبهم كل ما ينتفعون به ذهب لحضرة مكناس ولم يطل المقام بها فذهب لفاس فأقام بها ما يقرب من سنة ثم رجع لمكناس فاستعد أيضا لغزو زمور فخرج إليهم وزحف إليهم بالجنود المجندة، وفعل بهم مثل ما كان يفعل كل مرة، وكذلك هم فعلوا مثل فعلهم المعهود من الفرار بالأنفس وترك الأموال والديار، فرجع لمكناس، قال بعض الكتاب من خاصة الدائرة المولاوية الذين حضروا معه إنه في بلاد زمور في هذه الحركة، ابتدأته علته التي لازمته حتى انتقل لحضرة الرضى والكرامة في الدار الآخرة، فلما رجع لمكناس أطال المقام بها خلاف عادته، فإنه كان لا يدخلها إلا عابر سبيل مستوفزا للرحيل حتى قيل إنه إنما كان يتجنبها لأنه مخبر أنه بها يقبر، والله أعلم، وكان في إقامته بمكناس هذه المرة مواعد كل مسرة، ومواسم لأنواع الخيرات والأفراح ومحافل للانبساط والانشراح›(44) فأقبلت لحضرته جميع المسرات، وتباعدت عنه جميع المناحس والمضرات، كأن الدنيا أقبلت في زينتها توادعه، وتنفي عنه كل ما ينازعه ويصادعه، فأقام الأعياد الثلاثة، كما تقام الأعراس، فحضرها

(44) ما بين العلامتين هو ما في الأصل وقد اختلفت النسخ الأخرى عن الأصل بالزيادة والنقص وتبديل الشكل ولكن المنصوص فيها كلها من الخبر قريب من قريب في المعنى.

جميع أعيان الأمم ووجوه الناس. ولا سيما العيد الأنور النبوي، كما هو عادة هذا الملك الشامخ العلوي، إلا أن مولانا السلطان المؤيد كان يزيد فيه على غيره من أسلافه الكرام بغاية الاحتفال، وكانت له فيه عادة لم يدركها أحد من موالينا أسلافه الملوك العظام الأماجد الكرام، وهي أنه في صبيحة المولد الشريف، إذا فرغ المداح من إنشاد الأمداح النبوية، والقصائد المصطفوية، يختم ذلك المجلس بإنشاء قصيدة مبتكرة مصدرة بمدح سيد الوجود، وهو في الحقيقة عين المقصود، ثم يستشفع به وبجاهه عند الله تعالى لحضرة أمير المؤمنين، والدعاء له بكل خير والسلامة من كل ضير، مع ذكر محاسن دولته، وتواتر نعم الله على كريم حضرته، ويكون سماع ذلك في ذلك الزمان وذلك المحل من الأبهة المعظمة، والجلالة المفخمة، وكان مولانا المؤيد أخذ ذلك من أخبار أعاظم السلاطين في غير هذه الدولة كدولة السعديين خصوصا المنصور الذهبي، فإن له في ذلك شأنا معروفا، ومقاما بفخامة القدر موصوفا، وكدولة بني مرين، خصوصا أبا الحسن وولده أبا عنان، فقد جعل ذلك شريعة من جملة الافتراض والاستنان، وكدولة بني زيان ملوك تلمسان، خصوصا واسطة عقدهم أبا حم، فله في ذلك ما خرق الاعتياد، ولا يمكن عليه الازدياد، وأما بنو مروان بالأندلس فلا يسأل في ذلك عن مبالغتهم وإعجابهم، وإطنابهم وإسهابهم، فاقتفى مولانا المؤيد أثرهم في زيادة التشريف لما شرفه الله، وتعظيم حرمة رسول الله صلى عليه وسلم، ولا تكون تلك القصيدة إلا من إنشاء وزيره رئيس الكتاب، وإمام خدمة أشرف الأعتاب، أبي عبد الله سيدي محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس هكذا أخبرني رحمه الله بتكرر هذه الثلاثة في نسبته، وربما حصل له عذر يمنعه من إنشاء تلك القصيدة المعتادة في تلك الليلة، فاستنابنا في إنشائها على لسانه كما ننبه على ذلك بحول الله تعالى، فمما أنشده في بعض الأعياد قوله :

أعد الحديث عن الحما وظبائه ... فالسمع مشتاق الى أنبائه
وصل الحديث عن اللوى وعقيقه ... والنازلين الجزع من جرعائه
فهناك معترك النواظر والنهى ... ومجال أفراس الهوى وظبائه
كم من صريع هوى بأفنية الحمى ... فتكت عيون العين في أحشائه
ومتيم لعب الغرام بقلبه ... لما سقاه الوجد من صهبائه
وأسير وجد في إسار جمالهم ... قادته مرسلة العيون لدائه

إن القتيل من الغرام ودائه ... مثل الشهيد مضرجا بدمائه
ياصاح إن وافيت منزلة اللوى ... ومررت ما بين العذيب ومائه
ولقيت أسراب الظباء رواتعا ... حول الحمى يمرحن في أرجائه
فاحفظ فؤادك من ظبا تلك الظبا ... فلكم كمي صيد في أحيائه
وإذا بدا سلع فعرج نحوه ... وتنشق الأرواح من تلقائه
وإذا مررت بحي قومي حيهم ... وصل السلام على الحمى وظبائه
واخلع نعالك في مقدس وادهم ... واحطط رحالك خاشعا بفنائه
نهناك طابت طيبة من طيب ... طاب الوجود بطيب طيب ثنائه
وهناك روضة خير من ركب المطا ... وأجل من لاذ الورى بعلائه
وهناك قبر المصطفى من فضله ... غمر الوجود بجوده وعطائه
وهناك من أسرى الإله بذاته ... ليلا فنال الفوز في إسرائه
وحباه قربا لا يضاهى خصه ... بمصون سر الحب في إيحائه
وأراه من آياته وصفاته ... ما كلت العقلاء عن إحصائه
وكساه من إجلاله وجلاله ... ما حارت الأفكار في إنهائه
أو ليس ادم قد توسل باسمه ... بعد الخطيئة فاهتدى لدوائه
وغدا يكون وما تكون بعده ... من ذي احتباء تحت ظل لوائه
أو ليس كل الرسل من نوابه ... وجميعهم هاد بنور ضيائه
قد بشروا أتباعهم بظهوره ... وتوطإوا طرا على عليائه
أخذ العهود عليهم أن يومنوا ... إن أدركوه وينصروا لدعائه
يا أمة المختار طولوا رفعة ... واستبشروا طرا بنيل ولائه
ولتكثروا أمداحه في ليلة ... رد النهار لها سنا لألائه
قد فاقت القدر الرفيعة منصبا ... وسما الزمان بها على آنائه
كم آية شفت القلوب بنعتها ... رفعت بها الأخبار عن شفائه
فدنت إلى الأرض النجوم محبة ... وبدت قصور الشام من بطحائه
وبدا الرجوم من النجوم لطرد من ... رام استراق السمع من أعدائه
خمدت به نيران فارس واعترى ... إيوان كسرى الكسر من اعلائه
غارت بحيرة ساوة وأساءهم ... ما قد رأى في النوم من أسوائه
وله من الآيات ما عجز الورى ... في وصف بعض البعض من أجزائه
والوحي أعظم آية قد نالها ... وأدل معجزة على استعلائه
أسراره لا تنقضي وعلومه ... لا تنتهي أبدا على استقرائه
كم معجزات قد تواتر ذكرها ... دلت على تصديقه وسنائه

كالظبي في تكليمه والضب في تسليمه والجذع عند بكائه
والماء في تفجيره والزاد في تكثيره والنخل عند دعائه
والصم في تسليمه والجن في تعليمه والفحل في استعدائه
والشمس ردت بعدما عزبت له والبدر شق له بأفق سمائه
وكذا الحصى قد سبحت في كفه ورمى بها فأصاب أهل نوائه
نطق الدراع له وأفصح معلنا عن سمه وأبان خافي دائه
أربى على الإحصاء باهر فضله وسما عن الإدراك كنه علائه
من ذا يروم مديحه وإلهنا أسماءه قد شق من أسمائه
هل بعد مدح الوحي مدحة مادح فاقرأه تلق ثناه في أثنائه
علقت آمالي بجاه محمد وقصرتها قصدا على عليائه
ورجوت من رب المفاز بجاهه والظن ألا أخيب عند رجائه
وعلقت من آل النبي بذمة تدني القصي إلى كريم فنائه
من طهر المولى وخص المصطفى شرفا وجللهم كريم كسائه
وخدمت واسطة الأئمة منهم نجل النبي المهتدي بضيائه
مولى الخلائف عابد الرحمان من رحم الإله الخلق عند ولائه
أحيا به الدين الحنيف وزانه بسنائه وحيائه ووفائه
وأعاد أرض الغرب روضا ناضرا برخائه وسخائه ورقائه
ونفى عن الإسلام كل ضلالة وأضاء نور العلم في أرجائه
وأشاد مغنى الملك فاستعلى به وقضى حقوق الله في أعدائه
وأعاد في جسم الخلافة روحها وشبابها وكساها ثوب بهائه
من حاز مجموع المكارم مفردا وروى حديث الجود عن آبائه
الحلم من أوصافه والعلم من آلافه والفهم عنْد ذكائه
والعدل من أحكامه والفضل من إنعامه والفصل من ندمائه
والنصر من أحزابه والشكر من أصحابه والبحر من أسمائه
والحسن من قسماته والأمن من حسناته واليمن من وزرائه
والجد من أترابه والمجد من أثوابه والسعد تحت لوائه
والسيف من عزماته والعيث من سطواته والغيث من نظرائه
والزهر من نفحاته والزهر مثـ ـل صفاته والفخر تحت ردائه
والحق في أفعاله والصدق في أقواله والحذق من عرفائه
والسر في كلماته والبر في جنباته والأجر في استرضائه

فـاق الثواقـب والمناقـب والحلـى وزرى بطيـب المسك نشـر ثنائـه
قد فاخر الأعصار عصر وجـوده وتنافـس الأمـلاك في استصفائـه
غمرتني أنعمه التـي قد أعجزت شكـرا فقمت لهـا ببعـض أدائـه
وأتيـت من حـر الكـلام بمدحـة خلع الجمـال عليها. حسـن روائـه
وجلـوت عـذراء المدائـح غـادة وشـى حلاها الفكـر في إنشائـه
أهدى البيـان لهـا عقـود جواهـر نظمت على همـز الـروي وهائـه
وأتـى بكاملهــا الرفيـع لكامـل بحلى الكمال سمـا على أكفائـه
واللـه أسـأل بالشفيـع محمـد فـي أن يمتعنـا بطـول بقائـه
ويديـم نصرتـه ويثبـت عـزه وعـلاءه ويثيبنـا برضـائـه
صلى عليه اللـه ما حـي الحيـا وترنـم الحـادى بحسـن غنائـه
وعلـى الأماجـد آلـه وصحابـه والتـابعيـن الحـق مـن خلفائـه

وهكذا كانت سنة مولانا المؤيد في ختم أمداح الليلة المباركة، بمثل هذه القصيدة الفريدة، من إنشاء وزيره الأعظم المذكور، ولم يتخلف قط إلا في المدة التي عزل فيها وقام غيره مقامه ممن حرم مراضع الأدب، ونسلت إليه الجفاوة من كل حدب، ونعاه الدست السلطاني مع وجوده وندب، فلما عاد الوزير الأعظم إلى نصابه، واسترجع حقه من غصابه، عادت الدولة الشريفة إلى شبابها، وتمسكت بمتين أسبابها، وجرت سنة التعظيم والتشريف على مجراها، ونالت من المحامد كبراها وصغراها، ولم يزل قائما في مركزه الأعز الأسنى، ملازما لعادته الحسنى، الى أن توفاه الله تعالى عام أربعة وستين ومائتين وألف، فأصبح الدست العالي من تلك الحلية عاطلا، وغريم الزمان بقضاء تلك الديون مماطلا :

وكان رحمه الله تعالى سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف بعد انتقالنا من الحضرة الفاسية إلى الحضرة المراكشية لما أثقلته أعماله السلطانية وأشغاله، وازداد سبحه في بحارها وايغاله كتب إلي ما نصه :

الأخ الشقيق، الأود الحقيق، فلان بن فلان حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، فهذا شهر المولد الشريف قد أطل، وقد علمت أن من عادتي التطفيل على حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصيدة المدحية التي تختم بها الأمداح في صبيحة المولد الشريف، في

ذكر الليلة المباركة وبعض أوصافه عليه السلام ثم التخلص إلى مدح أمير المؤمنين والدعاء له بكل خير، وقد اختبرت فكري في هذا الشهر فوجدت به كلا لا عن ذلك وعجزا لتوالي الأشغال المولاوية، واستغراق النهار كله في حوائج المسلمين، فأردت من فضل أخي أن ينوب عني في ذلك بإنشاء قصيدة علي ذلك النمط، نغتنم جميعا أجرها، ونحتسب أنا وأنت ذخرها عند الله تعالى، وإن تفضل أخي بكفاية ذلك في كل سنة يكون فيها مولانا نصره الله معيدا في هذه الحضرة فإن شأنك التفضل بالخير والإعانة عليه، ولا نحتاج إلى إعادة الطلب، والله يبقيك إمام هذه العصابة، سباقا إلى غاية الإجادة والإصابة، وعلى المحبة والسلام. فمما رفعت إليه في العام المذكور هذه اللامية :

عهدي لكم جيرة البطحاء موصول ... يا ناسي العهد إن العهد مسئول
أشيم برقا سرى من نحو ربعكم ... وفضل ذيلي بوبل الدمع مبلول
فيلهب الشوق أحشاء مروعة ... مني وللشوق ترويع وتهويل
يا ليت شعري والأيام شيمتها ... تمنع وضمير الغيب مجهول
هل من وفاء بوعد من أحبتنا ... والوعد عند حسان الدل ممطول
أو هل ترى مقلتي دارا عهدت بها ... بيضا يلاحظها سمر بها ليل
سقيت حبهم قدما على ظمأ ... فحبهم في صميم الروح مجبول
يا حبذا في هواهم ما غدوت به ... كأنني طافح بالراح معلول
لا أجتلي أحدا إلا تمثل لي ... في وجهه من أحبائي تماثيل
وذاك أن قد سرى في الكون سرهم ... وليس أن الهوى زور وتخييل
فوالذي سجدت في شطر كعبته ... أهل الخشوع لهم ذكر وتهليل
لقد سرى سريان الروح في جسدي ... غرامهم فأنا من ذاك متبول
يا لائمي إن فرط الحب معذرتي ... وفي الصبابة لي عرق وتأصيل
فكيف أصغي إلى اللاحين إن عذلوا ... فعاذل المبتلى بالحب معذول
مهلا فلي كبد تهتاج لوعتها ... إذا دنا من ربيع النور تجليل
شهر تشرف بالإسلام حق له ... بين المواسم تعظيم وتبجيل
شهر تعاظم مجدا أن يماثله ... عيد ولا زمن بالفضل مشمول
شهر غدا غرة في كل مكرمة ... وأين من غرة في الفخر تحجيل
فيه تكون كون الفضل وانفتحت ... أبوابه وأتانا العز والسول
فيه تفجر كل الخير منبجسا ... على الخلائق طرا فهو مبذول

فيه البشائر قد لاحت أشعتها فيه تعين للخيرات تسهيل
وزخرفت لعباد الله جنته واستبشر الملأ الأعلى وجبريل
في ليلة المولد الأسمى وسحرته يا أمة سعدت بالمصطفى قولوا
قولوا وتيهوا على الأكوان وافتخروا فقولكم لمكان الصدق مقبول
أهلا بمولد خير المرسلين ومن له على الكون تسييد وتمويل
بمولد الصفوة العليا الرسول إلى كل الوجود وما للحق تبديل
سر العوالم والأرواح عنصرها من ذكره في قديم الذكر منقول
ألواح موسى بن عمران مبشرة ببعثه ويقرب البعث إنجيل
يا من بدا روحه للخلق مبتدأ وجسمه لمناط الوحي تكميل
يا دعوة الحق يا مجلى المحامد يا من نطقه كله وحي وتنزيل
لك اللواء لواء الحمد يشملنا من ظله عند هول الحشر تظليل
لك الشفاعة والحوض المعد لنا لك الجنان جنان الخلد تنفيل
لك المقام الذي قد عز مدركه برؤية ما لها في الصدق تأويل
إن لم يطق حملها موسى الكليم فقد عاينت ربك والتقديس مسدول
لك الوسيلة والجاه العظيم إذا ما أنت فوق نطاق العرش محمول
يا من يخلص من أضحى لمدحته على جناب كريم منه تطفيل
هذي مدائح راج أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويل
صلى عليك مفيض الجود منك على كل الخلائق والتعميم تسجيل
وآلال والصحب ما زمت على مرح إلى زيارتك العيس المراسيل
يا حاشر الخلق يا ماحي الضلال ويا من مدحه لرضا الرحمان توسيل
كم آية لك لا تحصى ومعجزة باب المحاول منها الحصر مقفول
ومن توهم أن يهدى لغايتها فذاك أثول والأوهام تسويل
إن كان من جودك الدنيا وضرتها فالقول كالصمت والإكثار تقليل
يا واضع الإصر عنا في شريعته فضلا ومن قبلنا بالإصر مغلول
قد جئتنا بحنيف كله نزه ميسر واضح الأحكام معقول
فيه الخبائث بالأحرى محرمة وللأطايب ذات الحسن تحليل
تركتنا وسبيل الحق واضحة أعلامها ومحيا الدين مصقول
بآل بيتك والذكر الحكيم لنا كل اعتصام إذا ما اغتالت الغول
هذا حفيدك سلطان الملوك أبو زيد إمام بنصر الحق مشغول
سبط الخلائف باني العز في شرف عال على مجده للناس تعويل

قوم تداركت العليا سعادته — لما غدا وإليه الأمر موكول
ما زال مجتهدا في الله منتصرا — بالله والسيف في يمناه مسلول
حتى استنارت نجوم للهدى فلها — والحمد لله تقويم وتعديل
فهو المؤهل للسمحا يجددها — من بعد ما عز للتجديد تأهيل
وهو الذي سنة المختار قد حييت — به وقد غالها نسي وتعطيل
هو المؤيد بالإسعاد همته — لبنية العز تشييد وتطويل
ففضله روضة غناء دانية — قطوفها وجنى كفيه معسول
وبأسه في ديار الكفر صاعقة — فيها لحزب ذوي الأهواء تنكيل
يا خزي من حاد عن منهاج طاعته — ويلمه إنه والله مثكول
إن سار يوما الى الهيجاء تتبعه — أجناد جرد أبابيل أبابيل
من كل أروع في إقدامه بطر — وسيفه من قراع الهام مفلول
يجرها كعديد الطيس عابسة — وماله غير وجه الله مأمول
يعنى به النصر لا ينفك يلزمه — كأنه علة والنصر معلول
وعزمه نافذ لا شئ يحجبه — فكل ما يبتغي في الحين مفعول
وتلك سنة ربي في عزائمه — وما لسنة رب الناس تحويل
وللسعادة أسباب مقدرة — في سابق العلم لا كسب وتحصيل
من أسرة زين الأقطار ملكهم — كأن ملكهم تاج وإكليل
تملكوا فأتت كالروض دولتهم — ظلالها العدل والإحسان عثكول
بَنُو عليّ أدام الله عزهم — فهم لمغربنا عز وتفضيل
وابن الإمام هشام نال بعدهم — ما فاتهم ولأخرى البيت ترفيل
أتته واسطة بالطوع حين غدا — للعقد واسطة وهم أكاليل
يا أيها الملك الأتقى المحيط به — من الجلالة إجمال وتفصيل
بقيت للمولد المبرور تشهده — وعزه بجلال منك مكفول

وفي عام ثلاثة وخمسين ومائتين وألف رفعت إليه هذه الدالية :

أرائح أنت نحو الحي أو غاد — بالله فاستنجز الأظعان أو عادي
واذكر لأهل النقا عهدي القديم به — وحي أهل النقا حييت يا حاد
واسأل مناخ المطايا عند كاظمة — هل من معاد بها يوما لميعادي
واستخبر الدمنة الخضراء من إضَم — عمّن عهدت بها أيام اسعادي
إن كان مثواهم وادي العقيق فها — دمعي من البين يحكي ذلك الوادي
كم لي على الغور إن لاحت بوارقه — أنوح نوح حمام فوق ميّاد

أهفو إليه وأشواقي تقربني | منه ويبعد مني كل إبعاد
وكم أحن إلى نجد فينجدني | جفن سفوح قريح أي إنجاد
واها لنجد ومن حلوا بأجرعه | مراتعا لظباء بين آساد
مرابع كلما هاجت نواسمها | هاجت على القلب أشجاني وأنكادي
آه لأجيدكم سالت أباطحه | من المطايا بأعناق وأجياد
ونحن نسدي أحاديثا ونلحمها | من الصبابة لا إسداء أبراد
لا والبناء الذي طاف الحجيج به | مجردين بلا ظلم وإلحاد
ذاك المجلل بالديباج تأمن في | ساحاته الطير من أشراك صياد
ذاك الذي رفعت كف الخليل له | قواعدا عندها رفد لو فاد
لا والذي وجه الله العباد إلى | شطريه ما بين ركاع وسجاد
ذاك المعظم في البطحاء يقصده | كل الأنام بأزواج وأفراد
مالي وقد سارت الركبان معتذر | والحال موسعة من فضلة الزاد
لكن للذنب تعويقا لكاسبه | عن الورود إذا ما استخدم الصادى
سار الموفق والزلفى تسوق به | والحظ يقتاد منه خير مقتاد
وأثقلتني أجرامي ومجترحي | وأقعدتني ذنوبي شر إقعاد
وليس لي حيلة أرجو المفاز بها | إلا مديح البشير الشافع الهادي
خير البرية روح الكون عنصره | من نوره كل تكوين وإيجاد
محمد حجة الرحمان علة ما | في الكون من رحمة تبدو وأمداد
لا شئ من هذه الدنيا وضرتها | إلا منوطا بأحمد وحماد
من أجله دارت الأفلاك وابتهجت | حور الجنان ابتهاجا غير معتاد
لولاه ما بعث الرسل الكرام ولا | تنزل الوحي تنزيلا لإرشاد
لولاه ما أمسك الله السماء ولا | أرسى بحكمته أرضا بأوتاد
لولاه ما أخذت أرض زخارفها | وازينت بين أغوار وأنجاد
ولا لساكنها أجرت مذانبها | ولا استقرت بأشباح وأجساد
فهو النبي الذي حقت نبوءته | وآدم بعد في طين وأثآد
وهو الذي طاف جبريل الأمين به | أعلى العلى بين أملاك وحفاد
ثم انثنى عنه جبريل وزج به | في وحدة النور أو في نور إفراد
سما إلى العرش كي يحظى برؤية ما | هناك من آية كبرى واحماد
وجاوز الحجب إكراما وسر به | أهل السماوات ألفاهم بمرصاد
في حضرة العز أدناه وأشهده | منه الجمال بلا كيف لإشهاد

وجاء بالصلوات الخمس أمته — فهن قرة أبصار لعباد
مازالت الأمم الأولى تبشرها — أرسالها بظهور منه مرتاد
وكل ما أنزل الرحمان من كتب — يثني عليه بترتيل وترداد
يا أحسن الخلق أخلاقا وأطولهم — في الجود باعا ويا نجلا لأجواد
يا أكرم العرب بيننا في مفاخرة — من غالب خير آباء وأجداد
أجر عبيدك من يهدي قصائده — إليك محكمة كنسج زراد
يا خاتم الرسل يا أعلاهم شرفا — كم آية لك لا تحصى بتعداد
غرست نخلا فأضحت وهي مثمرة — من عامها ببنان ذات ازفاد
أجريت منها زلالا باردا فغدا — منه الرواء لأجناد ووراد
وسبحت عندها الحصباء يسمعها — من كان حاضر ذاك اليوم في النادي
رميت أهل حنين بالحصى فغدوا — ما بين مستأسر أعمى وشراد
ويوم أصبحت الأصنام ناكسة — إذ لاح وجهك بدرا عند ميلاد
وبحر ساوة قد غاضت منابعها — والنار بعد وقود ذات أخماد
وحنن الجذع إذ فارقت جانبه — وقمت تخطب يوما فوق أعواد
وظبية كلمتك أن تسرحها — فاسترضعت خشفها في جانب الوادي
وظللتك الغوادي من هواجرها — فسرت ملتحفا أبراد أبراد
يا دعوة الحق ياسر الهداية يا — من أنقذ الخلق من أشراك إلحاد
خلفت فينا عتادا نستعد به — لكل هول وغي أي اعداد
هذا الكتاب الذي يهدي لقارئه — منه الشفاء لأرواح وأكباد
وآل بيتك أبقى الله مجدهم — حصنا حصينا لنا من كل إفساد
هم الأمان لأهل الأرض حبهم — ينجي من النار إن شبت لأوغاد
كل الدوائر قامت من مراكزهم — على سموت من التقوى وأبعاد
فمنهم كل غوث يستغاث به — ومنهم كل أقطاب وأفراد
ومنهم كل سلطان تنال به — مصالح الدين والدنيا لمرتاد
مثل الإمام أبي زيد إمام هدى — وأين مثل أبي زيد لقصاد
موفق قد تولى الله نصرته — ولاية ذات إعزاز واعضاد
مبارك أنقد الله العباد به — من الردى بعد اشفاء واجهاد
أغر أشرقت الدنيا بطلعته — بالعدل والأمن في نهد وأوهاد
مؤيد بمهابات فأنصله — تغزو العدا وهي في أثناء أغماد
إن سار يوما فريح النصر تصحبه — تهفو براياته في كف بناد

والسعد يقدم أجنادا يقدمها والرعب يردفها منه بأجناد
ما زال ينشر إحسانا ومرحمة في الناس من غير إجحاف وإلهاد
حتى استلانت قلوب الناس سيرته واستذعنت كل قاسي القلب معناد
نذاك مراكش الغراء حضرته محسودة الفضل في مصر وبغداد
يا مالكا ورث العلياء عن سلف عالى المجادة يرويها بإسناد
يا ابن الملوك الأولى كانت رعيتهم يضحون من عزهم في ظل أطواد
لا زلت ترفل في عز وفي دول موصولة أبدا من غير انفاد
تفيض أبحر جود في مواسمنا فيضا تهين به أبناء عباد
ودم كما شئت مسرورا تقيم لنا مجالسا ذات إنشاء وإنشاد
تهنيك ليلتنا هاذى ولا برحت تأتيك في كل إقبال وإسعاد
هي ليلة المولد الباهي وبكرته وليلة يومها عيد الأعياد
من ليلة شرف الله الوجود بها وتلك خير ليال دون افناد
يا شاديا يجتلى مدح الحبيب لنا ردد لنا مدحه يا أيها الشادي
وناده بلسان غير محتشم نداء ذي وله في القلب مزداد
يا من على الرسل والأملاك كلهم والإنس والجن طرا فضله باد
يا معجزا للبرايا في فصاحته يا خير من مازبين الظاء والضاد
قم بابنك ابن هشام في الأمور كما تقوم في الأمر آباء بأولاد
فإنه يورد الأشياء موردها في نصر دينك دأبا خير إيراد
بجاه وجهك حقق ما يؤمله من كل خير لأولاد وأحفاد
وكن له ناصرا وامدد عساكره بالفتح في حال أرباب وإسآد
ثم السلام كعرف الزهر ينضحه صوب الغمام عليك طول آياد

وفي عام ستة وخمسين ومائتين وألف عيد السلطان ببلاد دكالة عيد المولد الشريف، وكنت هيأت هذه القصيدة فلم يتيسر من يذهب بها حتى أرهق العيد، فلم توافه إلا في اليوم الذي قبل الليلة، ولما أبطأت عنه شرع في إنشاء ما يقيم به العادة، فلم يكمله حتى وردت عليه هذه، ومن عجيب الاتفاق أن التي شرع في إنشائها موافقة لهذه في رويها وبحرها، وهذه هي التي وجهناها وقرئت :

راح الفؤاد بأثر الركب إذ راحا سكران لكنه لم يشرب الراحا
مالي وكنت كتوما للهوى زمنا أرى هواك وإن أخفيت براحا
كم ذا وقوفك بالأطلال تسألها ودمع عينك لا ينفك سفاحا

لا ينفع الصب تسآل الربوع ولا ... يزيد إلا صبابة وأتراحا
قم بالغرام قيام العارفين به ... إن الغرام مجد ليس مزاحا
وانهض على ذمم الأشواق في مرح ... إلى السرى راكبا وجناء سرداحا
ولا تقل عند سير القوم معتذرا ... (سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا)(45)
يا قاطنا في غرور من أمانيه ... قد أفلح الظاعنون اليوم إفلاحا
ناداهم هاتف الاسعاد من حرم ... يعمم الزور أفراحا وأرباحا
تاتي إليه الورى شعثا مجردة ... مغبرة تبتغي عفوا وإسجاحا
من كل معترف بالذنب ملتزم ... لثما لملتزم شوقا وإلحاحا
ومن قريح ضلوع في المطاف له ... تضرع ساكب العينين نواحا
وذي هيام عن الأكوان في شغل ... مستوحش لم يزل في الأرض سياحا
فازوا لعمرك بالأمر الذي طلبوا ... وأدركوا لثأي(46) الدارين إصلاحا
بشراهم لم يبالوا بعدما نعمت ... أرواحهم ما أمض الكد أشباحا
قد انتهى بهم الجد الذي ركبوا ... فيه مجاهل تغوى السَّفْرَ تجياحا
لبنية يسعد الأشقى برؤيتها ... ويغتدى في ظلال الأمن مرتاحا
لساحة تأمن الطير المخاف بها ... يا فوز من حل يوما تلكم الساحا
لبلدة لاح نور المصطفى وبدا ... فيها السرور على الأكوان إذ لاحا
أرض بها ولد المختار سيدنا ... محمد ساطع البرهان وضاحا
شمس الهداية نور الحق رحمته الـ ... مهداة من أوضح التوحيد إيضاحا
سر الندى حجة المولى ودعوته ... أسعد به ما حيا للكفر جحجاحا
من جاء بالعدل في الأحكام ينشره ... نشرا يغادر جور الظلم منزاحا
لا يمكن العد في آيات مولده ... من كان للعد للآيات طماحا
إيوان كسرى غدا إذ ذاك منكسرا ... وملك مالكه في الحين قد طاحا
وبحر ساوة قد غارت ينابعه ... ونارهم كرماد ليس لفاحا
والشهب تنقض والأصنام ناكسة ... والجن تنفر عند الرجم جماحا
وأنزل الله في الإنجيل حليته ... كما قد أنزل في التوراة ألواحا
وكل حبر وكهان وذي خبر ... بقرب ميلاد خير الخلق قد باحا
ثم استفاضت وضاءت بعد ذاك له ... آيات صدق كما أوقدت مصباحا

(45) هو عجز بيت صدره :
(يا واصلين الى المختار من مضر)
والبيت واحد من أبيات أربعة لأبي العباس أحمد بن العريف الصنهاجي الصرفي الشهير المتوفى سنة 536 هـ.
(46) الثأي : الفساد.

كشق صدر بلا وصم ولا ألم وشق بدر غدا في الأفق ملتاحا
ورد أعين من سالت عيونهم فهم أحد من العقبان ألماحا
والجذع حن حنينا حين فارقه والماء من كفه الفياض قد ساحا
وجاءه الشجر الفينان منقلعا يجر في الأرض أغصانا وأدواحا
والغيم عند هجير الشمس ظلله ظلا بمثل رشاش الطل رشاحا
وأفصح الحجر الصفوان معجزة بأن أحمد خير الخلق إفصاحا
يا من به قد أفاض الله من كرم على العوالم ألطافا وأمناحا
لولاك في الأرض ما اخضرت منابتها ولا همى الغيث بالأنواء نضاحا
ولا تمايل روض في خمائله ولا تفتق زهر لا ولا فاحا
أنت الذي جعل الرحمان طاعته عنوان منجاة من لولاه قد جاحا
أنت الذي جعلت من يُمْنِ غرته صلاته لجنان الخُلْد مفْتَاحَا
يا عدتي يا مجيري يا معَاذيَ يا كهفي إذا جار خطب الدهَر مَلحاحا
يا سيدي يا رسول الله دعوة ذي فقر لفيض نداك يبسط الراحا
يا سيدي يا رسول الله دعوة من يرجوك توسعه فوزا وإنجاحا
يا سيدي دعوة من شاعر غزل لجاه قدرك لا ينفك مداحا
يشكو إليك بنأي منك يجرحه والنأي ما زال للعشاق جراحا
ينوح للذنب في أقصى مغاربه فارحم غريبا لخوف الذنب قد ناحا
يرجوك يا رحمة الرحمان تلمحه منك العناية بالإسعاد تلماحا
كيما يوافي ذراك الرحب وافده يشتد منشرح الأحشاء مفراحا
فليس والله بعد الشيب ملعبة إن كان قد وجد الإنسان نصاحا
يا رب بالمصطفى يسر لنا سببا حتى تحبر في مرآه أمداحا
يا رب بالمصطفى وانصر خليفته من لم يزل ذكره كالمسك نفاحا
خير الملوك إمام العدل من ضحكت آثاره في زمان صار مكلاحا
من أيد الدين بالتقوى وشيده وكان لولاه بالأهواء صحصاحا
من ألبس الله إجلالا وأصحبه مهابة لبغاة الغي مكشاحا
واختصه بسعود لا تزايله لو باشر الصخر عاد الصخر تفاحا
فهو الذي من ملوك الأرض ننسبه درا نفيسا بجيد الدهر ملتاحا
آثاره فضحت آثار كلهم والدر ما زال للحصباء فضاحا
إذا ذكرت سجاياه وسيرته أنستك معتصما منهم وسفاحا
حمدا لمن صان دين المسلمين به مجردا دونه قضبا وأرماحا

وخصنا بشول في مجالسه ... ندير من خمرة الأفراح أقداحا
وزان موسمنا هذا بطلعته ... معاشرا لشفيع الخلق مداحا
يا من لعزته الملاك خاضعة ... بالعزم يأتي الذي يرضيه(...)(47)
هذا الفرنج يرجي أن تساعده ... على مهادنة للسلم جناحا
لو لم يكن لك بالإذعان معترفا ... لكان قد مسخ الخنزير تمساحا
حياك ربي أبا زيد وأفسح في ... ايامك الغر ذات الخير إفساحا
وأكمل الله ما ترجو وتأمله ... فإنه لم يزل بالسؤل سماحا
وحاط أبناءك الأمجاد كلهم ... أخص أبلج للأنصار فتاحا(48)
محمدا أسعد الله الرعايا به ... من بز وهو ثني السن قراحا
إذا دعوت أمير المؤمنين به ... دعوت برا إلى الخيرات مجناحا
مرافق الرفق يطفي من لطافته ... نار الذي لم يزل للشر قداحا
محمد هو أهل أن تتوجه ... تاج الرضا منك إيثارا وإرجاحا
لا زال آل هشام ظل مجدكم ... ممددا في رياض العز نشاحا
ولم تزل صلوات الله عاطرة ... تهدى إلى المصطفى كالزهر فواحا
ما أنغمت هذه الأمداح سامعها ... وأعجزت في مجال الحسن وشاحا

ولما توفي الوزير الأعظم بهاء الدولة، أخونا في الله أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس عام أربعة وستين ومائتين وألف رحمه الله، انقطعت هذه السنة الحميدة، والخصلة السعيدة، وبوفاته رحمه الله تهدم ركن عال من أركان الدولة، وظهر أثره في أخلاق مولانا السلطان المؤيد، وقد قال لبعض جلسائه ذات يوم : والله من يوم مات ابن إدريس ما وجدنا مثله ولا من يقاربه(49) < وهكذا وقع بعد عزله وتأخيره وولاية الفقيه الوزير الرئيس السيد المختار بن عبد الملك الجامعي وذلك عام سبعة وأربعين ومائتين وألف، فإنه ظهر كل الظهور أثر فقده من الباب المولاوي، وعرف مقدار كفايته وبركة غرته السعيدة، وتنكرت الأحوال السلطانية عما عهدت من لين الجانب، ولطافة السياسة، ومباشرة الخلق بالخلق الجميل، فلما توفي

(47) بياض بالأصول وجاء الشطر في الطبعة الفاسية هكذا :

بالعزم يأتي الذي يأتيه وضاحا

(48) كذا جاء هذا العجز في الأصول أما الفاسية فجاء فيها كالتالي :

لا سيما من سما مجدا وافلاحا

(49) يوجد بالنسخة الأم هنا كلام شطب عليه المؤلف بسبب سهو وقع فيه فيما يتعلق بترتيب وزراء المولى عبد الرحمان ونبه عليه في تقييد ابن اليماني السالف الذكر وقد أصلح المؤلف ذلك السهو فيما وضعناه من كلامه بين القوسين الآتيين.

الوزير الرئيس السيد المختار بمراكش عام 1251 هـ قدم مولانا المؤيد الفقيه السيد محمد بن علي الحاحي النكنافي مدة قريبة والسلطان يتوسم وينتقي من وجوه الدولة المتأهل لحمل ذلك الوزر الثقيل، فلم يجد بدا من أن يتمثل بقول القائل :

وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر(50) ولا حك الجرب مثل الظفر، ولما لم يجد من يضيف إليه الأمر ويسنده خاطب نفسه بلسان الحال وهو ينشده :

أرى اليوم دستا للوزارة فارغا أما فيكم من مخبر أين صاحبه
فقالوا هو القرم ابن إدريس ماله مثيل ومن ذا في الرجال يقاربه

فأعاده مولانا إلى محله، ورمى إليه زمام الباب السعيد كله، فاستقامت الأحوال، وتبينته وأخذت الأرض زخرفها وزينته، فلما توفي في التاريخ المذكور ظهر لمولانا المؤيد مطلع الرغبة بكثرة اللمعان، بعدما أمعن النظر فيمن يصلح غاية الإمعان، فقلد الوزارة والحجابة، رئيس العصابة، وأضاف إلى النصل مقبضه ونصابه، وظهر له أن مرماه صادف موقع الإصابة، فأجرى أحكام القضية مجاريها، وأعطى القوس باريها>(51) وهو الفقيه الأجل الكاتب، الذي تفتخر به المناصب والمراتب، الشاب الحازم النجيب، ذو النظر السديد والخلق العجيب، أبو عبد الله السيد العربي بن الوزير السيد المختار الجامعي فقام بما حمل أحسن قيام، وأنزل الأمور في مراكزها، واضطلع بأعباء المنصب كما يجب، فاستقامت شئون الحضرة العالية كل استقامة، ولم يقدر أحد أن يتعدى مقامه، فلم يزل كذلك برهة من الزمان، حتى ظن أنه قد أعطي من صروف الدهر ملابس الأمان، وكان قد أعجبته نفسه غاية الإعجاب، وطغت عليه لمكان الجدة والشباب، فكان ربما رد على مولانا السلطان المؤيد بعض القضايا وأنكرها، وشنع عليه في الباطن وربما أظهرها، ومولانا لما جبل عليه من المروءة والحياء، يتحمل له ذلك حتى أدركه من ذلك غاية السآمة والإعياء، فلما كان عام ثلاثة وسبعين ومائتين وألف بنفس دخول مولانا المؤيد حضرة مراكش عزله بلا

(50) هذه القرينة عجز بيت لأبي فراس الحمداني صدره :

ولسد غيري ما سددت اكتفوا به

(51) هذا الاصلاح وارد في المخطوطة الملكية أما مخطوطة كلية الآداب والمخطوطة الشنرفية فبقي فيهما السهو على ما هو عليه ومثلهما في ذلك طبعة فاس.

سبب ظاهر، فلم يفهم أحد ما أوجب ذلك، والموجب ما أشرنا إليه، ومع ذلك فإن سيدنا ما نقص له من حاله شيئا ما عدا التأخير عن الحجابة، فلم يزل ملازما حضرته وبابه، وخطته التي هي الكتابة، وقيل إنه أعطى ما تيسر عليه من المال من غير تكليف ولا إلزام، وولى السلطان حجابته الفقيه، العلامة الوجيه، الكاتب النزيه السيد محمد الصفار التطاوني، فلم يزل كذلك حتى توفى الله السلطان آخر المحرم فاتح عام 1276.

فصل في ذكر ما خص الله به السلطان المؤيد من المآثر والمفاخر والمحاسن التي ما نالها أول ولا آخر

قد تقدم لنا في صدر هذه الراية المباركة أن السلطان العادل ما مات حتى أشرفت الدولة العلوية على الانتشار، والاضمحلال والاندثار، وذلك أن البرابر الذين هم روح جسد العصبية، بالبلاد المغربية قد اتفقوا في وقعة زيان وبعدها باتصال على أن لا يتركوا للمخزن صولة ولا استبدادا، وكان الحاج محمد بن الغازي هو رئيسهم في ذلك، لأنه لما وقع منه ما وقع من الغدر والفرار في تلك الوقعة كما شرحنا، خاف على نفسه أن يواخذ بذلك ممن يقوم من الملوك، فاستعان على مكره وتدبيره بالشيطان بوبكر أمهاوش، فريض له رءوس قبائل البربر كلهم، حتى جمع له اتفاقهم على أنهم لا يتركون المخزن تقوم له قائمة، فتحالفوا على ذلك، وربما دخل معهم من جاورهم من قبائل العرب الذين لهم بال وقوة كبعض بني حسن، مثل الصفافعة والتوازيط، ومثل زعير وجل أهل تادلة، فلما أراد الله سبحانه نقض مبرم كيدهم، وتدمير تدبيرهم بعث الله تعالى من حضرة فضله وكرمه هذا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، وأمده من السعادة بالجنود التي لا تحصى ولا تعد، ولا تغالب ولا ترد، فكان في جميع أموره كلما توجه لأمر عسير تيسر، وانجبر منه ما تكسر، وكلما حاول شيئا مغلقا انفتحت أبوابه، وعوض من خطئه صوابه، وكلما تعلقت همته ببعيد ولو بمناط الثريا تقرب ذلك البعيد إليه، وألقى بنفسه لديه عليه، حتى يكون بين يديه، هذه عادة الله التي عوده، وتأييده الذي أيده، وهذا كله بالمشاهدة والعيان، ومن

لمتفق عليه الذي لا يختلف فيه اثنان، من أول ملكه إلى آخره، فما خالفه أحد في أمر إلا كبه الله على مناخره، وأدل دليل على ما ذكرناه أن البرابر الذين تقدم حديث مكرهم والتمالؤ على معاندتهم للمملكة وغدرهم، لما أراد الله تعالى فصم ما عقدوه، وهدم ما شيدوه، جعل لذلك سببا قويا، ولطفا خفيا، وقد قلنا إن منشأ ذلك الفساد هو ابن الغازي الزموري، وقد قدمنا أنه تلميذ مولاي العربي الدرقاوي، وأنه لا يخالفه في أموره كلها، وكان مولاي العربي كما قدمنا محبوسا عند الوداية في أيام فتنة أولاد مولاي اليزيد، ولما فتحت فاس وسقطت رايتهم، جاء صبيان من أولاد مولاي العربي إلى مولانا السلطان العادل يرغبون في تسريح أبيهم، فحلف بالله أنه ما أمر بقبضه ولكن الله قبضه، وهو لا يسرحه حتى يسرحه الله الذي قبضه بغير أمره، فأحسن إلى الصبيان وكساهم، فلما مات مولانا العادل وتولى خليفته المؤيد دعت الضرورة ابن الغازي الى تسريح شيخه لأن أولاده قد نزلوا عليه وألحوا عليه، فلم يجد بدا من إظهار الطاعة، والدخول مع الجماعة، فورد على السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان بإخوانه وبيعتهم وهديتهم، فلما رآه البرابر الذين تحالفوا معه خالف ما تعاقدوا عليه ظهر لهم أنه غدار مكار كذاب، وهو كذلك، فنبذوا ذلك العقد وسارعوا إلى طاعة السلطان بأنفسهم وأموالهم، فسبحان من إذا أراد شيئا هيأ أسبابه، وفتح بابه، وأما ابن الغازي فإن مولانا السلطان المؤيد من لطف سياسته، قابله بغاية الإحسان، وأفاض عليه سجال الامتنان، وجعله عمدة آرائه، ومستند أموره من أمامه وورائه، فكان لا يقطع أمرا دونه من قنطار إلى موززنة، بعدما سرح له شيخه ورفع قدره، وشرح بذلك صدره، فأوصاه الشيخ على طاعة السلطان، ونهاه عن شق العصا واتباع الشيطان، ومن مبالغة السلطان المؤيد في الإحسان إلى ابن الغازي أنه زوجه زوجة عمه السلطان العادل ابنة بوستة،(52) وكانت من حظايا مولانا العادل، وذلك من حسن السياسة العجيبة، فإن ابن الغازي لما رأى السلطان سمح له في تزوج حظية عمه ظن أنه نسي ما فعله من غدره وتسببه في إهلاك تلك الجنود المجندة من عساكر المسلمين وأمير المؤمنين، وهدم قواعد المملكة

(52) جاء بهامش الأصل بخط ابن المؤلف سيدي عبد الله ما نصه : "تزوج ابن الغازي بكلثوم بنت بوستة أم مولانا عبد العزيز بن سليمان".

التي لولا أن الله سبحانه جبرها بولاية هذا السلطان المبارك الغرة لما كان لها قيام إلى آخر الدهر، فلما اطمأن هذا الظالم الغادر، وأمن من مكر الله، لما أرخى له مولانا المؤيد عنانه، وأفاض عليه مبراته وإحسانه، وذهب معه لمراكش في ظلال الكرامة التامة، ورجع معه إلى فاس، ثم عاد معه أيضا الى مراكش وهو لا يزداد إلا تقريبا وإيثارا ورفعة شأن وضخامة جاه، فلما استقر في حضرة مراكش تعرض له عبيد البخاري ليلا وهو نازل من الحضرة العالية، فضربوه بالرصاص فأخطأوه وأفلت، وأصبح يسب ويبرق ويرعد، ولم يطلع لدار المخزن أياما غاضبا على الدولة كلها، وأخبر السلطان أنه يدبر الهروب سرا، فأمر السلطان بالقبض عليه وتوجيهه للجزيرة التي هي سجن أهل الجرائم العظام، فبقي بها زمانا ثم أصبح ذات ليلة ميتا ولم يدر سبب موته.

فبعضنا قائل ما اغتاله أحد   وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر(53)

وعلى كل حال قد انتقم الله منه، وأراح المسلمين من شره ومكره، وواخذه بسوء عمله، ولعذاب الآخرة أشق، وهذا كله إنما ذكرناه دليلا على سعادة مولانا السلطان المؤيد، ومن سعادته أيضا أنه لما ولي وجد بيوت الأموال فارغة قد أكلت الفتن المتوالية ما كان فيها، فإنه من حين وقعة زيان انقطعت الجباية، ومنع القبائل ما بأيديهم، فرجعت المملكة إلى بيوت الأموال في ضرورياتها ورواتبها ولوازمها المتكاثرة، ولا سيما عبيد البخاري فإنهم وجدوا بيت المال على طرف الثمام،(54) بين أيديهم، فجعلوه نصب أعينهم، وغاية معولهم، حتى نسفوه نسفا، وأظهروا في ذلك على مولاي الحسن الخليفة عليهم جرأة وعسفا، فما مضى من ولاية مولانا المؤيد إلا زمن قريب حتى أذعنت القبائل للحق، وأدوا ما فات من واجب الزكوات، وعادوا الى المعهود من الجبايات، وترادفت الخيرات على المملكة من كل جانب. وما ذلك إلا بسعادة مولانا السلطان المؤيد، ومن ذلك أيضا أن الجيش البخاري لم يبق من خيلهم عند موت السلطان العادل إلا ما لا عبرة به كما قدمنا في أول هذه الراية، فأحياه مولانا المؤيد حتى عادت له

(53) البيت من رائية ابن عبدون في رثاء بني الأفطس التي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

(54) يقال : هذا منك على طرف الثمام   أي قريب سهل التناول.

الصولة، وقامت به الدولة، إلا أنه لم يأمنهم على اختزان الأموال في جوارهم وبين ديارهم، بل أخذ حذره منهم في جميع أمره، والسعيد من اتعظ بغيره، ومن مآثر هذا السلطان المؤيد التي ادخرها للمعاد، وآثاره التي شيدها في البلاد، وذلك ما افتتح به ولايته وهو بناء ما تهدم من مرسى ثغر طنجة، وصير عليه مالا عظيما حتى أعاده أحسن وأحصن مما كان، ومن ذلك أيضا شراء دار شقشاق المجاورة لحرم مولانا إدريس بفاس وزيادتها في مسجده، فكمل بذلك رونق ذلك الحرم الشريف، وتم بهاؤه وحسنه، ومن ذلك بناء ما تهدم من سقالة الثغر السويري فإنه وجه على العملة البنائين من بر النصارى، وكان يلزمه من ذلك في كل يوم من الأموال ما يتعجب منه حتى أزال فسادها من الأساس الواغل في البحر، فجاءت في غاية الإتقان والحصانة، ومن ذلك المساجد التي جددها بحضرة مراكش كجامع الكتبيين مرتين، مرة على يد ابن العادل،(55) ومرة على يد الشريف مولاي إبراهيم البوكيلي(56) المحتسبين، فإن ذلك الجامع كان قد تداعى للخراب لولا إصلاحه له، ومن ذلك الزيادة في جامع سيدي أبي إسحاق على يد مولاي إبراهيم المذكور، ومن ذلك هدم جامع الوسطى وإعادته على شكل بديع وهيأة عجيبة على يد القائد السيد أحمد بوستة، ومن ذلك بناء جامع أبي حسون وإقامة الجمعة به كما كانت أولا، ومن ذلك بناء جامع القنارية والزيادة فيه على يد القائد المذكور، ومن ذلك وهو أعظم من ذلك كله إصلاح جامع المنصور، فإنه كان ما بقي منه إلا الاسم مع ضخامة بنائه الأصلي الذي كانت تضرب به الأمثال، وكان قد أشرف على اضمحلال آثاره، فأمر مولانا المؤيد رحمه الله عامله المذكور السيد أحمد بوستة بالوقوف على إصلاحه، فاستفرغ ذلك العامل جهده في ذلك ليلا ونهارا، وأنفد الجهد والطاقة فيه حتى عاد إلى شبابه الأول، ومن ذلك إصلاح قبة الشيخ أبي العباس السبتي، ومن ذلك صيانة سور أكدال بالسور الهائل الذي لا تؤثر فيه الأيام بتطاولها على يد مولاي إبراهيم المذكور أولا، ثم على يد القائد بوستة المذكور ثانيا، وأما إنشاء غرس أكدال فقد تقدم لنا خبره في أول هذه الراية السعيدة، ومن ذلك أيضا

(55) ابن العادل هو السيد عبو محتسب مراكش.

(56) مولاي ابراهيم البوكلي محتسب مراكش.

بحضرة فاس العليا عمارة عرصة للامينة (57) التي كانت خرابا تألفها الوحوش مع أنها في باب الدار السلطانية، وفي سرة حضرة الملك، وقد كانت في الدولة المرينية التي أنشأت تلك البلدة من أصلها على هيأة بهية، جامعة للمحاسن الغير المتناهية، فيها ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها، وجلالة سلطنتهم وفخامتها، فيها مقاعدهم ومنازههم العالية، ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى المجاورة والموالية، يشقها نهر فاس عرضا، ولكن لا يسقي لها أرضا، يدخل من الجهة الغربية، ويخرج من الناحية المشرقية، ومرادهم بالدخول التمتع بالتنزه على ضفتيه وإقامة مواسم الأنس حول صفتيه، وأما سقي العرصة فقد رفعوا له الماء بالدواليب السامية النحاسية، وأجروه في القواديس والقنوات الرصاصية، وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا، وجنة حائزة من الابتهاج المرتبة العليا، ثم أخنت عليها الأيام بصروفها، ومحت من تلك الرسوم جميع حروفها، فرآها الملوك قبيل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها، ولا أنقذوها من أحوالها، مع أنها في أقرب جوارهم، وفي عقر ديارهم، فعطف الله عليها هذا السلطان المبارك، فأعاد بعد الممات محياها، وأبرز من ظلمات العدم جميل محياها، فأقام دولابها الذي هو كالفلك الدوار، حتى تفتقت في جنباتها الأزهار والأنوار، ولبست حلل الزينة تلك الأبراج والأسوار، ورقصت فيها الأدواح بدون اختيار، لما تغنت على فروعها سواجع الأطيار، والتحفت خمائلها الملابس السندسية، المطرزة بالأزهار الزخرفيه، وتبخترت من جداولها بخلاخل النضار، فكان عندها موقف استحسان النظار، أما غوطة الشام فقد نعاها هزارها الغرد وأما المسرة فليست إلا على ضفة نهرها المطرد، وأما أبو الجلود فقد طوى جلوده، لما رفع هذا الدولاب العالي بنوده، وذلك بسعادة مولانا المؤيد، وهذا بعض مآثره التي شيد.

وأما أوصافه الجبلية التي طبع عليها، ومال في كلية أموره إليها، فلا تحصى ولا تعد، ولا ترسم ولاتحد، من ذلك الكرم والشجاعة والحياء، والحلم والصبر والوفاء، وطهارة الباطن، التي عنوانها نزاهة الظاهر، وعدله في القضايا التي وصلت إليه على حقيقتها، وقيامه بنوافل الخيرات من

(57) جاء بهامش الأصل بخط سيدي عبد الله ولد المؤلف ما نصه : "هذه آمنة بنت السلطان المريني كانت فقيهة عالمة أديبة لها سطرة وجاه وهي مذكورة في جذوة الاقتباس لابن القاضي".

الصيام والقيام والمحافظة على أداء الصلوات، وحسن الظن بالله، والتوكل على الله في جميع الأمور، هذه الأخلاق كلها كانت فيه على الكمال بالمشاهدة التي لا تحتاج إلى برهان، ولو ذهبنا إلى ذكر ما وقع له منها لطال بنا الحال، وسلفه فيها وإمامه وشيخه هو عمه السلطان العادل مولانا سليمان رحمهما الله تعالى، فإن مولانا المؤيد كان من عادته المقررة ألا يخرج عن سنة عمه وطريقته غالبا، فكان يبحث ويسأل في الأمور العارضة له كيف كان يفعل في مثل هذا، فإذا أخبر به جعل حكمه في ذلك الأمر فصل قضيته، وما علمنا أنه خالفه في شيء إلا في النزر القليل، ولا يخالفه إلا إذا ظهرت له مصلحة تحقق وجودها في زمانه دون زمان السلطان العادل، وذلك صحيح في قواعد السياسية المدنية، فإن التمدن الذي سببه العمران تختلف أحكامه باختلاف الأعراف المنتقلة بحسب الأزمان، فرب أمر كان يصلح في زمان كان العرف فيه مناسبا لذلك الأمر ولا يصلح في زمان آخر إذا تبدل عرفه وحدث عرف آخر، وهذا مشاهد بالضرورة حتى في الأحكام الشرعية فضلا عن المدنية، ومما خالف فيه مولانا المؤيد عمه العادل قضية تجديد العمال إذا كثرت الشكايات بهم من رعيتهم، فإن مولانا السلطان العادل رضي الله عنه ما كان يتوقف في ذلك والعمال عنده محمولون على الظلم والطغيان، ولا يحتاج في إثبات ظلمهم إلى بينة، لا سيما إن طالت ولايته، وربما يستشهد بقول المالقي في قصيدته السياسية :

لا تنكر الظلم ممن دام في عمل   فإن طول مداه فيه أطغاه

وهو والله العظيم صادق في ذلك، ناصح للملة وأهلها، إلا أنه نشأ عن ذلك النهج الذي اعتمده فساد آخر، وذلك أنه لما اشتهر عند العامة أن السلطان لا يحتاج في الشكاية بالعامل إلى بينة صار كل من أراد عزل عامله اجتمعت شرذمة منهم وشكوه إلى السلطان فيعزله، ثم إذا لم يوافقهم العامل المجدد على مرادهم فعلوا مثل ذلك، وهكذا فلا يستقيم للحكام حكم على الرعية، وبذلك يحصل الخلل وانحلال الأمور المدنية، فكان الضرر الناشئ عن تبديل العمال بأدنى سبب أقبح وأشد من الضرر الناشئ عن الصبر على ظلم العامل، وهذا هو الذي حمل مولانا المؤيد على مخالفة

عمه، وكان يقول : الرعية أظلم من العامل، وظالم واحد أخف من ظلم العدد الكثير، وسبب هذا هو ما أشرنا إليه من اختلاف الأعراف باختلاف الأزمان، وإن كان الذي ذهب إليه مولانا العادل هو الحق الموافق للسياسة الشرعية، فقد ذكر المقري في نفح الطيب أن الإمام الأجل الكامل المكمل أبا عبد الله سيدي محمد بن عباد(58) شارح الحكم كتب إلى عامل فاس في زمانه على قضية يرشده فيها الى فعل ما هو الأصلح، فخالفه العامل فيها ولم يعبأ بقوله، وكان ابن عباد رضي الله عنه هو الإمام في جامع القرويين فصلى السلطان ذات يوم الجمعة بالقرويين بقرب مخالفة العامل للشيخ، فكان من جملة ما قال الشيخ في أثناء خطبته أن قال : من الأمور المستحسنة ألا يبقى العامل أكثر من سنة، فسمعه السلطان فعلم أنه هو المخاطب بذلك، فعزل العامل في عشية ذلك اليوم، انتهى بمعناه. وهكذا في كل ما خالف فيه مولانا المؤيد عمه إنما هو لمصلحة أوجب الزمان اعتبارها، وكذلك مولانا السلطان العادل خالف والده في أمور عديدة مما اقتضته المصلحة الزمانية كما ذكرناه، من ذلك أن مولانا السلطان سيدي محمد كان ظهر له أن اشتغال طلبة الفقه بقراءة المختصرات في كتب الفقه والإعراض عن الأمهات المبسوطة الواضحة الدلالة على الأحكام الشرعية، تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية، ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، يبالغ في التشنيع علي من اشتغل به حتى كاد الناس يتركون كتابته وقراءته، وكان يحضهم على كتاب الرسالة وأمثالها، ووضع في ذلك كتابا(59) معلوما مبسوطا، وأعانه علي ذلك المذهب بعض علماء دولته، كالعلامة الغربي(60) الرباطي، ورفيقه العلامة ابن الأمير السلاوي(61) وكذلك كان ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة علىّ القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية رضي الله عنهم، وكان يحض على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ

---

(58) محمد بن عباد شارح الحكم لابن عطاء الله الاسكندري، وابن عباد النفزي الرندة نشأ ببلده رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن ابن سبع سنين وله تآليف عديدة ت 792 هـ 1389 (معجم المطبوعات) 1 ص 157 " نيل الابتهاج بهامش الديباج " ص 279.

(59) كتاب سيدي محمد بن عبد الله في التعليم.

(60) الغربي الرباطي سبقت ترجمته بهامش راية سيدي محمد بن عبد الله في سفارة مع ابن الأمير السلاوي.

(61) ابن الأمير السلاوي سبقت ترجمته مع المذكور أعلاه.

من ظواهر الأيات والأحاديث الصحيحة بلا تأويل على ما ذهب إليه جماعة من الأئمة المجتهدين كالإمام أحمد وداوود الظاهري واتباعهما ، وكان يقول عن نفسه : إنه مالكي مذهباً ، حنبلي اعتقاداً ، ومجالسه ومحاضراته كلها تدور على هذا المركز، وله في ذلك أخبار عجيبة، ووقائع يمتحن بها بعض الناس، وذلك أمر محمود سديد لا حرج فيه، وهو طريق مضمون السلامة، قريب علي المتناول من عوام المسلمين، وأما العلماء أرباب الأنظار التي أوسع الله لها المجال في إدراك المسائل بحججها المعقولة، فإن هؤلاء لا يكتفون بتلك الظواهر التي تنفر العقول من قبولها بدون تأويل، لا سيما إذا ألقيت إليهم بما أضاف إليها غلاة أهل الظاهر كابن حزم وأمثاله، في مسألة الاستواء، وقدم الأصوات بالقرآن والمداد المكتوب به المصحف والأوراق المكتوب فيها ونحو ذلك مما هو معلوم من أقاويلهم، فلما تولى مولانا السلطان العادل لم يكن عنده أهم من إبطال ما ذهب إليه والده الناصر مما ذكرناه، لا من قراءة المختصر ولا من مسألة الاعتقاد ، فلم يكن عنده أعز ممن يحفظ مختصر خليل، بل من لم يحفظه من الفقهاء عنده ناقص لا يعول على فقهه، فتنافس الطلبة في حفظه، فكان يعطي على ذلك العطاء الكثير، وقد أخبر بصبي مراهق يحفظه فأمر بإحضاره، فاختبره فوجده كما ذكر عنه فأعطاه ألف مثقال، فلم يقدر على حمله لصغره فأعطاه غلاما يحمله له، وكساه وكسا والده، فلما علم أن جل الطلبة يحفظونه رتب لهم حزبا في جامع القرويين يقرءون منه كل يوم جزءا كما يقرأ القرآن، وحبس على ذلك أوقافا معتبرة، ومن أجل اعتنائه بذلك كان جل أولاده يحفظونه، بل بعض بناته كذلك، وهو من أعظم مآثره التي لم يسبق فيها ولم يشاركه فيها أحد ممن تقدمه رضي الله عنه.

وأما مسألة اعتقاد الأشعرية فإنه كان يحض الناس على قراءة عقائد الإمام السنوسي وأمثالها ، ولا أعز عنده ممن يحسن التكلم في مذاهب المتكلمين، وليس عنده عالم إلا من له حظ من فن الكلام وغيره من المعقولات، لا سيما البيان، فله فيه ذوق عجيب، سألني يوما أظنه على جهة الاختبار عن قوله تعالى : {ولكم في القصاص حياة} مع ما كان

العرب يقولون إنه لا أوجز منه في كلامهم، وهو قولهم : القتل أنفى للقتل، فذكرت له ما قاله السعد في المطول على التلخيص وكنت قريب العهد بذلك، فأعجبه ذلك مني غاية علي البديهة، وذلك من عناية الله تعالى بي، وبذلك كان يرى لي مزية، وأوجب لي مكانة وعناية منه على صغر سني إذ ذاك، وكان يقدمني على من هو أكبر مني رحمه الله ورضي عنه، وكان جلساؤه من العلماء كلهم أئمة في هذه الفنون، كالعلامة السيد عبد القادر بن شقرون(62) والسيد محمد الهواري(63)، والشيخ السيد حمدون بن الحاج، والسيد الطيب بن كيران(64)، والعلامة الفقيه السيد محمد بن عمرو الزروالي(65)، والسيد محمد بن منصور(66)، فهؤلاء كلهم أشياخنا، ما عدا ابن شقرون وابن كيران، والهواري ما أدركناهم، وكل واحد منهم حجة في البيان والأصول والمنطق والكلام والتفسير والحديث، وكلهم عنده في غاية القبول والمكانة العالية.

ومن جملة ما خالف فيه مولانا السلطان العادل والده سيدي محمد مسألة المكس، فإنه كان ينكرها ويعجبه قول ابن البراء(67)، وأما السلطان الناصر سيدي محمد فقد تقدم لنا أنه استفتى العلماء فاعتمد فتواهم، فكان يأخذ على الأبواب والأسواق وجميع السلع والغلل، فكان قدر ما كان يجتمع في ذلك كل سنة نصف مليون وهو خمسمائة ألف مثقال، معلومة مشهورة ثابتة مقررة في الدفاتر، مبيعة في ذمم قواد البلدان وعمال القبائل، كل مدينة وما عليها، وكل قبيلة وما عليها.

ومن ذلك المكس كان صائر العساكر في الكسوة والسلاح والسروج

---

(62) عبد القادر بن شقرون الفاسي، علم راسخ، ومجد شامخ، وتحقيق وتدقيق ومشاركة في كل طريق، فضّاض كل مشكل ونور كل معقل قاضي سجلماسة وفاس ت 1219هـ 1804م "السلوة" ج1 ص95 "الفكر السامي" ج4 ص128.

(63) محمد الهواري الشيخ العلامة والحبر الفهامة، واسطة العقد في العلوم الأدبية ت 1220هـ 1805م ودفن بضريح سيد أنوار معه في بيته، "فهرست الكوهن" مخطوط خاص ص 9 "السلوة" ج1 ص307.

(64) الطيب بن كيران، عالم محقق نقاد، حامل لواء العلوم المعقولية في المغرب، صاحب المؤلفات الكثيرة، ومنها شرح على الحكم العطائية ت1227هـ 1812م "فهرست الكوهن" مخطوط 11 "الفكر السامي" ج4 ص128 "السلوة" ج3 ص2 "الشرب المحتضر" ص7.

(65) محمد بن عمرو الزروالي الأصل الفاسي الدار والمنشأ، كان رحمه الله بحرا لايجارى في مجال العلوم، ت30 وقيل 1229هـ 14-1813م "السلوة" ج3 ص5.

(66) محمد بن منصور الفريسي المراكشي، ولي "الاعلام" العيسي، الأديب ت بمكناس 1203هـ 1788م "الاتحاف" ج4 ص188 "الإعلام" ج6 ص109 وقد ذكره "الضعيف" في تاريخه، ص195.

(67) ابن البراء لم نعثر على ترجمته.

والعدة والإقامة، والخياطة والتنافيذ لوفود القبائل والقاصدين والمئونة للعساكر ولديار السلطان وتعلقاته، فكان ذلك المكس كافيا لمصارف الدولة كلها، لا يدخل بيت المال إلا مال المراسي وأعشار القبائل وزكواتها، وكان متحصل المكس يعادل مال المراسي والأعشار، هكذا كان في دولة السلطان الناصر سيدي محمد، وكان المكس أيضا في الدول التي قبل هذه الدولة الشريفة، فقد ذكر الشيخ سيدي أحمد باب أن الشيخ العلامة البركة سيدي عبد الله العبدوسي(68)، كان يعطي في الأبواب ما يعطيه الناس، فيقال له: *لا تحتاج لذلك*، فيقول *لا أريد مخالفة الناس*، وكان من العلماء العاملين والأولياء الصالحين، وكان في دولة بني مرين عام 841، قال له سلطان زمانه أبو الحسن : أريدك أن تخرج مع العامل لقبض الزكاة، فقال له : أما تستحيي من الله تعالى، تسمي مغرما من مغارم الظلم بلقب من ألقاب الشريعة، فغضب السلطان غضبا شديدا، فضربه بالسيف في غمده، فقام الوزير وأخذ بيد السلطان، وأخرج الشيخ، فأخذ السلطان ألم شديد حتى أشرف على الموت في الحين، فعلم أنه أصيب من جهة الشيخ، فأمر به فرد إليه فطلب منه الدعاء وتاب إلى الله، فدعا له فعوفي في الحين، فكان بعد ذلك يذهب على رجليه إلى دار الشيخ ويزوره، انتهى، وقد زهد مولانا سليمان رحمه الله في هذا المكس ولم يلتفت إليه، وإنما ذكرنا هذا لئلا يتوهم أن مخالفة مولانا المؤيد لعمه العادل تنكيت عليه أو تخطئة له فيما ذهب إليه، لا سيما في مسألة العمال فإنني سمعت بعض الجهال يخطئ مولانا سليمان في كثرة عزله للعمال بمجرد الشكاية بهم، ويصوب فعل مولانا عبد الرحمان في أرخاء العنان لهم والثقة بهم، حتى يتحقق كل التحقق سوء فعلهم، وشدة ظلمهم، ولا يقبل مطلق الشكاية بهم من رعاياهم، لأن الرعية تكره العامل على كل حال، وقد بينا السر في ذلك كله، ووجه السياسة فيه، والله أعلم وأحكم، وتلك الخصال التي قلنا إنها جبلية في مولانا عبد الرحمان موجودة فيه على الكمال هي في مولانا سليمان كذلك، موجودة فيه وهي فيه أكمل.

أما الحياء فإنه رحمه الله تعالى أشد حياء من العذراء في خدرها،

---

(68) عبد الله العبدوسي كان إماما هُماما عالما عاملا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، حسب "الدرر البهية" ج2 ص348 ت 848هـ 1444م والمترجم رحمه الله خطب بالقرويين، ولشدة زهده لم يوجد عند وفاته الابرنس ودراعة.

فكان إذا أراد أن يقبض أحدا لا يمكنه من رؤية وجهه، ومن رآه وواجهه يأمن من ضرر يلحقه في تلك الحالة، وأما الجود والكرم فكان أجود من الغمام الصيب، لا سيما على جنس العلماء وحملة الشريعة، فقد تمولوا الأموال الثقيلة، وأدركوا القناطير المقنطرة بعد الشدة الشديدة، وتأثلوا الرباع والعقار والأصول التي لا يدركها إلا أهل الأسباب الكثيرة، وأما الحلم فإنه أحلم من الأحنف بن قيس وخاله قيس بن عاصم، لا يصده عن ذلك حز الغلاصم، فمن حلمه رضي الله عنه حلمه على أهل فاس الذين بلغوا الغاية في السعي في هدم أركان دولته ومحو آثاره بكل ما قدروا عليه وحاربوه بماله ونعمته، فلما أمكنه الله منهم عفا عنهم بعد الشدائد التي يهد الجبال سماعها فضلا عن مشاهدتها، وكان القاضي السيد العباس بن أحمد بن التاودي(69) لما جئت أودعه عند خروجي من فاس، والذهاب الى ملاقاة مولانا العادل كما تقدم أوصاني بأمور أبلغها للسلطان عند ملاقاته، من ذلك أنه قال لي : إذا وجدت فسحة وسعة في مخاطبته فقل له : يقول لك العباس : إننا نخاف إذا ظفرت بهؤلاء الظلمة الفساد أن تصفح عنهم وتتجاوز عن جرائمهم، فقلته له في أول مجلس، فقال لي : كيف أصفح عنهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عزيز لما ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يسرحه ولا يعين عليه وعاهده على ذلك، فعفا عنه عليه الصلاة والسلام وسرحه، فلما بلغ إلى مكة نقض ورجع إلى ما كان عليه، فلما ظفر به مرة أخرى في بدر الموعد(70) فقال له : اعف عني فإني لا أعود، فقال له صلى الله عليه وسلم : لا أتركك تمسح سبلتك بمكة وتقول خدعت محمدا مرتين، انتهى، فلما قال لي ذلك ظننت أنه إذا فتحت فاس لا يترك أحدا من أولئك الشياطين إلا قتله، ولو أحرقه لكان قد أصاب بعض حقه، فلما فتح الله عليه فاسا ما غير أحدا ولا أخذه بل عجل الخروج من فاس مخافة من حمل أهل محبته له على الانتقام الذي ليس من جبلته، وكنا نظن أنه يمثل بمولاي السعيد بن اليزيد وإخوته وأبناء إخوته كابن عبد الكريم بن اليزيد الذين سعوا في الأرض الفساد فأعرض عن ذلك كله، ومن حلمه أيضا حلمه على مولاي عبد الملك

---

(69) العباس بن أحمد بن التاودي سبقت ترجمته.

(70) كذا بالأصول والصواب أنه ظفر به في غزوة أحد.

بن إدريس الذي قام عليه في الشاوية كما تقدم خبره، بل تركه على حاله ولم يغير من نعمته شيئا، بل زاده إحسانا وتركه في ديار أبيه، ‹وكان له مجلس وخواص لا شغل لهم ولا حديث عند جلوسهم على موائدهم إلا سب السلطان والفرح بمساءته، وانتظار زوال ملكه وانقضاء أيامه›(71) وكان يبلغ ذلك إلى السلطان فلم يبال به وصبر على إذايته حتى كفاه الله شره بموته وانقضاء أيامه بدل ما كان هو يتمنى أن يبقى وراء السلطان، وهكذا عادة الله في كل من عاداه أو آذاه من الأقارب والأباعد، ‹وذلك مصداق قوله عليه الصلاة والسلام (لا تتمنوا تغيير الدول فتحرموها) انتهى›(72) وقد اقتدى به مولانا المؤيد في هذا الحلم الذي لا يقدر عليه إلا أكابر الرجال، وهذه الخصلة الشديدة على النفوس البشرية (ولا يلقاها إلا الصابرون) كما فعل مولانا العادل مع أهل فاس، فعل مولانا المؤيد مع الوداية، وكما فعل مولانا العادل مع مولاي السعيد وأهل بيته، فعل مولانا المؤيد مع ابن الطيب حذو النعل بالنعل، وكذلك فعل الله تعالى بأعداء مولانا عبد الرحمان فأبادهم وأفنى أعدادهم (فهل ترى لهم من باقية).

وأما عبادة الله تعالى من القيام والصيام ففي ذلك جعل الله قرة عينه وراثة نبوية، فكان رحمه الله لا يترك شيئا من أوراده حضرا وسفرا، في المنشط والمكره، كان يختم القرآن في كل شهر ثلاث مرات موزعة على الأيام، يعد ذلك عدا، ولا يشغله عن ذلك شاغل، ويختم دلائل الخيرات في كل جمعة، ولا يطلع عليه الفجر إلا متوضئا مستقبلا القبلة، مصليا أو تاليا، وكان يوصينا في السفر أن نوقظه إذا بقي للفجر القدر الذي يكفيه لورده، وذلك يختلف باختلاف طول الليل وقصره، فإذا جئنا نوقظه وجدناه قد سبقنا وجلس في مصلاه، وكان لا يتلو إلا إذا أحضر من يسمعه، وإن كان حفظه غاية إلا أنه كان يفعل ذلك حزما، وإن بقي عليه شئ من ورده من التلاوة تلا وهو راكب في الطريق بحضور من يسمعه، هذه عادته رضي الله عنه، وكذلك مولانا المؤيد، أخبرنا الثقة من أولاده الكرام أنه لا يجده الفجر إلا كما ذكرنا عن عمه متوضئا مستقبلا، وكان يكثر الصيام أكثر

(71) ما بين العلامتين وارد في الأصل وحده.

(72) ما بين العلامتين ساقط مما سوى الأصل.

من مولانا سليمان، الله أكبر، انظر الى هؤلاء السادات الكرام الذين لم تلههم الدنيا بزينتها عن الآخرة، ولم تشغلهم النعمة الظاهرة، والمراتب الفاخرة، والفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة والمحابيب المضاجعون(73)، والندماء المجالسون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

هذا بعض ما خص الله به مولانا المؤيد من المحاسن والمآثر والمحامد التي لا حصر لها، ولأجل ذلك أيده الله تعالى بالسعادة في جميع أموره، وأصحبه العناية في كل أحواله، وحركاته وسكناته، فتيسر له كل عسير، وأذعن لأمره كل جبار عنيد، والتزم طاعته القريب والبعيد، وأصلح الله له جميع ذريته، فلم يكن في أولاده مثل أولاد الملوك الذين تغلبهم سورة الملك ونخوة السلطان وشرة الغلبية على الناس، بل كلهم منغمس في المروءة، وملتحف بالطهارة، ومتزر بالمسكنة، وذلك من عجائب قدرة مولانا تبارك وتعالى ومن خرق عوائده التي يتعجب منها، ولم يتفق لأحد من الملوك في أولاده مثل ذلك حتى في أولاد مولانا سليمان الذي بالغ في استصلاح أحوال أولاده بكل ما تبلغه طاقته، فأقرأهم بالسبع الروايات، وحفظهم الأمهات، وألزمهم مرافقة أهل الخير والديانات، فلم يكن إلا ما أراد الله تعالى، وكان رحمه الله يأسف على ذلك، وأما ساداتنا أولاد مولانا المؤيد فإنهم ما نالوا ذلك بكثير اعتمال، وإنما هو بتسخير الله وموهبته، ورضا والدهم وسعادته وحسن نيته، وقد حقق الله تعالى رجاءه، فجعل الخلافة وقفا مؤبدا على عقبه، وظهرت بركته وعنايته في أكبر أولاده وأعزهم عنده، ومحل نظرته وخليفته في حياته وبعد مماته مولانا أمير المؤمنين سيدي محمد، فإن مولانا المؤيد كان عزم على العهد له عام إحدى وسبعين ومائتين وألف، وفاوض في ذلك بعض كبار عماله العقلاء النصحاء، وهو فلان، فأشار عليه ذلك البعض بالمسارعة لذلك، واستحسن رأيه وعزمه عليه وشكره، وقال له : لقد كنت أردت أن أشير بذلك على سيدي فخفت أن يكون مني فضولا غير صواب، لأنني لم أعلم ما نظر سيدي وما في باطنه، فلما ألهم الله مولانا له كان ذلك علامة الإذن فتجب المبادرة له على سيدنا والعزم به، فإن العزم له بركة، ولكن ينبغي لمولاي

(73) كذا بالأصول والمناسب المضاجعات.

يده الله أن ينتبه لأمر عارض ربما كان فيه تشويش وتعويق دون مرادنا، وبين له ذلك الأمر وعرض ببعض العمال الذي له في ذلك الأمر دخل تام، وهو فلان وفهم مولانا السلطان ذلك وقال له : صدقت، وها نحن ندبر في إزالة ذلك الأمر العارض إن شاء الله تعالى، ثم إن العامل الذي له دخل في ذلك الأمر سمع الخبر وتحقق الحكاية وما نسب إليه فيها، فصرف همته إلى إفساد ما بين ذلك العامل الأول المشاور وبين السلطان بكل ما قدر عليه، فلم يزل يغرى به السلطان وينقل عنه كل سيئة تقع في الحوز، واستعان على ذلك بأناس آخرين من كل جانب حتى من داخلة السلطان، وحرم داره، وكان له اتصال شديد بالحضرة العالية، واطلاع على بواطن الأحوال وظواهرها، فلم يمض على ذلك إلا زمن يسير حتى تغير خاطر السلطان على ذلك المشاور، فقبض عليه ونهب داره واستصفى جميع أمواله، وقيد غيره بدله، وقامت قيامته، ولكن لم يزل مولانا السلطان يتخيل ذلك الأمر الذي حذره منه ويحتال في إزالته، وبعد ذلك ظهر له صدق ذلك المشاور المقبوض، فسرحه وأكرمه وعمله في محل آخر عمالة أكبر من التي كان فيها، ثم سافر مولانا المؤيد إلى الغرب آخر سفراته، فأقام بمكناس كثيرا حتى أدركه مرض موته، فأذهله عن ذلك العزم مع كونه مصرا عليه، فعلم الله تعالى شدة اعتنائه بذلك العهد، وأنه ما صرفه عنه إلا مرضه، فلم يحوجه سبحانه لذلك، فلما توفاه الله تعالى لم يختلف أحد في ولاية مولانا أمير المؤمنين من أهل المغرب قاطبة، وكان ذلك بمنزلة العهد الثابت المتفق عليه، وكانت وفاة مولانا المؤيد رحمه الله يوم الثلاثاء التاسع وعشرين من شهر المحرم فاتح ستة وسبعين ومائتين وألف(74).

(74) كذا بالأصل وفي غيره : "وكانت وفاة مولانا المؤيد يوم الثلاثاء في تسعة وعشرين من شهر ذي الحجة متم عام خمسة وسبعين ومائتين وألف". والصواب ما في الأصل أما ما في غيره فقد كان من سهو المؤلف الذي أصلحه وانظر تقييد ابن اليماني السالف الذكر.

الراية الخضراء المباركة الجليلة، ذات الأفياء الوارفة الظليلة والأذيال الوافرة الطويلة
راية مولانا أمير المؤمنين مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل

هذه الراية هي درة تاج هذا اللواء العظيم وواسطة عقده النظيم، ونتيجة جميع مقدماته، وزهرة أدواح رياضه ومقاماته، ومضمن حججه وبيناته، وبرهان محكم آياته، فيها ظهرت بشارة البشير، وإليها تعود إشارة المشير، وعندها استوى الملك العلوي الحسني على كرسي جلاله، وأوى إلى مبلغ عزه ومحصل آماله :

هذي لعمرك راية مرفوعة ... بيد السعود يقلها التوفيق
رفعت على خير الملوك محمد ... ملك إلى كل الكمال سبوق
خضل البنان بنائل من دونه ... وجه يجول البشر فيه طليق
ورث الإمامة كابرا عن كابر ... عالي المجادة بالعلاء خليق
أفضت إليه خلافة نبوية ... من دونها للمشرفي بريق
فرحت ببيعته القلوب فلم يمل ... منها إلى أحد سواه فريق
فاختال منبرها به وسريرها ... وكلاهما طرب إليه مشوق
فالآن قرت في معرسها الذي ... كانت على قلق إليه تتوق
شرف هشامي ومجد تالد ... يسمو به نسب أغر عتيق
ومناقب يزداد طولا عندها ... باع بتصريف الأمور لبيق
وشمائل رسخت بهن من العلى ... في منبت الشرف الأصيل عروق(1)

كان أهل الحضرة المولاوية لما ابتدأ المرض بمولانا السلطان المؤيد يظنون أن ذلك مرض خفيف مثل ما كان يعتريه المرة بعد المرة، فيعافيه الله منه، وكان الذي يباشره ويليه في ذلك المرض هو ولده الأعز الأغرّ البار الفقيه النجيب، ذو الأوصاف الطاهرة والخلق العجيب، أبو الفضل مولانا

(1) القصيدة من نظم المؤلف.

العباس ولذلك لم يعزموا على مولانا المظفر أمير المؤمنين، ولم يخبروه باشتداد المرض بمولانا المؤيد، وكان مولانا أمير المؤمنين المظفر مشغولا بشئون خلافته بحضرة مراكش، ولم يكن عنده من الخبر إلا كون السلطان مريضا، فظن هو أيضا أن ذلك كغيره من الأمراض المعتادة التي تعقبها العافية عن قريب، فلم يرعه إلا ورود الخبر من أخيه مولانا العباس وغيره من أهل الحضرة، كالوزير الكاتب الفقيه السيد محمد الصفار التطواني أن السلطان قد أشرف ووقع اليأس من حياته، فخرج من مراكش مزعجا ليدرك به الحياة، فلما صدر عن الحضرة بليلة أو ليلتين لقيه الخبر بموت مولانا المؤيد رضوان الله عليه مع بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناس وجميع العساكر البخارية وغيرهم من الشرفاء والعلماء وأهل الحل والعقد وأعيان القبائل من الأعراب والبرابر، فوجهها لمراكش، فلما وردت اجتمع الناس كلهم بجامع الكتبيين أهل مراكش والعسكر السوسي ومن حضر من الرحامنة وأهل الحوز والدير وغيرهم بحضور كبار أولاد مولانا المرحوم بالله تعالى، وأجلهم أبو الحسن مولانا علي، وعامل البلد السيد أحمد بوستة، وباشا الجيش السعيد القائد إبراهيم الجراوي، وعمال الرحامنة، وشرفاء البلد وعلماؤها، فلما غص الجامع بالخلائق الذين لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه، قرئ عليهم كتاب مولانا المنصور المتضمن للأخبار بموت والده السلطان، فارتفعت الأصوات بالترحم على السلطان الصائر إلى عالم الرضا والرحمة، وبالنصر لمولانا أمير المؤمنين المظفر الذي اختاره الله لحماية هذه الأمة، وأقامه لصيانة الحرمة، فلم يختلف في ذلك أحد، ولا استنكف ولا جحد، فاتفق رؤساء ذلك المشهد المبارك الحفيل، على أن تكتب البيعة المحمدية السعيدة، بالنفس البليغ والخطاب الجميل، فقال لي الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله السيد محمد السعيد(2) الذي يبدئ في كل المحامد والمحاسن ويعيد، والله ما سواك لها بأهل، ومثل هذا المقام لا يقدم فيه أولوا الجهل، فألح على ذلك الجمع بالمبادرة والاستعجال، ولم يجعلوا لي فسحة في ذلك المجال، فكتبت منها نسخة مباركة على لسان أهل مراكش المحفوظة المحروسة، ونسخة على لسان الجيش السعيد السوسي أنصار الحضرة

(2) القاضي محمد السعيد قاضي الجماعة بمراكش، كان رحمه الله فقيها علامة استقضاه مولاي سليمان بسجلماسة، وهو ابن خمس وعشرين سنة بعد موت والده قاضيها ت بمراكش 1291 هـ 1874 م "الإعلام" ج7 ص5.

العالية التي هي في ساحة العز والسعادة مغروسة، ونسخة ثالثة على لسان الرحامنة، القبيلة التي هي لحسن الجوار ضامنة، ‹وبحسن جوارهم تكون الحضرة آمنة›(3)، ثم أمر القائد الأجل الضابط الحازم، الذي هو لحسن الخدمة والنصيحة ملازم، أبو العباس السيد أحمد بوستة، أعيان الحضرة وأشرافها، ورؤساءها وعرافها، أن يتأهبوا للوفادة والتوجه لحضرة مولانا أمير المؤمنين بحضرة مكناس لأجل التهنئة والتعزية، وكذلك الباشا القائد إبراهيم بن سعيد الجراوي، هيأ أعيان الجيش وأشياخ إيالته من قبائل الدير، وكذلك عمال الرحامنة وجميع القبائل الحوزية فتوجه كل ببيعته وهديته، فلما وردوا على مولانا المظفر فرح بهم غاية الفرح، وأفاض على الجميع فضله وإحسانه وكرامته، وأجازهم بالجوائز المعتبرة، وفرح جميع المسلمين بولاية مولانا المظفر، ولم يتغير شيء من أمور الدولة الشريفة، لأن الحالة التي كان عليها مولانا المظفر في حياة والده هي التي ظهر فيها بعد وفاته، وقد قدمنا أنه أيده الله في غاية الشبه بجده وسميه السلطان الناصر سيدي محمد بن عبد الله، فإنه لما مات مولانا عبد الله ما تغير شيء من أحوال السلطان سيدي محمد، فإنه كان سلطانا في حياة والده، وكذلك أمير المؤمنين مولانا المظفر نصره الله فإنه كان هو السلطان في حياة مولانا المؤيد والده، ولما وردت البيعة المراكشية على أمير المؤمنين كما ذكرنا، أمر أن تقرأ بالحضرتين فاس ومكناس، وكنت أردت أن أثبتها هنا، فبحثت على نسخة منها عند تقييدي هذا المحل فلم أجدها عندي(4)، وكنت وجهت لحضرة مولانا نصره الله مع وفود التهنئة هذه الأبيات في رثاء مولانا المؤيد المرحوم جدد الله عليه ملابس الرضوان في كل حين :

هذي الحياة شبيهة الأحلام ... ما الناس إن حققت غير نيام
حسب الفتى إن كان يعقل أن يرى ... منه لأدم رؤية استعلام
فيرى بداية كل حي تنتهي ... أبدا وإن طال المدى لتمام
والنفس من حجب الهوى في غفلة ... عما يراد بها من الأحكام
أو ليس يكفي ما يرى متعاقبا ... بين الورى من سطوة الأيام
من لم يصب في نفسه فمصابه ... بحبيبه حكما على الـزام

---

(3) ما بين العلامتين ساقط من (ك) و (ش) و (ف).

(4) نثبت هنا صورة نسخة هذه البيعة أخذا عن كتاب الاتحاف لابن زيدان ج 3 بين صفحة 370-371 مع نصها مطبوعا.

نص البيعة بخط مؤلف الجيش نقلا عن الإتحاف
لمؤرخ الدولة المولى عبد الرحمان بن زيدان
المتوفى 21 ذي الحجة 1365 / 16 نونبر 1946 م ج 3 ص 374

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ومن تكن برسول الله نصرته ان تلقه الأسد في آجامها تجم.
إن ينصركم الله فلا غالب لكم، {نصر من الله وفتح قريب وبشر المومنين}.
الحمد لله الذي اطلع شمس الخلافة في مطالع السعود، وأثمر في رياض منته لأجله كل عود، وأنجز لمن أهله لادراك التقدم على عباده صادق الوعود، وفتح أبواب السعادة لقارعها، وأربح بيعة ملتمس فضله لمشتريها وبائعها الذي بنوره تنجلي الغما، وتتصل النعما، نحمده حمدا يتكفل بتحسين العواقب، وترقية الآمال الى أرفع المراقي والمراقب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي تفجرت بوجوده بحور المواهب، وجاءت شريعته بأوضح المسالك والمذاهب، وأنزل عليه {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما} صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وسلم تسليما، والرضى عن أصحابه الذين كانوا له خير أنصار وأعوان، وخصوصا أهل بيعة الرضوان.
أما بعد، فهذه بيعة شريفة مباركة ميمونة، بها سعادة الدين والدنيا ان شاء الله مقرونة مضمونة، بيعة كريمة يصلح الله بها الأمة، ويفيض بسببها سحائب النعمة، ويشمل ببركاتها جميع الأقطار بكل رحمة.

تولى اختيار الله حسن اختيارها   فلم يحتج الانسان فيها لانسان

بيعة حسنية علوية اسماعيلية هشامية محمدية بيعة عاطرة تعبق في رياض البشائر أزهارها الفواحة الندية، بيعة صحيحة شرعية، ثابتة شروطها المرعية، بيعة لا يحوم حولها زيغ ولا طيش يشيد بنائها الأئمة من قريش، فلا ينحل عقدها، ولا ينقض عهدها.

تمد بشرد النصر منها ظلالها   على الأرض طرا بالمسرة والأمل

حضرها العامة والخاصة والملائكة الذين أضحت بهم البسيطة غاصة، واحتف بها القبول والسرور وكانت مركزا تطرف بها الكمالات وتدور، وتتمنى محاسنها الشموس والبذور، ما تخلف عنها أحد من أهل هذه الحضرة المراكشية وأحوازها وبواديها، ولا بقي أحد من اعرابها وبرابرها الا حضر في ناديها، وأجاب دعوة مناديها، من الشرفاء والعُلماء والصلحاء والقضاة والعدول، والكبار والصغار وكل فاضل ومفضول.

جحاجحة غر الوجوه كأنهم   إذا أسفرت ليلا بدور كوامل

وخصوصا الأعيان والرؤساء والرماة، الذين هم لحوزة الاسلام أسوار وحماة، الا صرح بالاذعان والقبول حين حضر انعقادها، واضمر اعتقادها، وكل فرد فرد من أولئك الاشهاد، يعلن بالاشهاد على نفسه غاية الاشهاد، وما منهم الا من آمن بها وآمن عليها وصدق، وغض بصره خاشعا من هيبتها وأطرق، وينادي اشهدوا فإني أشهدكم وأشهد الله، وأقول : {الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله}.
ثم انه لما استأثر الله سبحانه بمولانا أمير المومنين، وإمام المسلمين السلطان الهمام، المعتصم بالله مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام، ونقله من دار الاسلام الى دار السلام، وآثره بجواره وقربه، ومهد له بساط الكرامة الى جنبه، وأقدمه الى مدخرات حسناته الجسام، وحوز له من جزيل المثوبات أوفر الأقسام، واختار له في مقر رحمته من جملة حزبه وأوليائه فريقا {مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} اكرم الله مثواه وأحسن مأواه آمين.
ووالله ثم والله لولا انه خلف فينا خلفا صالحا، والجبر لنا متجرا رابحا، لكان من فقده تضيق الأرض بما رحبت وتجزي كل نفس بما كسبت، وتخر الجبال هدا، وتصد الأرواح عن أجسادها صدا، ولم يكن في النسب العلي الطاهر، ولا في البيت الاسماعيلي الشهير الظاهر، ولا من بيوت الخلفاء من بقية أولئك الأباء والجدود، بل ولا ممن تنتج به الليالي وهي عاقر غير ولود، من تسلم في يده الأمة زمامها، وتقدمه في محراب السلطنة العظمى إمامها، إلا واحد قد اختص بجميع الكمالات البشرية وتفرد، وذلك الواحد هو الامام المؤيد المنصور، والأسد الورد الهصور، أمير المومنين وخليفة رب العالمين، سيدنا ومولانا محمد بن سيدنا ومولانا عبد الرحمان بن سيدنا ومولانا هشام بن سيدنا ومولانا محمد بن سيدنا ومولانا عبد الله بن سيدنا ومولانا اسماعيل أعز الله ذكرهم، وخلد في صفحات الأيام مجدهم وفخرهم، فلذلك وقع هذا الاتفاق على بيعته، والدخول تحت طاعته، والاذعان لكلمته والرمي على نبعته، وتمت له كلمة ربه الحسنى بإدراك هذا المقام الأكبر الأجل الاسمى واحتياز ميراث النبوة والملك المتخلف عن آبائه، الغائظ لأعدائه السار لاحبائه، فيا لها من بيعة تامة غاية التمام، جائشة عفوا على طرف الثمام، محبوكة على عادة إيمان البيعة وحدودها المحدودة، وشروطها المؤكدة في أقسامها المعدودة.
ويا له من إمام، أسعد الله به جميع الانام :

هذا الذي هبت نواسم حمده   وأنست بعرف الروضة المعطار
هذا الذي طلعت شموس سعوده   تغشى أشعتها قوي الأبصار
هذا اذا افترت مباسم بشره   وهب النفوس وزاد في الأعمار

والله المسؤول سبحانه ان يبارك لمولانا فيما وهبه، ويوضح في اتباع الحق وافعال الخير مذهبه، ويجعل مفاتيح جميع السعادات في يمينه، كما مسح في الأزل بيمينه المقدسة على جبينه، ويملكه مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها وشاهدها وغائبها، ويجعل النصر والظفر مصاحبين لاعلامه، والفتح والقبول عن يمينه وشماله ومن خلفه ومن أمامه، ويقر بولايته المباركة عيون أهل ملة الاسلام بجاه جده سيدنا ومولانا محمد عليه وعلى آله أزكى الصلاة والسلام، قال ذلك وكتبه شاهدا على الجموع المذكورة بما فيه باشهادهم قرة وفعلا العبد الضعيف محمد بن أحمد اكنسوس لطف الله به - من خطه.

وقد غلط الدكتور ادريس العلوي العبدلاوي في بحثه المعنون "أساس بيعة الملوك العلويين" ندوة البيعة والخلافة في الاسلام، ج 3 ص 1153 - حيث نسب هذه البيعة الى المولى عبد الرحمان على ان البيعة هي لولده المولى محمد بن المولى عبد الرحمان بن هشام. هـ.



بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الشبيبة شيبة يخشى لها ذو صحة أن يبتلى بسقام
دار أريد بها العبور لغيرها ويظنها المغرور دار مقام
منع البقاء بها تخالف حالها وتكرر الإشراق والإظلام
لو كان ينجو من رداها مالك في كثرة الأنصار والخدام
لنجا أمير المؤمنين ومن غدا أعلى ملوك الأرض نجل هشام
خير السلاطين الذين تقدموا في الغرب أو في الشرق أو في الشام
سر الإله ورحمة منشورة كانت سرادق ملة الإسلام
قصدته عادية الحمام فما عدت أن هددت علما من الأعلام
لم تحجب الحجاب منها طارقا كلا ولا دفعت يد الأقوام
والملك في عز مَهِيب شامخ وإمامه في جرأة الضرغام
عجبا لها لم تخش من فتكاته والأسد تزأر حوله وتحامي
عجبا لها لم تستح من وجهه والوجه أبهج من بدور تمام
عجبا لها لم ترع طول قيامه متهجدا لله خير قيام
تبا لها لم تدر من فجعت به من معتف وأرامل الأيتام
أسفا على ذاك الجلال وإنه لأجل من أسف وفرط هيام
يا مالكا كانت لنا أيامه ظلا ظليلا دائم الإنعام
لا ضير أنك قد رحلت ميمما دار الهناء وجنة الإكرام
في حضرة تغدو عليك بشائر من حورها بتحية وسلام
ضاجعت في تلك القصور كواعبا دريّة الألوان والأجسام
تسقيك صرف السلسبيل مروّقا وتدير كأسا من مدام مدام
فلك الرضا فانعم بما أعطيته ولك الهناء بنيل كل مرام

وبعد ذلك بأيام وجهت ولدي عبد الله حفظه الله لحضرة مولانا المظفر مهنئا له بهذه القصيدة الأخرى :

وجوه الأماني حسنها متجدد ومنظرها يحكيه خد مورد
قضى الحب في كل القلوب بأنها ممالك أرباب الجمال وأعبد
وكم من عصي للهوى متعفف يفر من السود العيون ويبعد
تصيده ظبي على حين غفلة مهفهف مستنّ الوشاحين أغيد
فأصبح مفقود الفؤاد مخبلا وأي فؤاد عاشق ليس يفقد
ولله في أسر الغرام وقهره نفوس ضعاف ليلهن مسهد
إذا الليل أضواها تكنفها الهوى وليس لها غير الكواكب منجد

وذي ظمأ بين الضلوع يجنه ... إلى رشفات للصبابة تبرد
تراءى له من منحنى الجزع برقه ... فظن بأن الجزع ثغر منضد
وتذكره تلك البروق مباسما ... عليهن مرفض الجمان معقد
يراقب أسراب النجوم بمقلة ... تقسمها شطرين نسر وفرقد
ويهفو لأيام العقيق فتنثني ... مدامعه مثل العقيق تبدد
وهل يتناسى عهد من سكن اللوى ... إذ العيش غض والحبائب تسعد
وما زالت الأيام تغري بنا النوى ... وتُنئي الذي نهواه عنا وتبعد
ولست أبالي للزمان صروفه ... وكهفي أمير المؤمنين محمد
خليفة رب العالمين بأرضه ... وصارمه الشاكي الشباة المهند
إمام تولى الله تشييد ملكه ... وناهيك ملكا بالإله يشيد
وصفوة هذا الخلق من آل هاشم ... وأعلى ذوي التيجان فخرا وأمجد
وأرحبهم في العز باعا وفي العلى ... وأكثرهم في الفضل حظا وأزيد
أتته عروس الملك عاشقة له ... وكم عاشق عنها يذاد ويطرد
وألقت على شوق إليه زمامها ... فطاب لها منه الجناب الممهد
فأصبحت الأيام تزهو بعدله ... وتنعم في ظل الهناء وتسعد
ففي بابه مأوى المكارم والندى ... وفي بابه الخيرات تولى وتوجد
ودولته للعز والنصر مألف ... وحضرته للأمن واليمن موعد
تذل ملوك العالمين لبأسه ... وتركع مهما أبصرته وتسجد
له راحة في الجودما الغيث عندها ... وما البحر والدر النفيس المقلد
له أنعم تأوي إلى ظلها المنى ... وتسحب أذيال السماح وترفد
وعزم على الخيرات ليس بسامع ... مقالة من في المكرمات يزهد
ورأى ينير الخطب عند اعتكاره ... ويفسخ ما أيدي النوائب تعقد
ووجه إذا ما لاح أيقنت أنه ... محيا له وقت السعادة مولد
حيي كثير الابتسام مبارك ... يكبر ربي إن بدا ويوحد
أغر يهز المدح منه معاطفا ... تجر ذيول الفخر إن هو يحمد
له العسكر الجرار تبرق في الوغى ... صوارم منه والمدافع ترعد
يعد إلى الأعداء كل كتيبة ... من الرعب يحذوها الوشيج المسدد
وكل كمي كالغضنفر مغضبا ... وكل صقيل وهو ماض مجرد
يبيد العدا قبل اللقاء مهابة ... فصارمه يفري الطلى وهو مغمد
هو الملك المشهور بالحلم والدها ... وبالعلم والشهب الدراري تشهد
تشد لأدراك الغني عند بابه ... ركائب أنضاها الدءوب المشدد

يحدث عنه الوفد عند صدوره أحاديث عن بحر إذا البحر يزبد
إلى مجده آمالنا قد تطاولت وليس لها إلا حماه المؤيد
فيا مالكا يحمي الرعية بأسه ويحييهم بالبذل والبذل أرغد
يدبر فيهم كل يوم مصالحا تعود بما يرضون والعود أحمد
ويشملهم بالعدل والفضل والندى ويصلح بالصمصام من هو مفسد
هنيئا لك الملك الجديد فإنه يدوم بحول الله وهو مسرمد
هنيئا لنا نحن العبيد فإننا بسؤدد مولانا الإمام نسود
ودونك يا خير السلاطين كاعبا بديعة حسن للنهى تتودد
تدير كئوس الراح دون تأثم إذا هي أثناء المحافل تنشد
فلا زلت ما بين الملوك مخيرا كما اختير من بين المعادن عسجد

ولما ورد ولدنا عبد الله لحضرة مولانا المظفر بحضرة مكناس مع وفود التهاني من كل ناحية من جميع أقطار المغرب، فرح بهم وأنزلهم وأفاض عليهم أنواع البر والإكرام، وأصناف الخير والبركات، وخصوصا ولدنا ومن في صحبته، وكساهم بالملابس الفاخرة التي تناسب عطايا أعاظم الملوك وأساطين السلاطين، وأجازهم بالجوائز المتكاثرة المتعددة، فصدروا راجعين بالسلامة والفرح والسرور، وذلك بعد اضمحلال ما صدر من بعض البرابر الذين يسعون في الأرض الفساد وليس لهم غرض إلا في توهين المملكة، وليس للمملكة أعداء غيرهم، وذلك أن المولى عبد الرحمن بن مولانا سليمان وقع له مثل ما وقع لمولانا عبد الواحد في صدر خلافة السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، لما مات السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله، بايعه أهل سجلماسة جهلا منهم بعواقب الأمور، ووجه مولاي عبد السلام بن سليمان خليفة لمراكش كما قدمنا شرح ذلك في راية السلطان المؤيد، ووردت عليه مكاتب من الغرب ممن يرتقب ولايته من أهل مودته، يحضونه على القدوم، وقالوا إنك إذا قدمت فإن الناس لا يقدمون غيرك لأنك البركة الباقية من أولاد سيدي محمد بن عبد الله، فخرج من تافلالت مغترا بذلك، ولم يكن عنده علم بأن أخاه المرحوم السلطان العادل قد عهد الى من هو أولى من غيره، وهو يرى مكان إخوته وأولاده، وترك ذلك كله اتباعا للحق وإيثارا لمصالح المسلمين، فلما كان مولانا عبد الواحد في أثناء الطريق، وبلغه خبر عهد أخيه لمولانا عبد الرحمان، ندم على ذلك،

فكتب في الحين ببيعته لولد أخيه السلطان المؤيد ووجهها له، وكان مولانا عبد الواحد رحمه الله من الدين والمروءة وعلو الهمة والعقل الراجح بالمكان العالي، وما رأينا مثله في محاسن الأخلاق ونزاهة النفس مع المشاركة في العلوم ومحبة الخير وأهله، لا يجالس غير أهل الفضل والعلم والأدب رحمه الله تعالى، وهكذا وقع لمولانا عبد الرحمان بن سليمان فإنه صدرت منه هذه الفلتة بسبب كتابة بعض الأحداث من أبناء أعمامه الذين بفاس ومكناس ومن بعض جهال البربر وأفذاذ من عبيد البخاري، وكانوا يستحثونه ليسرع بالوصول الى الحضرتين بإثر موت مولانا السلطان المؤيد قبل وصول مولانا أمير المؤمنين المظفر، ولم يعلموا أن الله تعالى بالغ أمره، فلما قرب من فاس ووجد الأمر قد استحكم لمولانا أمير المؤمنين أراد الرجوع الى محله والقدوم على مولانا المظفر كما فعل مولانا عبد الواحد، ويا ليته فعل، فإنه والله لو قدم عليه لنال المنزلة العالية، والمرتبة الشامخة السامية، ولكن جاءه بعض رؤساء الفتنة من البرابر وهونوا عليه الأمر، ووعدوه بالنصر له والذب عنه والقتال دونه حتى يدرك ميراث آبائه، فنهضوا به للزيادة الى فاس، فحالت جنود السلطان بينهم وبين الوصول إلى فاس.

وكان الوزير الفقيه النجيب ذو الرأي الأصيل والخلق العجيب أبو عبد الله السيد العربي بن المختار الجامعي رحمه الله قد وقف في ذلك غاية الوقوف، كما يجب، فلما رأى البرابر الجد فروا على ما هو عادتهم من الغرور والكذب، فرجع مولانا عبد الرحمان لسبيله على أنه لا حرج عليه في ذلك، وعذره ظاهر، كما قال هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : هل كان في آبائه من ملك ؟ فقال له أبو سفيان : لا فقال له هرقل : سألتك هل كان في آبائه من ملك فزعمت أن لا، فقلت : لو كان في آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه انتهى، فظهر من كلامه أن من يطلب ملك أبيه لا لوم عليه، وقد تقدم لنا في راية مولانا عبد الله بن إسماعيل قوله لأخيه مولاي المستضيء بعد أن انطفأ نوره وسلب، وأمضى جميع مقدوره حتى غلب، وأنت يا أخي لا لوم عليك لأنك إنما تطلب ملك أبيك انتهى، وكذلك مولاي عبد الرحمان بن سليمان لا لوم عليه في ذلك، وإنما عليه الملام حيث لم يأو إلى مولانا السلطان المظفر لما ظهر له أن الله تعالى قد اختاره واصطفاه لرعاية خلقه لما جبله

عليه من الرحمة، ولو فعل كما فعل مولاي عبد الواحد مع السلطان المؤيد لأدرك من العز والكرامة ما لا غاية فوقه، وقد ورد أخوه شقيقه مولاي عبد الله بن سليمان على مولانا السلطان المظفر فأكرمه فوق ما يظن الظان، ووجهه لأخيه المذكور مولاي عبد الرحمان وهو بالزاوية العياشية يدعوه إلى القدوم للحضرة المولاوية على الأمان، وقال له يتكفل عنه بكل ما يرضيه، فلم تطاوعه نفسه، وكأنه لم يعلم ما خص الله به مولانا السلطان المظفر من الحلم والسماح ومحبة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبناء عمه الأباعد فضلا عن أقرب القرباء، فضلا عن أولاد مولانا سليمان أخواله، فإن الله تعالى شرفه بهذه الخصلة التي هي محبة الشرفاء بما لم ينل أحد من أسلافه الكرام مثله، إلا ما كان من سميه جد أبيه السلطان المنصور سيدي محمد بن عبد الله، سبحان الله، فإن أخلاقهما متقاربة، وأوصافهما متشابهة، وقد نبهنا على ذلك غير ما مرة في هذا التقييد، وسيأتي لذلك إن شاء الله تعالى مزيد.

وقد كنا ذكرنا أن الوزير الأجل الأمجد، الكاتب الأكرم الأسعد، السيد العربي بن المختار الجامعي كان ظهر منه غناء كاف، وكفاية تامة، بنفسه وقومه، وحسن تدبيره، وعرف له مولانا أمير المؤمنين ذلك، فاستوجب عنده المزية التي لا يطمع غيره في إدراكها، لولا أنه اعتاقه حمامه، وانقطع في يد القضاء بانقضاء الأجل زمامه، فمات بإثر خمود نار تلك الفتنة، ونوخ له بازل الارتحال، فركب متنه، وسبب موته ما كان يصيبه من شبه الإغماء الذي يفيق منه بعد الشدة، إلا أنه في هذه المرة لا إفاقة بعده، فرحم الله تلك النسمة الطيبة، والغمامة الصيبة، فإنه كان وجه ابتهاج الدولة، وصارم الانتصار لها وعدة الصولة، وقد راعى له مولانا أمير المؤمنين حرمته، وجعل كيقظته نومته، فرفع شأن أولاده، ولم يرزأه شيئا من طرافه ولا تلاده، بل أبقى عليهم ولاية أبيهم ووظيفته وجميع أملاكه وأصوله وبلاده، وهكذا دأب مولانا المظفر، فإنه ما فضح قط أحدا من خدامه ولا أعراه، وإن بلغ الغاية فيما اجترحه وافتراه، فأحرى أهل المحبة الصادقة والولاء، ومن أخلصه السبك بعد نيران الابتلاء، فلما صفت الخلافة لمولانا أمير المؤمنين، وتمهدت، واستوت على كرسيّ السعادة وتقعدت، وجرت أحكامه في جميع أقطار المغرب، ولم يتخلف أحد من

أشياخ المسلمين ورؤساء القبائل وأعيان العرب والبربر عن المثول في حضرته العالية، وأداء الطاعة لعزته والغالبة، فأقر كل عامل على عمله، ولم يحل بين أحد وأمله، وكذلك أجناس النصارى وملوكهم ما خرج أحد منهم على عادته المقررة، وشريطته المدونة المحررة، فقد وجه كل جنس رسوله ومكاتبه وهداياه، وأبرز له من طلب البقاء على المهادنة خباياه، فأنعم مولانا نصره الله لجميعهم بما طلبوا، وقابلهم بالإحسان والمجازاة لما جلبوا، إلا ما كان من جنس الصبنيول فإنه كان حالهم مع أهل هذه الدولة الشريفة في أيام السلطان المنصور سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في غاية الاعتناء بهم دون غيرهم من الأجناس، وكانوا عنده بمنزلة الجند يقضي بهم الأغراض الكبار، لقرب جوارهم وإظهارهم للخدمة التامة، والعناية بكل ما يأمرهم به من قليل أو كثير أو قريب أو بعيد، وكان سيدي محمد يباهي بهم الأجناس في جل الأمور، وربما تغير عليهم وأظهر لهم العداوة والشدة والقوة، حتى يؤدبهم ثم يعود لاستخدامهم ومعاملتهم بالإحسان، فألفوا ذلك مع هذه الدولة، ثم لما مات سيدي محمد وانهدمت تلك القواعد التي كان بناها معهم بولاية غيره، لا سيما مع مولاي اليزيد، فإنه تظاهر بالعداوة لهم ولم يظفر منها بشيء لا ما قل ولا ما جل، وإنما أزال حجاب الهيبة الذي كان مسدولا على أهل هذه العدوة المسماة عندهم بالبربرية، فلما زال ما ألفوه مع سيدي محمد، ومات مولاي اليزيد بعد ما أظهر ضعف المسلمين، حيث جمع القوة التي قدر عليها، وحاصر سبتة بلا تأويل ولا حسن تدبير، فأنفد جهده وانخزل عنها بلا طائل لما قام عليه أهل مراكش، فهذا كان السبب في اغترار الصبنيول حتى تجرأوا وطمعوا في الاقتدار على المقابلة بعد أن كانوا خدمة للسلطان المنصور سيدي محمد.

فلما جاء الله بمولانا سليمان واطلع على حقيقة الحال، وما آل إليه الأمر من الوهن، وعلم أنه لا دواء لتلك العلة إلا مساعدتهم على ما رغبوا فيه من المهادنة جعل ذلك صوب أمره معهم، فكان لا يحدث نفسه بغير ذلك، فلما جاء مولانا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان سلك مسلك عمه مولانا العادل في ذلك ولم يزغ عن مذهبه، فلما جاء الله بمولانا المظفر بادر الكفار إلى انتهاز الغفلة، والناس في شغل بما أذهلهم من موت السلطان المؤيد ومولانا أمير المؤمنين المظفر كذلك في الاشتغال بتمهيد المملكة

وترتيب وظائف الخلافة، واستدفاع غصص التفجع بالمصاب الهائل الذي هو موت والده، والعدو المذكور متكالب على إساءة الأمور وإيرادها على موارد التعنت وإظهار القوة، واستشار(5) أمير المؤمنين نصره الله بعض أهل الحدة والطيش، فأشار عليه بمبارزتهم ومحاربتهم، ومنابذتهم واستهون أمرهم غاية، فوجه مولانا نصره الله بعض خدامه يؤذنهم بالمحاربة، فأساء ذلك البعض الوساطة وأفرط في التفحش في غير محله، فاستنفر مولانا المظفر نصره الله غزاة المسلمين وعساكر الدولة الشريفة، وفتح بيوت الأموال والعدة والقوة المدخرة لذلك، فأفاض على الناس ما جاوز الحد من العطايا والمبرات والمؤنات والأقوات، وقال : ليوم سوء جمعنا ما جمعناه، ووجه أخاه وخليفته البطل الحازم الفقيه العلامة أبا الفضل مولانا العباس فأقبلت القبائل والعساكر والجنود المجندة من جميع الأقطار بالأعداد التي لا تحصى، غير أنها جزاف بلا ترتيب ولا تعبية ولا على هيأة الحرب ولا بالقرب من ذلك لطول عهدهم بالقراع والضراب، بل لعدم مشاهدتهم ذلك قط، وظنوا أن كثرة العدد تغني في ذلك شيئا، ولم يعلموا أن الكثرة المفرطة هي سبب الانهزام والخذلان، فلما نزلت تلك الجنود بالسواحل الفحصية في مقاربة العدو وأطالوا المقام وعكفت رؤساء المحلة على الراحة، استلذاذا واغتناما لكثرة الأموال والرواتب والمئونات التي يفيضها مولانا أمير المؤمنين بقصد الجهاد، ومولانا نصره الله يستحثهم كل حين ويأمرهم بالمناجزة، وهم في غفلتهم ساهون، والعدو قد أخذ أهبته، ويلغه على ألسنة عيونه وجواسيسه ما عليه جنود المسلمين من عدم التأهب ومن الاغترار، فعاملهم بالمطاولة، وعلم ما يئول إليه الأمر، فكان إذا قرب منه المسلمون حصبهم بالرصاص ودفعهم بالمدافع فيتأخرون ويتقدم هو، وهكذا حتى آل الأمر إلى زحفه إلى تطوان بعد انكشاف الغزاة عنها، في أخبار لا يحسن جلبها وكان من قدر الله تعالى دخول العدو إليها، ومع ذلك لم يأمن على نفسه من المكر به، وانقلاب الدائرة عليه، لأنه رأى من كثرة الناس ما لا يمكن أن يغلب في العادة، فتخوف العدو أن يكون ذلك مكيدة له، فلذلك عرض على المسلمين المهادنة إن أرادوا. فلما رفعوا ذلك إلى الخليفة مولانا العباس قبل ذلك لما رأى من سوء عمل المسلمين، وعدم نصحهم لله

(5) انظر ملحوظة ابن اليماني على المسألة في التقييد المودع بالمقدمة

ورسوله ولدينهم، فشرط العدو على المسلمين أن يدفعوا له جميع ما أنفقه في حربه ذلك وحركته، فقبله الخليفة على شرط أن يخرج العدو من تطوان فانبرم الصلح على ذلك، وكان في ذلك لطف من الله تعالى بالمسلمين ورحمة لهم، ريثما يستعدون ويراجعون أنفسهم، ويتداركون محل التفريط إن كانوا يعقلون، وما أصيبت هذه المحلة إلا من كثرة الجموع بلا ترتيب، ولا مدرب تجدته التجارب ومباشرة الحروب، أما كثرة العساكر ففي كتب الحكمة أنه اتفق أهل السياسة من العرب والعجم على أن كثرة الجموع لا تؤمن غوائلها، ولا ينضبط أمرها، ولا ثمرة لها إلا الهزائم، وكل من حارب بجميع عساكره فهو مخذول، وكل أمير أمر أميرا على أكثر من ألف من عسكره فقد عرضه للتلف، والأمير الحازم هو الذي يضبط الألف، فإذا كان للملك عشرة أمراء عند كل أمير ألف من العسكر مضبوط، فذلك بمنزلة مائة ألف مهملة، ولا تحتمل حومة الميدان أكثر من عشرة آلاف، ليكون نظر الملك على جميعها، فإذا زادت العساكر على ذلك يقع فيهم الخلل، وتسرع إليها الهزائم، وقد وقع ذلك في الجاهلية والإسلام، ومن طالع أخبار الأمم الماضية تيقن مصداق هذا. وأقرب شيء إلينا واقعة السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله في حركته لجبل فازاز لقبائل آيت أمالو زيان وغيرهم، فإنهم ما أوتوا إلا من الكثرة المهملة، والجموع الجزافية الغير المرتبة الخالية عن الأحكام القانونية، والرؤساء الضابطة التي تقوم أتباعهم بقيامهم وتقعد بقعودهم، ومن ذلك أيضا في غير هذه الدولة ما وقع في دولة السعديين لجنس البرتقيز في وادي المخازن، فإنه أي البرتقيز حشد ما بلغته طاقته من الجنود فوقعت الكرة عليه كما هو معلوم في محله، ومن ذلك أيضا في دولة الموحدين ما وقع للناصر بن المنصور في غزوة العقاب، قال في نفح الطيب إن الناصر جمع جموعا اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش، فصاف الفرنج فكانت عليه ولم ينج من الستمائة ألف إلا عدد يسير جدا لم يبلغ الألف، فيما قيل، وهذه الوقعة هي الطامة الكبرى على الأندلس، بل على المغرب جميعا، وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العازفين بقتال الفرنج استخف بهم الناصر ووزيره، وشنق بعضهم، ففسدت النيات، فكان ذلك من بخت الفرنج

والله غالب على أمره انتهى كلام نفح الطيب، ومن ذلك أيضا ما وقع لأبي الحسن المريني في حركته المعلومة الإفريقية قيل إنه كان معه من جنس الكتاب أربع عشرة مائة محفة فوقع به ما هو مشهور.

قال مليه عفا الله عنه ولطف به آمين، وعلة ذلك والله أعلم، هو ما فيه من الإعجاب، فان النفوس البشرية مجبولة على الاعتماد على ما يظهر لها من استحسان حالها، ومن تعجب في نفسه هالك لا محالة، وقد أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « إذا بعثت سارية فلا تنتقهم واقتطعهم فإن الله ينصر القوم بضعفائهم» (6) فقوله عليه السلام فلا تنتقهم أي لا تخترهم، ففي الحديث إشارة إلى أن المؤمن لا يتكل إلا على الله تعالى في مهماته، وإذا اتكل على شيء من أسباب نفسه من كثرة أو اختيار أو غير ذلك هلك، ألا ترى أن الله تعالى بعدما أخبر المؤمنين بأنه أمدهم بالملائكة قال لهم (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله) لئلا يتكلوا على الملائكة، حدثنا بعض الثقات أن السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله لما جاوز بلاد تادلة وقطعوا واد أم الربيع من أعلاه، ودخلوا بلاد آيت أمالو ورأى كثرة الخيل والجنود المحشودة، قال لبعض من حضر : انظر هذه البلاد ما أنعمها وأسهلها، وقد كان المرابط السيد العربي بن المعطي(7) يحذرنا منها ويخوفنا من أهلها، ولو كان حيا في هذه الحركة ما تركنا نجاوز أم الربيع انتهى، فهذا القول يدل على أن مولانا العادل رحمه الله أعجبه ما رأى، ووقعت له غفلة ليقضي الله ما أراد، والكمال لله سبحانه.

وقد قلنا إن هذا الصلح الذي صدر في هذه القضية من لطف الله بالمؤمنين ورحمته لهم، ومن أغرب ما اتفق لنا مع بعض من يدعي العلم والرياسة فيه أننا كنا في بعض المجامع، وجرى في ذلك المجمع ذكر هذا الصلح المنبرم مع الخزيان، فأطلق ذلك البعض لسانه بغير احتشام، وصرح بأنه صلح محرم لا وجه له في الدين، وكان عادتي أني لا أريد منازعة أحد من أمثال هذا ولامجادلته، ثم ظهر لي أنه يجب في مثل هذا المقام عدم

---

(6) حديث : (اذا بعثت سارية)... لم نعرف مصدره.

(7) العربي بن المعطي، الشيخ الإمام، أبو المواهب، كان عالما عابدا زاهدا ت 1234هـ 1818م "الإعلام" ج5 ص180 الطبعة الأولى، "الزاوية الشرقاوية" ج1 ص110.

السكوت لأن السكوت عن إبداء الحق هو عين الباطل، لا سيما مع حضور جماعة يستفيض الخبر بهم، فقلت يا هذا إن مثل هذا الصلح صحيح، بل واجب، وقد وقع نظيره في مواطن عديدة لجماعات المسلمين، وفي حضرة العلماء الذين هم حجة الله في الأرض، ووافقوا عليه ولم يقع من أحد منهم أدنى إنكار، فقال : أين وقع مثله ؟ فذكرت له صلح أمير المؤمنين بالأندلس ابن الأحمر بغرناطة وحضور جميع علماء حضرته في ذلك العهد، وصلح أهل طليطلة قبل أخذها على يد أميرها ابن ذي النون بإذن علمائها وصلحائها، وصلح أهل إفريقية مرارا كما ذلك مسطر في كتب التاريخ بنقل الثقات، وصلح أمير المؤمنين العثماني في هذه الأزمان على شروط لا يكاد يظهر لها وجه في ظاهر الشرع، ولم ينكر أحد من علماء إيالته الواسعة لا في الشام ولا في مصر ولا غير ذلك، وكل هذا والرجل مصر على إنكاره، جامع في زمام أوهامه وسيئ أفكاره، ذاكر لحجج واهية، إلى غاية التهافت متناهية، ثم قال : في المختصر : (وإن بمال)، يعني يأخذه المسلمون من الكفار لا يعطيه المسلمون للكفار، فقلت له هذه المبالغة لا يتعين رجوعها للمفهوم، وإن كان هو الراجح، فقال : كلامنا في الراجح، فقلت له : فأين أنت عن الاستثناء المذكور بعد ذلك، وهو قوله (إلا لضرورة) فإن أحسن ما يقرر به كلام خليل هو كلام الإمام المازري وهو قوله ولا يهادن الإمام العدو بإعطائه مالا، لأنه عكس مصلحة أخذ الجزية منهم، إلا لضرورة التخلص منهم خوف استيلائهم على المسلمين، وقد شاور صلى الله عليه وسلم السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة لما أحاط قبائل الأحزاب بالمدينة في أن يبذلوا للمشركين ثلث الثمار لما خاف أن تكون الأنصار ملت القتال، فقالا : إن كان هذا من الله تعالى سمعنا وأطعنا، وإن كان رأيا فما أكلوا منها في الجاهلية تمرة واحدة إلا بشراء أو قرى، فكيف وقد أعزنا الله بالاسلام، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عزمهم على القتال ترك ذلك، فلو لم يكن الإعطاء عند الضرورة جائزا ما شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه انتهى، فلما شرحت له هذا جعل يجعجع على الحاضرين من العوام، فإذا هو ما فهم محل الشاهد من القضية أصلا، فذكرت له صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحا مبينا في القرآن المبين مع ما تضمنه في بادي الرأي من شبه الدنية الذي أنكره

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى بين له الصديق الأكبر ما هو المراد من الوحي الصادق، فلما ذكرت له ذلك صار أصمت من سمكة، ولم يحرك بعد ذلك حنكه، ولو بجزء كلمة، كأنما ألقم حجرا يملأ فمه وإن كان بلغنا أنه بعدما انصرف عن هذا المجلس ظهر منه أنه لم يحل عن الإنكار، نسأل الله السلامة والعافية.

ولما نظمت القصيدة الهائية في العيد النبوي عام 1282 في مدح مولانا أمير المؤمنين وتهنئته بالعيد المبارك على العادة، أشرت الى هذه القضية ولم أصرح بهذا الرجل ولا أصرح به، لأنه جاهل مركب، والله سبحانه أمرنا بالإعراض عن الجاهلين، وهذه هي القصيدة :

بشراك قد حل ما ترجو وترضاه	وكل ما يتوقى الناس تكفاه
فالدهر ممتثل أمرا تشير به	قمر بما يقتضيه الرأي تعطاه
أضحت بك الملة الغراء ضاحكة	والدين أظهر مفترا ثناياه
والملك قد أشرقت أرجاؤه فرحا	بنور وجهك حيا الله مرآه
ورفرفت برياح النصر رايته	وأنت في ظلها الميمون تغشاه
وأشرق العدل والأيام داجية	لما جرى الحق من يمناك مجراه
بشرى فقد أنجز الأيام موعدها	من ملكك الأمر أدناه وأقصاه
إن الكواكب في أفلاكها حكمت	بما ظفرت به والحاكم الله
هذي المغارب قد ألقت أزمتها	إليك فاحكم بما تبغي وترضاه
وللمشارق شوق لو مددت لها	يمناك مد إليك اليمن يمناه
ولو رميت النجوم الساريات لما	أخطأت منها الذي نويت مرماه
بشرى الزمان الذي أضحيت مالكه	بالعز والعدل والإحسان بشراه
فأنت للدين والدنيا جمالهما	وأنت تهدي الورى للحق إن تاهوا
سست الممالك للتوفيق مصطحبا	ملازم الحزم لا تنفك ترعاه
جبرت منكسرا سترت مفتضحا	نصرت مشتكيا أزلت شكواه
فالخير منتشر والعزم مجتمع	والعز مقتبل قد لاح مبداه
أطفأت ما أوقد الخزيان من ضرم	وخاب موقدها والله أخزاه
جنحت للصلح بالرأي السديد بما	سيحمد الدين والإسلام عقباه
صلح تبلج نور من جوانبه	حتى استبان الهدى من ضل معناه

صلح وحق مزاياك التي شهرت ... ما كان يظهر وجه الرشد لولاه
أبرمته بيد بيضا مباركة ... أكرم بمبرمه ما كان أزكاه
بنيته في يفاع العز عن ثقة ... من أن يتم لك الرحمان مبناه
صلح الحديبية المتلوّ في صحف ... فتح مبين بهذا الله سماه
قد أنكر البرءاءُ ما تضمن من ... شبه الدنيّة والفاروق يأباه
وفيه سر وراء العقل محتجب ... والسيد الأيّد الصديق أبداه
وصورة الحال في هذا مشابهة ... وللحقائق أمثال وأشباه
يا خير آل هشام وابن سيدهم ... ومن له في سماء المجد أعلاه
لو كان غيرك هذا الأمر فاجأه ... لكان حيّره وكان أعياه
وأنت يا ناصر الإسلام منتصر ... بالله لا ترتجي في الأمر إلاه
مظفر فتحت لك العلا كرما ... أبوابها وكفت ما أنت تخشاه
مؤيد بجنود السعد مكتنف ... بالرعب تنزل بالأعداء بلواه
يا من له برسول الله منتسب ... عال له غاية التعظيم والجاه
يهنيك مولد خير المرسلين فما ... أجل مولده فينا وأهناه
عيد تشرف بالتشريف مطلعه ... إذ لاح للمصطفى فيه محياه
وأنت يا خير من يدعى خليفته ... كفلت أمته نصرت دعواه
والَيْتَ في الله من والي وكنت له ... ركنا وعاديت من في الناس عاداه
يابن الأجاود من أبناء فاطمة ... ومن هم لبحور الجود أمواه
إنا رجوناك للجلّى وأنت لها ... لا خيب الله فيك ما رجوناه
نداك أغنى وأقنى كل مقترب ... ونحن أقرب من راعيت قرباه
وفاض فضلك فيض الغيث منبجسا ... حتى الأباعد نالتهم عطاياه
ما بال عبدك هذا قد أَلَظّ به ... ناب الزمان فعناه وأعناه
عبد مطيع طويل الباع مفصله ... مهند شحذت بالطبع متناه
يهدي إلى قدرك العالي مدائحه ... في كل عام لعل الفوز يلقاه
وأنت يا ابن رسول الله لو لحظت ... رحماك حالته لفاز مسعاه
ولو رنوت بعين العطف جانبه ... لاهتز فخرا على الأكفاء عطفاه
وقد دعاك أمين الله مُضْطَراً ... حاشاك تهمله حاشاك تنساه
لا زلت في دولة ترخي ذوائبها ... على خمائل عز طاب رياه

وقد وفى النصارى بما شرط عليهم في عقد الصلح من الخروج من تطاون، فلما خرجوا أمر مولانا نصره الله برجوع من خرج منها فرجع كل إلى محله، ولم يرزأهم النصارى شيئا إلا القليل، وإنما نهبهم إخوانهم الذين يدعونهم المجاهدين، ولولا أنهم أخذوا حذرهم لفعل بهم كما فعل بأهل السويرة، ولكن وقعة السويرة علمتهم(*).

والسعيد من اتعظ بغيره، ولقد بالغ مولانا المظفر نصره الله في الاحتياط لهم والاعتناء بهم والشفقة عليهم حتى عادت بلدتهم أحسن مما كانت عليه، وأخلف الله عليهم كل ما ضاع لهم، وحسنت أحوالهم وربحت تجارتهم، ونمت أموالهم، أخبر بذلك بعض الصادقين من تجارهم، وكان فطنا مستبصرا وقال : إن ذلك مصداق ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجود البركة في بقية الجوائح، فقلت له هو كذلك بلا ريب، وقد وجه مولانا نصره الله كاتبه الفقيه الأريب الصادق الأمين الحازم الناظم الناثر، الحسيب الأديب أبا العلاء سيدي الحاج إدريس بن الوزير الأعظم الأجل الأكرم العلامة سيدي محمد بن إدريس(8)، في هذه القضية وفي غيرها من شئون المملكة التي تقتضيها السياسة والعادة المقررة بين الدول إلى جنس الفرنصيص، ومرة ثانية إلى جنس الصبنيول، ووجه كاتبه الفقيه العلامة الماجد الأصيل السيد عبد الرحمان بن محمد الشرفي الفاسي(9) ‹إلى جنس الصبنيول في المرة الأولى، والفقيه النجيب الحبي الأريب السيد محمد بن القائد الرئيس السيد علال الشامي إلى جنس النجلير›(10) حتى تقررت الأمور وتمهدت على الوجه المعروف وتيسرت الأسباب في البر والبحر، وكل ذلك تدبير صالح، وفعل مبارك ناجح، من حكيم بار ناصح، وهو مولانا أمير المؤمنين نصره الله، وكانت هذه الأجناس الثلاثة المذكورة وجه كل واحد منهم باشا دوره وطلبوا من مولانا المظفر نصره الله أن ينوه بهم ويشرفهم بتوجيه بعض خواصه وخدامه الأقربين ليعلم الأجناس أن لهم حظوة عنده ومكانة، وذكروا أن لهم من حق الجوار ما يقتضي ذلك، وأن

---

(8) ادريس بن محمد بن ادريس العمروي كان فقيها، أعجزت مفاخره كل ناقل وعجز عن بلاغته سحبان وائل، وهو أشهر من أن يعرف، وهو صاحب "الرحلة البارزية" ت 1296هـ 1878م، "تواصل الجمان" ص142 "الاعلام" ج3 ص22.

(9) عبد الرحمان الشرفي بن محتسب فاس محمد بن العدل، وكان وزير الخليفة السلطان بمراكش، عالما أديبا مشاركا، من بيت شهير بالمغرب ت 1304هـ 1886م "الدرر البهية" ج 2 ص 357 "تواصل الجمان" ص208 "الإعلام" ج8 ص147.

(10) ما بين المعقوفين كتبه المؤلف على هامش مخطوطه إضافة، انظر تقييد ابن اليماني.

(*) وقعة السويرة المتقدمة الذكر في عام 1260. كما سبق في راية المولى عبد الرحمان.

أسلافه السلاطين الأعاظم كانوا يفعلون معهم ذلك وهو كذلك، فساعدهم مولانا بتوجيه من ذكر، فكمل المراد بحمد الله تعالى، واتسقت الأحوال، وفاضت الخيرات، وشاع الأمان في جميع أقطار المغرب، وشمل الناس جميعا عدل مولانا المظفر نصره الله، لم يفقدوا شيئا مما ألفوه في حياة والده المؤيد رحمه الله، بل ازدادوا بركة على بركة، وخيرا جديدا إلى خير قديم، ذلك فضل الله، والله ذو الفضل العظيم.

ولما تمهدت الخلافة ببركة مولانا المظفر، ولبست حلي زينتها وحلاها وأشرق نور جمالها في مطالع علاها، ورجع مولانا نصره الله إلى حضرة مراكش، وذلك عام تسعة وسبعين ومائتين وألف أنشدته في المولد الشريف على العادة الماضية هذه الدالية :

حنانيك إن الشوق قد بلغ المدا ... أما ترحم المضنى الكئيب المسهدا
ورحماك إن المستهام من النوى ... له حالة سوأى ترق لها العدا
فلا تسأل الولهان عما أصابه ... وسل حاله إن شئت عنه فتشهدا
تقاضته دينا كن حاكمة به ... لواحظ ظبي مر أحور أغيدا
هو الصب لا تزداد لوعة حبه ... إذا حاول الإطفاء إلا توقدا
فما تركت فيه الصبابة والهوى ... على حمل أعباء الغرام تجلدا
وكم عاث في أهل الغرام هيامهم ... وحرق أحشاء ومزق أكبدا
وكم سلب الحب الرجال عقولهم ... وحب الفتى يعميه عن سبل الهدى
فلا تعجبوا من عبرة قد سفحتها ... على زمن بالجزع قد كان مسعدا
فيا حسن ذاك العهد يا طيب ذكره ... سقاه الغمام الجود غيثا مرددا
ولله عيش بالحمى سمحت به ... ليال ملاح ما ألذ وأرغدا
ليال تولى السعد حسن طلوعها ... فكانت كما نهواه يمنا وأسعدا
ليال بها قد أرغم الله كاشحا ... وأحزن حسادا وأنكى وأكمدا
إذا ذكرت نفسي هنالك جيرة ... أهاج لها وجدا مقيما ومقعدا
وكم غرد القمري في خوط أيكة ... فجاوبت ذياك الحمام المغردا
وقلت كفاك الله ما أنت حاذر ... وبوئت في الأدواح وكرا ممهدا
فإنك قد اذكرتني زمنا مضى ... به ضرب الأفراح للهو موعدا
نديربظل السرح كأس مسرة ... إذا بلى الإيناس فيه تجددا
على أن ما قد فات ليس بعائد ... ولا يدني بالوهم ما كان أبعدا

فأمـا وقـد زم الركـاب ويممـوا زيارة خيـر الإنـس والجن أحمدا
فقد شاقني من نحو طيبة بارق ينسي مشوق الروح ما قد تعـودا
وأزعجني حادي المَطيّ وقد شدا وردد خلف العيس هيمنة الحـدا
رويدك يا حادي المَطايا فإنني أنادي رسول الله أسمعه النـدا
ألا يا رسول الله دعوة قاطـن تخلـف خلـف الظاعنين وأفـردا
ولا عـذر إلا الضعـف منه فإنـه تقمص فضفاضا من العجز وارتـدى
وأوثقـه جـور الزمـان وأهلـه فيشكوك من دهر عليه قد اعتدى
ومن نفسه يا حجة الله يشتكي فتلك التي ألقته في هوة الردى
بجاهك يدعـو الله مالـك أمـره يخلصـه مما بـه قـد تقيـدا
فليس لـه يابن العواتك ملجأ سواك ولا يرجـو بغيـرك مقصدا
فإنـك قـد حـزت المحامـد كلها وأنـت لمرتـاد النـدى لجـة النـدى
عليـك لـواء الحمـد ينشـر آدم فمن دونه في ظل منشوره غدا
إذا جمـع اللـه الخلائـق كلهـم دعيت لمن في ذلك الجمع سيـدا
وكنت شفيعا فيهم ولبسـت من حلى الحمد ما يزداد عـزا وسـؤددا
سموت إلى أعلى الطباق وجزتها وخلفت جبريل الأمـين المؤيـدا
وذلك في وهن قليـل من الدجـا وجئت بأنوار الهدى لمن اهتـدى
وأطلعت شمس الحق من أفق العـلا وفتحـت بابـا للسعـادة موصـدا
وأنذرتنـا من نـار كـل شقـاوة وبشرت من أضحى حنيفـا موحـدا
وغيضت بحرا للضلالة قد طغـى على أهله حتى استجاش وأزبـدا
وغادرت عين الشرك تبكي دماءها على من بغى من أهلـه وتمـردا
وبددت في بدر رءوس كمَاتهـم فصـارت لقى عند القليب مقددا
وأحزنت في الأحزاب صخرين حربهم وأرجعتـه يجتـر خزيـا مخلـدا
وحكمت فيهم كـل أسمـر ذابـل وكـل حسـام كالشـواظ مهنـدا
يصول بها من هاجروا ثم جاهـدوا ومن نصروا الدين القويم المسددا
هم الملأ العالون في حضرة الرضـا وهم أسسوا هذا البنـاء المشيـدا
وهم بذلوا في طاعة الله أنفسـا مطهـرة تبغـي الثـواب المؤبـدا
وما زلت يـا روح العوالـم فيهـم إلى أن محوت الشرك محوا مسرمدا
وجاءك نصر الله والفتـح وارتضـى لك الله في أعلى الفراديس مقعدا
وصرت إلى الرضوان حيا لتبتنـي لنا في جـوار الحـق عـزا ممهـدا
وخلفت فينا الذكـر والآل حاكمـا فآلك والذكر الحكيم لنـا هـدى
هما الثقـلان بـارك اللـه فيهمـا وخـص أمـيـر المؤمنين محمـدا

خليفتك المأمون نجل خلائف — أجل ملوك الأرض فخرا ومحتدا
من الذروة العلياء من آل هاشم — وآل هشام ما أجل وأمجدا
هو الملك الحامي الذمار ومن له — روينا حديثا في الأصالة مسندا
كسا دولة الأشراف عزا وزادها — وأصلح ما أوهى الزمان وجددا
وجالد عباد الصليب فأذعنوا — لعزته تحت الضراعة أعبدا
وعدد أمثال الأسود عساكرا — تخر لها الأسد الضراغم سجدا
وتهتز منها الأرض عند ركوبها — وترجف أطواد الجبال تميدا
وتحسب أن الجو نار تأججت — يضج لها باغي الفساد مشردا
وتخفق ريح النصر بين بنودها — على غرة المنصور أكرم من غدا
على الملك الجحجاح أبهى متوج — تبختر واقتاد الخميس المجندا
وأعلى ملوك العالمين مآثرا — وأطهرهم قلبا وأطولهم يدا
وأكثرهم رجحان عقل وحكمة — وأعذبهم في مشرع العلم موردا
وأوضحهم برهان مجد ومفخر — وأوثقهم بنيان عز ومصعدا
قضى الله تعنوا الناس طرا لأمره — وتنقاد إجلالا له وتوددا
فما زال يوليهم عواطف بره — ويصفح عن ذنب المسيء إذا بدا
وبالعدل والإحسان ما زال آمرا — إيالته الغراء أمرا مؤكدا
به حييت أرض المغارب وازدهت — وأضحت لهم أهل المشارق حسدا
هنيا لنا قد أسعد الله أرضنا — بملك همام في العلا قد توحدا
بأبهر من بدر التمام جلالة — وأسمح من فيض الغمام وأجودا
يقيم لنا في كل عام مواسما — مباركة فطرا وأضحى ومولدا
يفيض علينا من سحائب جوده — مواهب، لاتنفك نفسي لها الفدا
ونهدي له حر المدائح جوهرا — فيمنحنا بالفضل تبرا منضدا
فلازال بالعمر الطويل ممتعا — ولازال منصور اللواء مؤيدا
ولابرح الأعياد يشرق نورها — بغرته إن راح يوما أو اغتدى

ومن فضائل مولانا المظفر نصره الله، التي ماسبقه إليها أحد قبله في هذه الدولة الشريفة اتخاذ العسكر على الهيأة المبتكرة المحمودة المعتمدة، عند جميع الدول اليوم في أقطار الأرضين، ويقال لها عند المشارقة النظام، ولم تكن عندنا بهذه الدولة فاستحسنها مولانا نصره الله فاقترحها على والده المؤيد رحمه الله فأذن في اتخاذه، فلم يزل مولانا المظفر نصره الله يزيد فيه ويبالغ في تقويته وإصلاح أموره وإقامة أوده وإعلاء شأنه مع

كون أهل الدولة قد ثقل عليهم ذلك غاية، ونفرت طباعهم منه لأمور منها: أنهم لم يعهدوه، ومنها أنهم لم يتوقفوا عليه لأنهم لم يحاربوا ولم يباشروا المصافة به حتى تظهر لهم مزيته، ويعلموا أنه لا تمكن الغلبة بدونه اليوم لمن قابلهم به لأن المغالبة هي مقابلة الشيء بمثله، وإذا انتفت المماثلة فلا مغالبة، هذا بعض الأسباب التي أوجبت كراهيته لمن كرهه، وهنالك أسباب أخر لا يقتضي المقام ذكرها، ومولانا نصره الله لما أطلعه الله على حقيقة الحال لم يزل جادا في إغاظة من خالف في ذلك حتى قعد قواعده، ورفع بناءه على أساس وثيق، وذلك في راية والده المؤيد رحمه الله، وأحرى اليوم في هذه الراية العالية فإن عنايته به في غاية الازدياد، الخارق للاعتياد، ولا أظنها تقف عند عدد مألوف، دون المئين من الألوف، أيد الله هذا الدين بتأييد مولانا وعزته، وأمده بباهر قدرته، وجعل من أنصاره أرواح الكواكب العلوية، تقدمه السعادة بمنصور الألوية.

ومن علو همة مولانا المظفر نصره الله أنه ما سمع بخصلة من الخصال، إلا وجه إليها سوابق الاستحصال، حتى تستقر بين يديه، وتلقي جرانها لديه، فصارت أجناس النصارى تتحفه بكل غريب الشكل مما استنبطوه، ولا يرده غالي الأثمان إذا شرطوه، فكانت حضرته العاليه من أجل ذلك مظهر العجائب، ومنال الفوائد والرغائب.

من ذلك الآلة التي يعصر بها السكر ويعقد، حتى يوجد في كل حين ولايفقد، ويغنى عن جلبه من أقاصي البلدان، لما أجرى الله العادة اليوم باستعماله في سائر الأوقات لاستصلاح الأبدان، فأراد مولانا نصره الله أن يكفي الناس مئونة اجتلابه، ورأى نصره الله أن هذه البلاد لكثرة مرافقها دون غيرها من الآفاق أولى به، فأمر بغرس القصب الحلو واستنباته، وتهيئه المزارع الطيبة واختيار أطيب أوقاته، ووجه على من يحسن أعمال إخراجه من القوة إلى الفعل، بغاية ما يطلب من الإجارة أو الجعل، فجاء من النصارى كثير من العملة، الذين زعموا أنهم يحسنون عمله، فذكروا أنه لابد لذلك من محل مخصوص، وبناء هائل مرصوص، فأمر نصره الله بالبناء في أخريات أگدال، على ما وصف أولئك الأنذال، فأنفق على ذلك أموالا كثيرة العدد، في زمان طويل المدد، ووجه على ما يتوقف عليه من

الأواني العجيبة، والآلات الغريبة فجاءت من بر النصارى، ولم يرتكب في ذلك تقريبا ولا اختصارا، فكمل ذلك كله على أكمل الوجوه، كما يأمله الآمل ويرجوه، ثم إن أولئك المباشرين من الأروام توقفوا في أثناء العمل عن الإتمام، ولعلهم إنما كانوا من جملة العوام، فبعث مولانا نصره الله على الصناع المهرة، فجاءوا من مصر القاهرة.

ومن ذلك قنطرة من الحديد، مما أحدثه حكماء النصارى في هذا الزمان الجديد، من عجائب القدرة، ولا يقدر أحد قدره، كان مولانا المظفر نصره الله أراد أن ينصبها علي وادي أم الربيع للجواز عليها في أوان السيول، وترادف الأمطار، وكان المأمور بالوقوف على اصطناعها وعلى جلبها من بر النصارى هو التاجر ولد مصطفى الرباطي، وقد صير عليها من الأموال الثقيلة ما يبهر سماعه، وما لا يمكن غير الملوك العظام أن تبلغه أطماعه، فلما جاء بها على أكمل الحالات وأتقنها، حسده بعض من له الوجاهة على ما قيل، فزيفوا ما جاء به عند السلطان نصره الله، وقالوا إنها لاتصلح ولا تناسب، وإنها يختل نظامها في أقرب مدة، ثم إن مولانا المظفر عزم على بناء القنطرة على المحل المذكور بناء أزليا، هائلا أبديا، فأمر من زعم أنه يحسن النظر في ذلك فوجهه يختار المحل الذي يصلح لذلك، ويهيئ ما تدعو إليه الحاجة من الاقامة والحجارة، ويقدر كم يكفي من ذلك ويرفع ذلك إلى حضرة مولانا، فيأمر بترتيب كل ما يحتاج إليه حتى يكمل الغرض، وكان ذلك الموجه كاذبا فيما زعم من حسن النظر، فشرع على ما قيل في الحفر بلا تأويل ولا تمهيد ولاترتيب، فظهر سوء نظره في الحين، وكان الناس يودون أن لو تم ذلك، وليته ساعدت الأقدار في وجوده، فإنه من الآثار الباقي نفعها، التي تحصل منها الفائدة العظمى للملكة، وقد كانت في القديم فيما يحكى عند أبي العوان، وكانت هنالك قصبة عامرة لأجل حراسة ذلك المجاز، باقية في أيام مولانا إسماعيل، ويقيت إلى أيام مولانا عبد الله كما تقدم ذلك في أخبار رايتيهما، ولعل الله تعالى يوفق مولانا المظفر نصره الله لبنائها ويعينه عليه، ويوجه عنايته إليه، ويجعل في ذلك خيرا عاما للمسلمين.

ومن ذلك أيضا الرحى التي جاء بها مولانا نصره الله إلى ثغر

طنجة، فإن الحديث عنها من الأعاجيب، ويذكر أنها تطحن في ليلة واحدة عددا كثيرا من الأوسق.

ومن ذلك أيضا برج الفنار الذي بناه مولانا نصره الله على ساحل البحر في المسافة التي بين طنجة وأصيلة، يوقد فيه الضوء الذي يظهر للسيارة في البحر ليلا من المسافة البعيدة، وذكروا أنه يوقد فيه من الزيت في كل ليلة شيء كثير، قيل إنه كان في الزمن القديم وأحياه مولانا نصره الله وأنفق عليه آلافا مؤلفة من الريال، تقبل الله من سيدنا حسناته، ورفع بذلك في معارج القبول درجاته.

ومما تقرر في هذه الدولة الشريفة وفيما قبلها من الدول المغربية فيما بلغنا قراءة السلطان صحيح البخاري في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان حتى صار ذلك أمرا لازما لا يتخلف إلا لمانع لا يمكن رفعه، وكان مولانا المظفر نصره الله جاريا على ذلك السنن القويم حتى في أيام خلافته عن والده المؤيد، وكنت أرفع إليه في كل ختمة من ختماته على العادة قصيدة يستدعيها المقام ويقتضيها، ويستحسنها كل سامع ويرتضيها، ولم يحضرني الآن أكثرها، ومما رفعت إلى حضرته عند الختم في السنة التي رجع فيها من حرب ولد محيي الدين غير النونية المتقدم ذكرها، فإن تلك إنما هي تهنئة بمرجعه، وهذه في الختم عند حضور مجمعه، وأشرت فيها إلى ظفره بالعدو المذكور بإشارة بعض من طلب ذلك مني، وهي هذه :

ألا حي آثـــار الحبيـــب وداره ... ولا تله عـن حـال الرقيـب وداره
وحدث عن الحي الحلول بعالـج ... يغاديهـم وهنـــا شميـم عــراره
فللـــه، آثـــار أثـــارت غرامنــا ... وربع يذيب القلب عند اذكـاره
تقاضته عهد الحب وهي سواكب ... محاجر أدماهـا بسـوء اندثـاره
معطلـــة أطلالـــه لعبـت بهـــا ... صـروف زمـان لا يقـام بثـاره
فيا صاحبي والصب ليس لدائه ... دواء يقيـه مـن وغـول بحـاره
يلذ له في الحب أن قيل إنـه ... صريـع حميـاه عقيـر عقـاره
فلا تحسبـن الحب عارا لمبتلـى ... فذاك الذي يرضى الغـرام بعـاره
ولاتحسبـن الشـوق منـي لمربـع ... دريـس يحـار السفـر بين قفـاره
ولا أن تهيـام الفـؤاد لمنـزل ... وروض يسلي الشجو شدو هزاره

أيجعل للكفار من قلة الحيا — عليه سبيلا طائعا غير كاره
ولو أسرته الخيل وهو مقارع — لادرك فخرا طائلا بإساره
فتبا له في ذمة الخزي جاثيا — معنى يداني خطوه في حظاره
وتبا لمن يمشي فتضحك إن مشى — أصيبية الخزيان عند عشاره
جزى الله مولانا الأمير محمدا — بكل جميل قائما بانتصاره
كفى ملة الإسلام كل ملمة — وكل عدو يختشى من ضراره
وكل غوي هائم في ضلالة — وكل سفيه فاتن بحذاره
فيا أيها القرم الذي قد بنى لنا — من العز سورا عاليا باقتداره
لك الفخر لا ما تدعيه من العلا — قياصرة نالته دون احتقاره
لك الشرف المرفوع عند كنانة — وعند معد راسخا في نزاره
تركت بهذا الفتح كل مملك — قرين حياء لائذا باعتذاره
وأرضيت مولانا أباك بنيله — فأرضاك ما بين الورى باختياره
فأنت إذن أولى بكل فخامة — وكل العلا قد حزته بابتداره
ومجلسك العالي عروس مجالس — وهذا نظام الدر بعض انتشاره
فلا زلت مكلؤ الجناب مهنئاً — ودهرك طوع خادم بائتماره
تقابلك الأعياد منه بمنظر — ومبتسم يبدى جميل افتراره

وكان مولانا المظفر نصره الله لما ورد عليه الخبر باشتداد المرض على السلطان والده خرج من مراكش وخلف أخاه الأبر الأجل الأكرم المفضال، ذا الأخلاق العاطرة التي يحسدها الروض الآنف المخضال، أبا الحسن مولانا علي حفظه الله، فباشر الأوامر والنواهي، مباشرة العقلاء الدواهي، وكان لا يقطع أمراً قليلا أو كثيرا إلا بعد مشاورة مولانا نصره الله، وكان يعالج ما يضايق به الزمان بسعة أخلاقه، ويقابل كل ما يتعسر باستفتاح اغلاقه، حتى تملك القلوب بلين الجانب وخفض الجناح، وتسهيل المشاق ورفع الجناح، ولولا ذلك لاحترق الحوز كله بما استوقده الرحامنة الصحراويون من نيران الفتون، وانصبابها كالمطر الهتون، فإنهم عمدوا إلى سوق الخميس بمراكش فنهبوه، وكل من ظفروا به خارجا أو داخلا سلبوه، فانقطعت السبل برهة من الزمان، لعموم المخافة وعدم الأمان، وارتفعت الأسعار، وأكل ما استعد بالادخار، وقطع ما حول الأسوار من الأشجار واحتطب، وحصد الزرع

وصار يخوض الهول بين عجاجة ... تشابه فيها ليله من نهاره
يسير بجند ينسف الأكم غائرا ... ويذهل من آساده وغماره
يسير بريح النصر في لجج الوغى ... كما سار فلك في هبوب شواره
ويغني عن الشمس المنيرة وجهه ... إذا ما دجى وقت الضحى من غباره
له الحرب أهنى من مسالمة العدى ... إذا استوخم الأقران خوض غماره
له في ظهور الصافنات مجالس ... لعمرك أشهى من مقاصير داره
ومسح لأعراف السوابق عنده ... مهين لمسح الخز عند اعتجاره
له الرعب جند حائط من جهاته ... مسيرة شهر من تراث نجاره(11)
إذا ما نوى إتيان قوم بغارة ... أتاه الذي ينوي رهين ضفاره(12)
وإن كان يبغي غزوة لمعاشر ... فليس لمن يبغيه غير فراره
كما فر عبد القادر الغمر خاسئا ... على عقبيه خائفا من غراره
له الويل لو نالته حينا سعادة ... وتاب إليه نال حسن اغتفاره
ولكنه قد راعه من حماته ... مصاب فكل واقع في دماره
وكان أمير المؤمنين سقاه من ... تفضله من تبره ونقاره
سقاه يظن العود من فرع كرمة ... وغرس لذيذ المجتنى من ثماره
إذا أنه لا ظل فيه ولا جنى ... ولكنه مستوقد لجماره
على أنه لو كان فيه فطانة ... لما أمن الضرغام حين اكتشاره
هو الجاهل المغرور قد نزلت به ... وخامة ما أعطاه سوء اغتراره
يظن طلاب الملك أكلة جائع ... ويحسب أن الغرب مثل قراره
ويحسب أسد الغرب في الحرب مثلما ... تعاوى من الذؤبان حول دياره
فلولاه ما صارت جسوم أناسه ... مطاعم طير في فناء وجاره
أصابهم ما قد أصاب بشؤمه ... كحي ثمود باجتراح قداره
أصابهم ما قد جنى بجهالة ... وكم من مصاب من جناية جاره
وكم حافر للغير بئرا فخر في ... غيابات ذاك الحفر بعد احتفاره
أسائله بالله يوم انحيازه ... إلى دار كفر في لباس صغاره
أكان مفيقا حين ذاك من الكرى ... فريد(13) به أوطافحا في خماره

---

(11) يشير الى قوله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب الخ...
(12) في الأصل ضفان بالضاد وكتب عليه مؤلفه ضفار كسحاب الحبل، وفي (م) و (ف) ظفان بالمشالة وفي ·ش صفان).
(13) في (ف) غريق.

في دار ابن عودة وقتله بلا دفاع ولا معارض، حتى إن الذين جاءوا لقتاله ما تجرأ أحد على القرب منه، ولا نصح في شأنه، فلما دخل لزيارة مولانا إدريس وكان هناك أبطال من الشرفاء العلويين، ومن زرارة والشبانات فشدوا عليه الأبواب وحصروه في مشربة من الحرم فقتلوه وحزوا رأسه ويديه ووجهوا ذلك لمولانا السلطان نصره الله، ووجه ذلك لحضرة مراكش وبذلك انطفأ بعض نيران الحوز بحمد الله تعالى.

وقد كان حدث في أثناء ذلك بالقلعة ببلاد الصراغنة حادث فظيع من نمط ما قبله، وذلك أن محمدا ولد أحمد بن القائد كان ذهب لفاس صحبة مولانا المظفر نصره الله، فجاء وأظهر أنه جاء بأوامر السلطان، فجمع جماعة من أهل الفساد مثله فدخل على العامل عمه الرجل الصالح الحاج محمد العبوبي، وهو غافل آمن فقبضه وقيده وقال للناس : إن السلطان أمرني بذلك، وقد قيد أخي العربي، وهو قادم في أثرى بأمر السلطان، فأمر في الحين بمرس زرع المخزن ففتحه وجعل يبيع ويقبض الأموال الثقيلة التي لا يعلم قدرها، ويعطي أهل الفساد من أتباعه بلا قياس ولا عد فتبعه الغوغاء، وأنفد الخليفة مولانا علي جميع الحيل في تسريح العامل العبوبي من ثقافه مدة مديدة حتى وجه مولانا نصره الله حاجبه الفقيه السيد عبد الله بن أحمد فسرحه بنوع من الاحتيال، وذلك الفاجر مصر على ما هو عليه من الغي والطغيان حتى أفرغ ذلك المرس الذي كان يقال إنه لو انقطع الزرع من المغرب لكان يكفي أهله هذا المرس، فاستهلكه ذلك الفاسد في مدة قريبة بلا فائدة ولا طائل، مع ما أخذ من متاع دار العبوبي وذخائره وأمتعته وخيله وبهائمه وأنعامه، وكل ذلك ذهب في الحين كما يذهب الدخان، ولم تزل مراكش في شدة الهول والغلاء من أجل فساد الرحامنة، وفسادهم هو أصل فساد الحوز كله، لا الصراغنة ولا غيرهم، ولولا أنهم تجرأوا على الحضرة المراكشية ما تجرأ أحد عليها.

فلما فرغ مولانا المظفر من استصلاح الغرب واخماد نار الفتن الثائرة فيه توجه لحضرة مراكش فلما قرب منها جمع الرحامنة قضهم وقضيضهم، وعزموا على محاربة السلطان جهارا، وظنوا أنهم مانعتهم كثرتهم من الله، فانحازوا كلهم إلى ناحية زاوية ابن ساسي والودان والرميلة ليحولوا بين

المدرك في إبانه لغير زراعه واغتصب، واشتد الحصار، وتخادل الأعوان والأنصار، والخليفة المذكور يدافع مزيد شرورهم بالاحسان، وحسن الخلق وحلاوة اللسان، ومولانا المظفر نصره الله بحضرة فاس، في نحر العدو الكافر وتقوية العساكر المقابلين لهم بالسواحل، وكان جهاد هؤلاء الذين هم في باب الدار أولى من الذين تعمل إليهم الرواحل.

وفي خلال ذلك وقرب انفصال قضية النصارى ظهرت فتنة أخرى بالغرب في سفيان وبني مالك، وذلك أن رجلا أخرق منهم معتوها يقال له الجلالي الروكي كان قبل ذلك مسخرة لكل أحد، لازمه جماعة من الشياطين، وجعلوا ينسبون إليه الخوارق، وزعموا أنه يخبرهم بالمغيبات، فتقع كما أخبر، وصوروا من ذلك صوراً غريبة استغووا بها العامة، وجعل أمره يزداد كل حين، وكثر عليه الناس كثرة فادحة، والسلطان فيما ذكرنا من الاشتغال بأمر الكفار وانبرام ما أشرنا إليه من المهادنة، فلم يشعر أحد بأمر ذلك المعتوه والشياطين الذين نصبوه حتى أضرموا الغرب نارا تتأجج، باضعف من نسج العنكبوت من الحجج، وسبب ذلك الظهور أن أولئك الشياطين زحفوا بتلك الجموع إلى دار عاملهم الطالب الغر النزيه السيد عبد الكريم بن عودة، وكان على قرب من ولايته وقتل أبيه في جهاد النصارى وقبل استحكام حاله، وهذا هو الذي أطمع فيه أولئك الفساد، ورصدوه حتى لم يبق معه في الدار من عبيده وأنصاره وإخوانه إلا القليل، فجاءت تلك الغوغاء المتكاثرة فجأة وأحاطوا به ودخلوا عليه فقتلوه ونهبوا الدار وكانت ممتلئة بالخيرات من الأموال والكساوى والأمتعة والأنعام والخيل والعدة، فأخذوا جميع ذلك وفرقوه على أتباعهم من أهل الفساد، وقوى بذلك أمرهم في ساعة واحدة، وحصلت لهم عصبية تامة لا تقدر قبيلة يتوجهون إليها على دفعهم، فأمر مولانا المظفر نصره الله جميع القبائل المجاورة لهم من العرب والبربر بمحاربتهم، وأمر أخاه الأبر الهمام البطل قدوة الكرام أبا السعادة مولانا الرشيد بالخروج في العساكر إليهم، فخرج في الحين مسارعا، فأوردهم من الردى مصارعا، بعد حروب كانت لشيوخ الفتن مضاجعا، ولأطفالها مراضعا، فلما أراد الله سبحانه الانتقام منهم، ذهب قاصدا نحو مكناس، وقال لهم : نقدم زيارة مولانا إدريس وبعد ذلك ندخل مكناس، وفي الحقيقة قد دخل الناس الدهش منه لما وقع له ما وقع

تحن حنين النِّيب شوقا لسالف ومطلب ما قد فات صفقة خسران
لعمرك ما يجديَ على متذكر حنين لأحيان مضين وأزمان
وقد كان أشفى للغرام قلائص تسام بمرعى من عرار وسعدان
تسود بسودان مناخا وتشتهي شميم شمام واعتسافا بعسفان
ومسرى لنجد والأباطح والنقا وملتزم عند الحطيم وأركان
ويحدو بها الحادي إلى شعب هاشم بمكة لا شعب مضاف لبوان
فما لي مُنًى إلا منّي وإنابتي لياليها أدعو برحمة رحمان
فكم عندها تمنى دمَاء وأدمع وكم من ضجيج للحجيج وإرنان
وكم بمحاني الجزع بين ربوعها تجاذب ظل الأيك ارام غزلان
هناك بذاك الشعب قد كان مولد به بشر الأرسال في كل ما آن
وشاد به إنجيل عيسى بن مريم كما شاد توراة لموسى بن عمران
بمولد محبوب الإله ومن له ومن أجله تكوين سائر أكوان
بمولد خير المرسلين محمد نبي له قد زخرفت دار رضوان
بمولد من حاز السيادة كلها على كل خلق الله متنى ووحدان
إذا جمع الله العباد بموقف وطافت بهم إذ ذاك أمواج نيران
ولاذ به الأشهاد قال أنا لها وقال جميع الرسل نفسي وجثماني
مهاجره في طيبة بمراغم كثير لأنصار على الحق أعوان
صناديد من أبناء قيلة منهم معاذ وعباد وبشر وسعدان
تخوض غمار الموت منهم غطارف كأنهم في الروع آساد خفان
هنالك غيث الوحي حل نطاقه فأفعم أحشاء القلوب بإيمان
هنالك دين الحق أقبل نوره وأدبر دين الإفك عباد أوثان
مواطن خير الرسل مسكن أهله ومضجعه عند انتقال من الفاني
فتربته قد أجمع الناس أنها أجل من العرش العظيم بإيقان
فكم خطر الروح الأمين خلالها وكم دارس المختار فيها لفرقان
وكم جاءها مستلئما متقنعا فزلزل بالأحزاب أحزاب شيطان
فأعظم بجاه المصطفى وبقدره وأكرم بمبعوث إلى الإنس والجان
ومن كان جبريل الأمين ملازما لخدمته في السر منه وإعلان
خلاصة سر الكون منبع نوره سعادة مشقو هداية حيران
هو القلم الأعلى الذي كتبت به كوائن ملك الله في كل ديوان
فيا آدم الأرواح يا بذرة النهى ويا علة الكونين يا عين أعيان
صدعت بأمر الله وحدك واثقا بمولاك لا واهي الفؤاد ولاوان
وجالدت أهل الجاهلية بالظبى وجادلتهم فاستعتبوا بعد عصيان

مولانا نصره الله وبين دخوله لمراكش، فلم يبال بهم ولا أخذ لهم أهبة، بل هجم عليهم ونزل بهم نزول الصاعقة، والداهية الطارقة، والمصيبة العامة الدافقة، فلم يمض إلا ساعة من نهار حتى سيقوا إلى مراكش مقرنين في الحبال، والسلاسل والأكبال، حتى ضاقت بهم السجون، ولولا أن مولانا نصره الله أمر الجنود أن لايقتلوهم ما كانوا من الاستئصال ينجون، ولا بقيت لهم باقية، ولا وقتهم واقية، ومولانا نصره الله راعى فيهم عهد الأسلاف، ونظر نظر الرحمة الى أكثرهم الضعفاء الخارجين من دائرة الخلاف، فأقال لهم هذه العثرة، فلم يرق من دمهم قطرة، وهذا من حلمه الذي هو أخص أوصافه، على أنه لا يلام لو تظاهر بالانتقام من الظلمة على انتصافه، وقد شرط عليهم مولانا نصره الله رد المظالم التي ظلموها، وغرم الأموال التي أتلفوها وأكلوها، فأدوا بعضا من ذلك وأكل العمال جله، وان شئت فقل كله، وغاية ما عاقبهم به مولانا نصره الله انتزاع البلاد الثلاثة التي لايقدر على انتزاعها منهم الا الله تبارك وتعالى، وهي بلاد الودان وبلاد آيت سعادة، وبلاد أغواطم، وهذه البلاد من نعم الله التي أغنتهم وأطغتهم، وبها كانوا يضادون قبائل أهل سوس الحوزية، (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين) لما كانوا عن الحق لا هين، وعن الباطل غير متناهين، نعوذ بالله من سلب النعم، وفجأه النقم.

ولما حل مولانا نصره الله حضرته المراكشية حلول الشارق أسعد أبراجه، وتصاعده الى أعلا أدراجه. وحضر عيد المولد الشريف المبارك المنيف رفعت إلى حضرته العالية، على العادة الماضية، هذه القصيدة وأشرت فيها إلى ما أسلفت شرحه، وجلوت صبحه، وهي هذه :

تذكر أزمان مضين وأحيان	قضيت بها دين الشبيبة أحياني
زمانا حباني فيه شرخ شبيبتي	مناي فأعطاني ففَيَّضَ أعطاني
أجر به ذيل الشباب وأرتدي	بأسمح من فرع الذوائب فينان
وألبسني ريعانه كل ملبس	بهي وأوطاني مآلف أوطاني
إذا ذكرته النفس يوما ترنحت	ترنُّح مرتج المعاطف نشوان
سقى الله هاتيك الليالي وأهلها	وبواهم أفياء روح وريحان
رويدك إن القلب لج به الهوى	وما في سراب من شراب للهفان

له همم دراكة وعزائم ... تفوت مباغيها مطالع كيوان
أعد عتادا للعدا بعساكر ... مسومة ركبان خيل ورجلان
ليوث افتراس كلما زأرت على ... ديار أناس زارها كل أحزان
فوارس تغتال النفوس كأنها ... إذا صبحت أرضا عصائب عقبان
ترابها كمثل السيل يخسف تحتها ... تراها وترمي كالأثير بشهبان
تصول بأسياف تحيض ذكورها ... وتسطوا بأرماح كأنياب ثعبان
وتنشر رايات تنوش ذيولها ... رياح سعود من رخاء سليمان
إذا اضطربت في الجو قال هبوبها ... ألا إن نصر الله والفتح وافاني
أيا ابن الملوك الأكرمين ومن بنوا ... مباني العلا والمجد أرفع بنيان
ويا ابن هشام والهمام الذي به ... يهان مسماه من أبناء مروان
لك العز لا ما تدعيه قياصر ... لك الفخر لا ما تدعي آل ساسان
فقد شاعت الأخبار من غير واحد ... وليس بأفاك وليس بميّان
يقيم دليل الصدق أنك فاطمي ... وأنك مهدي بآلة حسبان
ولا شاهد أجلى وأوضح عندنا ... كقتلك للكذاب كذاب سفيان
ستملأ كل الأرض بالعدل بعدما ... غدت كلها ملأى بجور وعدوان
وتملك من أهرام مصر ونيلها ... إلى الهند أو ما كان خلف خراسان
فمد إلى الاقطار كف تناول ... توافيك طوعا أو تقاد بأرسان
بعزة رب العالمين وحوله ... وقوته والحق ليس ببهتان
فدم للعلا تحيي موات رسومها ... ودرس علوم من حديث وقرآن
تقيم لنا في كل عام موالدا ... مشرفة بالمصطفى خير عدنان
تفيض علينا فيه كفك أنعما ... مدفقة تحكي تدفق خلجان
وتلبسنا من كل خير مطارفا ... طويلة أذيال بسيطة أردان
ولا زالت الأعياد تهدي سرورها ... لحضرتك العليا المعظمة الشان

وجئت بمقبول العقول وأذعنت وقد سعدت واستبشرت كل إذعان
وباهلت بالحق المبين معاندا فأحجم إرهابا كرهبان نجران
سموت إلى السبع الطباق وجزتها إلى حيث لا حدْث سواك ولا ثان
وحيث لأقلام التصاريف والقضا صريف لذيذ سمعهن لآذان
وصليت بالأملاك والرسل كلهم إماما فبان الفضل من غير كتمان
عليك صلاة مثل قدرك تنثني إلى العمرين مع علي وعثمان
ويشمل كل ألآل والصحب بشرها[14] وأزواجك اللاتي حظين برجحان
ألا يا رسول الله جئتك مادحا رجاء ثواب الله عفو وغفران
ألا يا رسول الله جاهك واسع عظيم إذا ما الأمر ضاق وفاجاني
فكن لي شفيعا في القيامة عندما تجلى إله الخلق في حال غضبان
وكن لي مجيرا عند ذاك فلا أرى تطاير صكي أو تقلص ميزاني
وكن لي في دنياي كهفا وموئلا أعوذ به من كل خسف ورجفان
وخذ بيدي خير الملوك إمامنا سليلك أولى الناس منك بإحسان
ومد له أطناب عزك واحمه حماية آباء كرام لولدان
وتوجه تاج النصر وهو مكلل بكل قبول من علاك ورضوان
وأيده تأييدا مبينا وكن له معينا فلا يحتاج يوما لأعوان
فقد قام بالدين الحنيف مجاهدا عداك ومن يعزى لكفر وعدوان
وشتت شمل المفسدين من الورى فليس يرى كاسيهم غير عريان
ومزقهم في الأرض كل ممزق وغادر أرواحا لهم دون أبدان
بعز أمير المؤمنين محمد ينادي إذا ضاق الفضا كل لهفان
بعز أمير المؤمنين محمد نلوذ فلا نخشى إخافة خوان
بجود أمير المؤمنين محمد نقابل إمساك السماء لأمزان
فدولته كالروض طيبا ومنظرا تمايح دوح أو تفاوح ريحان
وأيامه تفتر عن ثغر باسم وتسفر عن وجه كأزهار بستان
لقد أينعت آمال كل مؤمل لديها ونال المبتغى كل إنسان
ودولته زادت بهاء وبهجة على ما عداها من ممالك عمران
بها رفعت للملك أقوى دعائم بها أظهر الإسلام غرة جذلان
بها أمن الله البلاد من الردى فلم يخش قاص من مخاف ولا دان
هنيئا لنا أهل المغارب إننا نفاخر من يبغي الفخار بسلطان
فمالكنا سلطان كل متوج إذا ابتهجت يوما ملوك بتيجان
هو الملك المنصور لا شك أنه أجل ملوك الأرض عجم وعربان

---

(14) في (م) نشرها بالنون.

محمد بن محمد

صلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه

محبنا الأرضى الأود الشيخ الفقيه العلامة البركة الخير الدين السيد محمد بن احمد اكنسوس حفظك الله
وسلام عليكم ورحمة الله يوجود سيدنا الله وبعد وافانا كتابك وكان أعجب ما افاده نالي بعد التهنئة به
حسن دعايك لنا ونشرك ابدا لنا بان هذه الحلة السعيدة محفوظة مكنونة محروسة مصونة كما دم بالمراد
والنجح آيبة بالسلامة والغنيمة والفتح [illegible]
[illegible]
وان ولدك البارك ابنك الطالب عبد الله اكلمه الله كاتبك ابقاك بمن اغتبط بابنه وانت عافاك الله على
حالة من الضعف والهرم تحتاج الاحسان والتفضل بعوايد الكرم أمـــا ما عاق لنا بهور الانام
النفس مالم نرده وانفع ما انا املناه وذالك الضريح والله يتعهد انا النعل قديما وحديثا ونفعك وامـــا
الشيء حفظها الله فذلك بعون الله وبركتكم وانفع ماله من دافع وأمـــا الحرث الرئيسي فانه كلفنا به العامل جزما
والنية له جماعة وحرسه ونفلده وامكانه الدار حتما فيما افتى ختمه وأمـــا ما كتبه الولد البار
بلغه مرغوبه في الاخبار وانه عندنا من المصطفين الاخيار وامـــا ما انت عليه مما اشرت اليه فتالله
انا نسقي بينا انا عليك حمانا وحبا وودنا الوان بيننا الشمل ووجب عليكم [illegible] الكريم
المسؤول تعجيل [illegible] واراحة [illegible] 1000 [illegible] ما بين مثقال
إكراما منا وهدية والقبول من شيم امثالك [illegible] ولا تنسنا من صالح دعائك كل حين
وانت والحمد لله من جملة العلماء [illegible] على المحبة والسلام 74 ربيع [illegible]

وفي هذا العام وجه مولانا نصره الله ولده الأبر، وخليفته الأسعد الأغر، مولانا الحسن(*)، الذي أنبه كل المحاسن من الوسن، وقاد جميع المحامد برسن، للقطر السوسي بالعساكر والجنود، والأولوية المنصورة والبنود، بعد رجوعه من حركته المباركة التي هي له طالعة الفتح، ومقدمة الربح، وهي التي ابتدأ بها أعماله، وخبر بها مولانا نصره الله مأمَّ سعده فاستبان كماله، وذلك في توجيهه إلى القبائل الجبالية المتكاثرة مثل هنتيفة وأعتاب وولتانة ومن انضاف إليهم من البرابر ومن جاورهم من أعراب الصراغنة وبني مسكين وغيرهم، فإنهم قد انتشر نظامهم بما غشيهم من نيران الفتن التي أضرمها أولاد أحمد بن القائد كما قدمنا، فأصلح مولانا الخليفة المذكور جميع ذلك ومهده، وأخمد نيرانه وسدده، وفرحت تلك القبائل كلها بوروده، وأذعنوا للحق بلا مشقة ولا كبير عمل ولا حرب ولا ضرب، ورجع مؤيدا منصور اللواء، وظهرت لمولانا نصره الله أمارة نجابَته وسعادته، فلما توجه لسوس وجده على أشد ما يكون من المنعة كما هو

(*) وعلم هامش ذكر الخليفة المولى الحسن اذكر هنا ظهيرين شريفين يدلان على العلاقة بين مؤلف الجيش ومولانا الحسن قدس سره وكانت العلاقة شديدة الى ان كان مولانا الحسن يزور الفقيه في داره حسب ما يفهم من الظهيرين.

الحمد لله وحده

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه

محبنا الأغر الارضي الاود الشيخ الفقيه العلامة البركة الخير الدين السيد محمد بن احمد اكنسوس حفظك الله وسلام عليكم ورحمة الله يوجود سيدنا نصره الله وبعد، والفانا كتابك فكان احب ما أفدناه بعد التبرك به حسن دعائك لنا وبشراك ايانا بأن هذه المحلة السعيدة محفوظة مضمونة محوطة منصورة ظافرة بالمراد والنجح ابية بالسلامة والغنيمة والفتح. وان ولدك البار كاتبنا الطالب عبد الله أصلحه الله كاتبك ءانفا بمزيد اعتنائنا به وانك عافاك الله على حالة من الضعف والهرم توجب الاحسان والتفضل بعوائد الكرم.
اما دعاؤك لنا فهو والله أنفس ما اذخرناه وأنفع ما تأثلناه وذلك الظن فيك والله يشهد انا لنحبك قديما وحديثا ونصطفيك. واما البشرى حققها الله فذاك بحول الله وبركتكم واقع ما له من دافع. واما الحرث الدكالي فانا كلفنا به العامل جزما والزمناه حصاده ودرسه ونقله وأصلا للدار حتما طبق ما اقترحته. واما ما كتبه الولد البار فلقد صدق في الاخبار وانه عندنا لمن المصطفين الأخيار. واما ما أنت عليه مما اشرت اليه فتالله لتأسفنا وتألمنا عليك حنانا وحبا وودونا لوأن بيدنا الشفاء فصببناه عليك صبا، لكن الله سبحانه المسؤل تعجيل شفائك وإزاحة سائر ادوائك بمنه وطوله، آمين، ويوافيك صحبته مائة مثقال اكراما منا وهدية، والقبول من شيم أمثالك شنشنة أخزمية، ولا تنسى من صالح دعائك كل حين فأنت والحمد لله من جلة العلماء الصالحين وعلى المحبة والسلام.

14 ربيع 2 - 1290

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه

مستقر هذا الرقيم الكريم المعهود بالطواسين والحواميم راحة ماسكه الممنوح له كاتبنا الارضي الطالب عبد الله اكنسوس الجمقري يستجلى من مسطور طروسه ويستجنى من جنى غروسه اننا بعون الله خلعنا عليه حلل الامتنان والتوقير وخلعنا عنه ملابس الامتهان والتحقير وحاشيناه من جميع سماة العوام واذنيناه لظلال جانبنا العالي بالله مدى الدوام وحررناه من جميع الوظائف والكلف وأقررناه على ما عهد لمن مضى من سلفه بحيث لا يسأم جانبه سوء ولا هضما ولا يحام حماه خسفا ولا ضيما رعاية لتحليه بالعلم الشريف وملازمته خدمتنا الشريفة منذ نيط به التكليف تحريرا كاملا شاملا يشمل ولده المهدي وأخاه الطالب العربي وصهره المرابط الطالب الزوين وجميع دورهم واملاكهم ومساكنهم ومحالهم وأماكنهم. تأمر كافة عمالنا وولاة أمرنا بتنفيذه وأعماله وعدم رفضه أو إهماله.
صدر به أمرنا العالي بالله في 17 رجب الفرد عام 1300.

فليس بكائي من جفاء خرائد ولا شادن قد حيل دون مزاره
ولكن شوقي للعلوم وأهلها علوم حديث المصطفى وشعاره
فذاك مثير الشوق بين جوانحي وحرقة قلبي من شرارة ناره
وذلك علم كان للدين معقلا وخير سبيل يهتدى بمناره
ففيه لعمر الله نور هداية لمن ضل في ليل الهوى واعتكاره
وفيه شفاء للقلوب من العمى وفيه حياة للنهى باعتباره
جزى الله بالخيرات جامع شمله محمد الجعفي حامي ذماره
أتاه على حال تسوء لأنه تشابه فيها زيفه من نضاره
فماز صحيحا من عليل وأصبحت مجالسه تهني بجبر انكساره
سقي روحه سحب الرضى كل ساعة ولا برحت مخضلة بانهماره
وقابل بالحسنى خليفتنا الذي ألاح له بدرا بعيد سراره
يقيم له في كل عام محافلا مزينة من حسنه واحتضاره
تدارسه الأعلام وهو إمامها ويذهلهم بالفهم عند ابتكاره
وإن وقفوا عند انغلاق عويصة أبان صوابا في مقال اختصاره
هو البحر لو أن البحار مقيسة إليه لكانت نقطة لانفجاره
ولو أن نجم الأفق كانت مداركا لخافت منالا من مشق غواره
أقام لنا سوق العلوم فأصبحت مضاعفة الأرباح عند تجاره
ورفع بين الناس أقدار أهله فجرر كل فضلة من إزاره
وأعطى فما أكدى وحاشا جلاله وأغنى وأقنى من أتى لجواره
وعمت عطاياه البقاع كأنما يروضها صوب الحيا بانتشاره
فلو أبرقت ريح الشمال وأرعدت ورامت تباري كفه لم تباره
فلا جود فيما قد سمعنا لغيره وإن ضرب الأمثال عند افتخاره
وكيف يضاهي من يجود بنفسه مهينا لها في الحرب أو في المكاره
فهذا الذي قد أدرك المجد والعلا صغيرا بحال فيه عجز كباره
تسنم أثباج الزعامة فاستمى إلى مستوى للعز تحت شفاره
وأركب خيل الله كل مدجج يشن الردى فوق العدا بمغاره
كتائب خضر بالحديد إذا رست على أرض قوم زلزلت بشراره
تظن صهيل الجرد فيها رواعدا حداها نئيم الريح عند اعتصاره
أهاب بها الصقر الهمام محمد فجاءت كصقر في انقضاض مطاره

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله



منشورنا هذا الكريم المعزز بالطوابع والمحفوف من راحة ماسكه الممنوح له كتابنا أنه رضي
الطالب عبد الله اكنسوس الجعفري يتحلى من مشهورنا هذا ويستجلي من جميع ما فيه أننا بحول
الله أطلعنا عليه ظلال من مننا والتوقير وأطلعنا عنه ملابس من نعمائنا والتخفيف وحاشيناه
من جميع سمات العوام وأذن بتسريحه لجانبنا العالي بالله مدى الدوام وحررناه من جميع
الوظائف والكلف وأقررناه على ما عهد له مضى له من سلف بحيث لا يسلم جانبه سوءا ولا
هضما ولا يحاط حماه خسفا ولا ضيما رعاية لتحليه بالعلم الشريف وملازمته خدمة الشريعة منذ
نيط به التكليف نحو ... إكمالا شاملا يشمل ولده الطالب المهدي وأخاه الطالب العربي وصهره
المرابط الطالب الزويري وجميع ذريتهم وأملاكهم ومساكنهم وعقاراتهم وأماكنهم تأكيدا كما قد
عهد التأكيد أمرنا بتنفيذه وإعماله وعدم نقضه وإهماله صدر به أمرنا العالي بالله في 17
رجب الفرد الحرام عام 1355   الحاجب محمد المعمري (توقيع)

شأنهم في غالب الأحوال عند طول العهد بتدويخهم بكثرة المحالّ التي تجوس خلال الديار، وتحول بينهم وبين التمكن من الاختيار، فلما ورد عليهم مولانا الخليفة السعيد أقبلوا إليه يزفّون لما رأوا من حسن خلقه ويمن طلعته فوق ما يصفون، وأكثر مما كانوا يعرفون، فأدوا جميع ما توفر عليهم من زكوات أموالهم ومواشيهم وغللهم، فجمع تلك الجبايات التي لا تعد، ولا توصف ولا تحد، فرجع بالسلامة والغنيمة، والسعادة الجسيمة، ووجد مولانا المظفر بالحضرة السلطانية المراكشية ففرح بوروده غاية الفرح، وأمر بركوب الجنود لملاقاته، والتهيّؤ لموافاته، فكان دخوله للحضرة موسما عظيما، وقدومه قدوما مباركا كريما، وكان مولانا نصره الله وجه أخاه مولاي عبد القادر يربط بالمحلة والعسكر على أهل الدير الذين أطلقوا الأعنة في مجال الفساد، لما سمعوا فساد الرحامنة بوساطة عنصر الغواية، والغي والطغيان أولاد بو السبع، فإنهم منشأ كل فتنة، وقعت في الحوز من قديم الزمان، وكان السلطان الناصر للدين سيدي محمد بن عبد الله أخرجهم منها أذلة وهم صاغرون، ثم تراجعوا في الفتن التي كانت بعد موته، وفي هذه أكثر، فإنهم أعوان لكل من أراد الفساد وضعف عنه، وإخوان لكل شيطان مريد يستعاذ منه، فهم الذين أشأموا متوكة حتى خربت ديارهم، وهم الذين أوقدوا نار الشياظمة فأحرقتهم نارهم، وكذلك مزوضة وجدميوة، فهم مساعير تلك الشرور كلها، ومصادر جميع الفتن قلها وجلها، وكان الذي أمسك زمام الأحكام السلطانية في هذا القطر وقطر سوس الذي وراء الجبل إنما هو القائد الأجل السيد الحاج عبد الله بن الرجل الصالح القائد السيد عبد الملك أبه الحاحي، فإنه ما بقي جانب من جوانب المغرب إلا مال، ولا قبيلة من القبائل إلا دخلها الزلزال، ماعدا قبيلته، والناس كلهم متشوفون إليه، فلما رأوا ثباته واجتهاده في الطاعة، ولم يروا ازوراره ولا التفاته أمسكوا أعنتهم في الظاهر، حتى قدم مولانا نصره الله، فأمر نصره الله أخاه المذكور أن ينزل في سفح الجبل على رأس الحية الذين ظهروا في ذلك كل الظهور، وهم مزوضة وأولاد بو السبع المجاورين لهم في البسيط. فنزلت المحلة هنالك نحو سنة كاملة، فكان ذلك من أكبر وجوه المكيدة، فكل قبيلة من تلك القبائل تظن أنها هي المقصودة، فتسارعوا إلى أداء ما وظف عليهم من المغرم، وهو شيء كثير، ولم يشقل

عليهم ذلك لأجل الخوف الذي خامر أجوافهم مع كثرة المؤن واللوازم لتلك المحال الكثيرة، والعساكر المظفرة الخطيرة، فلم تقم عليهم الجنود حتى أضعفوا قواهم، وأوهنوا مسعاهم، فرجعت المحلة سالمة بعد المدة المذكورة.

وفي عام ثمانين ومائتين وألف رجع مولانا المظفر نصره الله من مراكش لحضرة فاس، وأقام في مروره على قبائل تادلة بجنوده وعساكره المنصورة، حتى أخمد نيرانهم، وخلص من إذايتهم جيرانهم، وكانوا قد عتوا في الأرض عتوا كبيرا، فثبرهم الله سبحانه بصولة مولانا المظفر تثبيرا، فقبض من رجالهم الصناديد عددا كثيرا، وغرمهم الأموال الثقال، مع ذلك الاعتقال، ولم يرتحل عنهم حتى طهرهم وأنقاهم، ولولا المرابط البركة السيد ابن داود(15) حفيد الشيخ سيدي المعطى بن الصالح ما أبقاهم، ثم لما بلغ السلطان نصره الله رباط الفتح أقام بالدار الجديدة، المباركة السعيدة، التي ابتكر بناءها، وجعل المحاسن كلها ساكنة أحوازها وأفناءها، وهي فيما بلغنا من أخوات البديع، بل تزيد عليه بالانفراد بالمحل الرفيع، الذي يشرف المقيم فيه بفضيلة الجهاد، ويرجو المفاز بالمثوبة المنبجسة فيه بالغمائم العهاد، وترفع فيه أعمال المقيم، الجاري على الصراط المستقيم، وقد أباح نصره الله الدخول إلى ذلك القصر السعيد، الذي يقرب منه كل أمل بعيد، لأعيان حضرة الخلافة من الوزراء والحجاب، وأهل المراتب والأتباع والكتاب، وكبراء الدولة من الأجناد والعساكر، وكل صالح وتال وذاكر، فأفاض عليهم الخيرات، وأنواع النعم والمبرات، فجعلها وليمة تجوس السعادة خلالها، وتلتزم البركة ظلالها، فشاهدوا من تلك الآثار العجيبة ما بهر أبصارهم، وأوجب عن إدراك أوصافه انحصارهم، وقد أحسن مولانا نصره الله كل الإحسان في تعمير ذلك الثغر المبارك الذي هو سرة البلاد، وغرة الفتح المبين عند الجلاد، في جوار جده المجاهد الناصر لدين الله تعالى سيدي محمد بن عبد الله، فلو رأى رحمه الله ما شيده مولانا المظفر نصره الله لاقتضى منه العجب العجاب، وعلم أنه ترك الأمراء الفضلاء الأنجاب، وأن له زرعا يغيظ الكفار نباته، وخلفا مثل

---

(15) ابن داوود حفيد المعطي بن الصالح، وابن داوود اسمه الشخصي وذلك لأن والدته من أولاد سيد ابن داوود، فسمي بذلك تبركا، كان رحمه الله سالكا زاهدا متقشفا ت 1307هـ 1889م بأبي الجعد، "الإعلام" ج1 ص193.

الجبال رسوخه في الدين وثباته، ولو حيي يعقوب المنصور الذي أسسه، ورأى ما صونه مولانا المظفر وحرسه، لقال الآن صار الرباط رباطا، وازداد دون غيره من ثغور الإسلام اغتباطا، لما أصبح للأسد الهصور عرينا، وأضحى لمدينة السلام قرينا، وأظهرت فيه الدولة المحمدية آثارها، ونثرت عليه الأبهة الهمامية نثارها، فصارت تحاكي المباني المحمدية المراكشية، والإسماعيلية المكناسية، إلا أنها تفوقها بأنها في نحور العدو عتاد، ولسرادق العز الأثيل أوتاد، وعندها للبر والبحر صدور وأعجاز، ومنها إلى الشرق أو الغرب مجاز، فأجزل الله الثواب لأمير المؤمنين على حسناته، وبارك للمسلمين وله في حركاته وسكناته.

ولما استقر مولانا نصره الله بالحضرة الفاسية في ظلال السعادة وجه خديمه القائد محمد الشرقي ولد با محمد مع عامل سلا القائد محمد بن سعيد لجنس الفرنصيص لأمور اقتضاها الحال في شأن ولد حمزة ولد الشيخ بوسماحة القائم على الفرنصيص في عمالة الجزائر، فإنه شوش عليهم وروع سربهم فطلبوا من مولانا نصره الله أن ينظر كيف يكفه عنهم مع أنه ليس في ولايته ولا في إيالته، فوقع الكلام في ذلك بينهم وبين مولانا وتكررت الرغبات منهم، فوجه مولانا عامليه المذكورين لحسم مادة الكلام في هذه القضية، فذهبا لذلك ففرحوا بهما وأطالوا مكثهما عندهم في الكرامة التامة، وراجعوا مولانا نصره الله بالمكاتبة مرارا حتى انفصل الأمر على الوجه الجميل، فرجع الوفد مقضي المآرب، ثقال الحقائب، وذلك عام اثنين وثمانين ومائتين وألف.

وكان مولانا المظفر نصره الله لما صدر عن مراكش ترك ولده البار، المتوج بالمهابة والإكبار، أبا علي مولانا الحسن خليفة، فنهض بأعباء ما حمل، وهو بأثواب السعادة مدثر مزمل، ولاحت عليه من رضى والده المنصور المظفر أنوار، فلم يتعاص عليه من الإيالة أنجاد ولا أغوار، مع اختلاف الأحوال وتعاور الأطوار، ولم يشغله شئون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار، ولا ما في قصوره السلطانية من الحدائق والأنهار المطردة والأزهار، عن وظائف الدين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة، وكما حدثني بذلك بعض بطانته، وقال إنه يجد لذلك في الخلوات

لذة وحلاوة، وهذا من عطاء الله تعالى الذي لا يدركه الإنسان إلا بالسابقة الأزلية، لا سيما في سن الحداثة الغالبة الطبيعية، والانغماس في الترف والرفاهية، فسبحان واهب الأرزاق الحسية والمعنوية.

ومن أدب مولانا الخليفة المذكور مع والده المظفر أنه لا يبرم شيئا مما جل أو قل من أموره إلا بعد المشاورة مع أنه مفوض له كل التفويض في جميع الأمور، ومراده بذلك أرضاه الله ألا يصدر منه ما عسى يغير خاطر والده نصره الله في الباطن وهو لا يعلم، وهكذا كان مولانا المظفر نصره الله مع والده المؤيد لا يقضي قضاء إلا بأمره مما هو بصدده، فجعل الله جزاءه من ذريته الطيبة وأفلاذ كبده، وكذلك لا يجني إلا ثمار ما غرسهُ الإنسان، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وفي شوال من عام اثنين وثمانين ومائتين وألف، مرض مولانا المظفر نصره الله مرضا شديدا حتى وقع الخوف عليه، وتوهم من يباشره أن الأجل متسرع إليه، وسبب تلك الخشية، أنه أصابته غشية، ثم أفاق بعد مدة قريبة، وتركت به حالة مريبة، فأفرق من دائه وهو شديد الوهن، مع تحقق السلامة وانفكاك المرتهن، فلم تزل العافية تنزل بمولانا على سبيل التدريج، والنفوس تنبسط بتيقن التفريج، حتى كملت بحمد الله قوته، واضمحلت علته، وفرح كل مؤمن صالح باستقلاله، واستمر كل شيطان مارد في أغلاله، وقد كان الناس أشرفوا على هوة الإتلاف، وهم كل متفق بالاختلاف، واشْرَأَبَّ أهل الذعارة إلى معاودة عوائدهم، والنفخ في جمارهم الخامدة في مواقدهم، وفرحوا بما أصاب مولانا نصره الله من المرض واعتراه، وأرجف كل مرجف واختلق ما يوافق هواه وافتراه، حتى رجت الأرض رجا، فلم يخص ذلك الهول موطنا ولا ترك فجا، وصار الناس كمن أظلم ليله، وأعصفت رياحه، وهم بالانطفاء مصباحه، فلما تفضل الله الكريم على خليفته بملابس العافية، عادت الموارد المتكدرة صافية، وقرت النفوس بعد انزعاجها، واستقامت الأمور من اعوجاجها، وانكمشت ضِبَابُ النَّافقَاء في الأنقاب، خوف الصيال من أمير المؤمنين والعقاب، ولما ظَهرت من علة مولانا نصره الله أمارات الإفراق والإبلال، وإقبال الصحة وانهزام الاعتلال، كتب حجاب الحضرة المولاوية لخليفتنا المستنصر مولانا الحسن

بمراكش يبشرونه، ويهنئونه بسلامة مولانا المظفر ويسرونه، فلما وردت الرسل بذلك أمر مولانا الخليفة أعزه الله تعالى بإخراج المدافع والأنفاض، فشاع بذلك خبر سلامة مولانا وعافيته واستفاض، فلم تزل المدافع تخلى حتى اهتزت الجبال الرواسي، ولانت القلوب القواسي، فقام الناس كلهم إلى إقامة النزاهات والأفراح، وكل موجب للانبساط والانشراح، طائفة بعد طائفة، وقبيلة بعد قبيلة، وكان مولانا الخليفة أعزه الله هو الذي ابتدأ بذلك وانتهج سبيله، فإنه دعا الناس الدعوة الجفلى، فلم يتخلف ممن حضر بمراكش أحد من العقلا، فأمر أيده الله بتهيئة جنان رضوان، ففتحت أبوابه، وفرشت قصوره وقبابه، وفجرت أنهاره الدافقة، حين فاحت أنواره العابقة، وضربت فيه المضارب السلطانية، التي هي من أبهى زينة الحياة الدنيا الفانية، فحضرت وجوه الدولة وأعيانها، ورؤساء القبائل وربانها، وكان ذلك باثر عيد الأضحى قبل انفصال من حضره من العمال وغيرهم، ومن قدم بعده باثرهم، بأمرهم أو بغير أمرهم، فلما حضر ذلك الجمع الحفيل، الشبيه بالسيل الجفيل، أنزل كل واحد بالمحل المناسب له، فامتلأ ذلك الجنان المتسع حتى عم الازدحام فجاجه وسبله، ثم اندفقت عليهم من الدار المولاوية سيول موائد الطعام الفاخر، ما عم الأول منهم والآخر، حتى صار في جميع الرحاب تدوسه الأقدام، وتكنسه الوزعة والخدام، هذا للعامة المطلقة، والأوزاع الملفقة، وأما الخواص والوجوه، ممن يأمله الآمل ويرجوه، فلهم الحظ الأوفر من العناية، والخطاب بزائد الترحيب وصريحه دون كناية، بالفرش الحريرية المذهبة، والمقاعد العالية المطنبة، والرش بمياه الأزهار، ومباخر الطيب، وكل معنى لطيف ومنظر عجيب، ومسمع لذيذ، وموطئ رطيب، وقد أحضر كل أحد ما شاء من آلات اللهو والطرب والفرح، على حسب ما اشتهى واقترح، فلا تكاد تسمع في تلك المجالس والمغاني، إلا أصوات المثاني، والمثالث وأنواع الأغاني، فلم يبرح الناس الخواص والعوام في ذلك الازدهاء ثلاثة أيام، ومولانا الخليفة أعزه الله مع إخوانه وبني عمه في القبة المحمدية الصويرية، المشرفة على مجاري الخيل وملاعبها، ومطاردها ومضامرها ومتاعبها، وفي كل عشية يركب من بالحضرة على عتاق الخيل المسومة، والصافنات الجياد المقومة، وقد لبس كل من فرسان ركابها زينته المدخرة، وما تضمنته خزانته مما أعده للأيام التي يبرز فيها

مفتخرة، فلما انفضت هذه النزهة الشريفة، ذات الأظلال الوريفة، شرع أحد عاملي الرحامنة في مثل ذلك، فبالغ حتى جاوز مقدوره، فأعد جفانا كالجوابي، وقدور كالروابي، فدعى الناس دون تنقير، ولا تعظيم لأحد ولا تحقير، فأفاض عليهم المطاعم البدوية، التي لا تكاد تقدر عليها أهل الحضرية، ويكفيها عند الاحتجاج، ما فعل في وليمة الحجاج، ثم تتابع الناس في نزاهاتهم، وإظهار أبهاتهم، وانتخاب دواعي الأفراح، ومقتضيات الازدهاء والانشراح، فما يمر أحد ببستان ولا حديقة، ولا روضة أنيقة، إلا ويرى أو يسمع جماعة زاهية، أو طائفة منبسطة لاهية، وهكذا سمعنا عن الحضرتين الفاسية والمكناسية، وأنه عم ذلك كل ذي كف سيالة كاسية أو جاسية، ولم يخص عارية ولا كاسبة، فرحا بشفاء مولانا الإمام، أدام الله عزه وعافيته لحماية الإسلام، وكان مرض مولانا المظفر نصره الله خفيفا في التصوير، وإن كان خطيرا في المصير، لو كانت المباشرة لفحول الأطباء المهرة، والأساطين المشتهرة، والمرض المذكور فيما بلغنا إنما هو المسمى بالحلاقم، وهي نوعان : ظاهرة وباطنة، وكلاهما أمر من العلاقم، والظاهرة أخف من الباطنة، الخفية الكامنة، والأولى يكفي في علاجها الترطيب لورمها الظاهر عند اللمس بالاستحجار، وأما الثانية فإن بحرانها بالانفجار، ولما كان خفيا لا تدركه أدوية الإنضاج، كان أكثر شدة عند إرادة الإدخال في الحلق والإخراج، ولذلك كان داء خطيرا، وعارضا عسيرا، وكثير من الناس يعتريه كثيرا، وكان أخونا في الله الفقيه العلامة الوزير لسان الدولة ابن إدريس في أول أمره أوان تردده في مجالس التعلم يكاد أن لا يمر عليه شهر من الشهور إلا ويصيبه، وينفجر له من داخل بعد أسبوع لكن لا يمر ذلك الأسبوع إلا وقد أشرف على الهلاك، فأضر به ذلك في ذاته غاية، ثم إني رأيت ابن الهندي ذكر في كتاب الرحمة دواء ذكر أن من استعمله يشفى منه ولا يعود إليه أبدا، فأوقفت عليه الوزير المذكور فاستعمله فلم يعد إليه بعد ذلك، وكان كدواء المسيح، وكذلك جربناه لكم من واحد فلم تتخلف تلك الخاصية المذكورة، وهو أن تذبح دجاجة وتوخذ مرارتها ويحتفظ بها ثم تطبخ الدجاجة فإذا نضجت أخذ من مرقها فتفرغ فيه تلك المرارة ويشربها العليل مع ذلك المرق انتهى.

هذا وقد كان الملوك الذين أدركناهم أو بلغنا خبرهم من هذه الدولة الشريفة وغيرها لهم العناية التامة والاهتمام الزائد بالعلماء الأطباء أكثر من غيرهم، وكانوا يلازمونهم حضرا وسفرا، ويتفقدون أحوالهم صباحا ومساء، ويستخبرون من طبائعهم ومشاكلهم ومشاربهم ومناكحهم ومضاجعهم، فيصلحون ما حضر من ذلك، ويستدركون ما فات عن قرب ولاينا في هذا التوكل على الخالق المنفرد بالتدبير، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء،(16) وقد شرع سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم التداوي، وكان يستعمله في نفسه، ويأمر به غيره، حتى قيل إن القدر التي تطبخ فيها أدويته عليه السلام لا تكاد تنزل عن النار، وذلك تعليم وإرشاد منه عليه السلام لأمته المرحومة، وأخبار الملوك القدماء وإن كانوا أئمة علماء مع أطبائهم معروفة من محاسنهم كأبي جعفر المنصور، وولده المهدي، وولده الرشيد، وولده المأمون وغيرهم من الدول السالفة، وكذلك دولتنا هذه المباركة الشريفة، فإن أبا السلاطين مولانا إسماعيل رحمه الله تعالى كان لا يفارقه طبيبه العلامة الحكيم السيد عبد الوهاب أدراق الفاسي،(17) وكانت له مكانة عظيمة لا تدرك لغيره، بحيث لا ترد شفاعته، ولا تهمل إشارته، وكان مضربه ومنزله في الأسفار أعظم من مضرب أكبر العمال، وكذلك السلطان الناصر للدين سيدي محمد بن عبد الله، وكان له بذلك اعتناء زائد أكثر من غيره من الملوك السابقين، لأنه رحمه الله كان إذا سمع خصلة من خصال أعاظم الملوك لا يرضى لهمته إلا أن تأتي بمثلها أو أحسن منها، وكان من شأنه أن يبعث للفرائلية من بر النصارى إدالة في كل ستة أشهر، فينزل بعضهم بحضرة مراكش، وبعضهم بمكناس، وبعضهم بفاس، وأما في الثغور فأحرى، وجعل لهم مالا عظيما يصير عليهم في جميع ما يحتاجون إليه في أدويتهم وأوعيتها وأوانيها التي تعطى فيها للمرضى، وكل من أصابته علة ذهب إليهم فيعطونه ما يليق به من الأدوية مجانا، فإذا مضى ستة أشهر رجعوا لبلادهم وجاء بدلهم، هكذا حدثنا من شاهد ذلك من أهل وقته رحمه الله تعالى فلينظر الناظر ما أشد عناية هذا السلطان العظيم القدر رحمه الله تعالى بالمسلمين، وأما طبيبه الخاص فهو

(16) حديث الداء والدواء اشارة لمعنى حديث صحيح مروي لدى البخاري والترمذي وابن داوود في اللفظ.
(17) الطبيب عبد الوهاب أدراق تقدمت ترجمته.

الفقيه السيد أحمد ادراق (18) وليس من ذرية الحكيم السيد عبد الوهاب المذكور، بل هو من قومه وقبيله، وكان هذا القبيل في فاس من قديم الزمان، لهم الرياسة في هذه الحرفة، وكانت منزلة السيد أحمد أدراق المذكور عند السلطان سيدي محمد عالية البناء، في براج الاعتناء ملازما له في جميع حضراته، يطلع كل بكرة وعشية، فيفتقد أحوال السلطان وأحوال من يحتاج إلى ذلك من أهل الدار المولاوية، وكان يحمل رامته في الأسفار على أزيد من ثلاثين من البغال، وكان السلطان في حركته لتادلة أصابه مرض شديد في القصبة التي على أم الربيع، وكان طبيبه المذكور يباشره حتى أفرق من علته، وعاوده ما عرف من صحته، فأعطاه ألف دينار وقال له : هذه دية المسلمين الأحرار فقال له الطبيب مباسطا ياسيدي هذه دية مطلق الناس، يعني لا دية عظماء الملوك، فزاده ألف دينار أخرى، ولما نقل الزياني هذه الحكاية ترك هذه الجملة الأخيرة، وهي قول الطبيب مع الزيادة المذكورة، ثم حكى ما وقع لأمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحدي مع طبيبه ابن زهر(19)، وهي معروفة مشهورة، قال بعضهم إن الزياني قال له : والله ما ذكرت هذه الحكاية عقب ما وقع لأدراق مع سلطاننا إلا ليعلم ما بين السلطانين من درجات الكرم والبخل انتهى، فانظر إلى هذا الظالم كيف يقول مثل هذا في مخدومه الذي تراب أسفل نعله أشرف من عشرة من مثل يعقوب المنصور، ولكن مسك السوء لا يعجز عن عرف السوء، ومرادنا ببسط الكلام في هذا الفصل تنبيه مولانا أمير المؤمنين المظفر نصره الله وبارك في عمره، وإيقاظ لهمته العالية إلى الاعتناء بهذه الخطة، فإنها < في الزمان الأول والدول السالفة كان لها غاية التنويه والتشريف، حتى إن العامة كانوا يقولون لما مات صلاح الدين بن أيوب وكان طبيبه غائبا لو أراد الله بقاءه ما غاب طبيبه، قال ابن خلكان ما نصه : وكان من

---

(18) الطبيب أحمد أدراق تقدمت ترجمته.

(19) ابن زهر وذكر حكايته مع يعقوب المنصور : ابن زهر أشهر من أن يعرف، له ترجمة حافلة، تعرف من مصادرها، ت بمراكش 595هـ 1198م ودفن بروضة الأمراء، أما حكايته مع الخليفة يعقوب المنصور الموحدي، فله معه مواقف عظيمة، وقد قربه إليه قربا بلغ الغاية القصوى في الاعتناء بشأنه وأغدق عليه من العطايا ما يعجز عن الحصر، ومن ذلك قضيته التي أشار إليها صاحب "الاستقصا" حيث تذكّر ولده وسكنه بإشبيلية، فأمر الخليفة بإرسال مهندس ليأتوا بخريطة سكناه من إشبيلية دون علمه، فجاءوا وأمرهم ببناء المسكن بمراكش على هيئته وشكله، ونقل إليه أسرته، فقيل له : ادخل البيت الذي يشبه بيتك، فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه. "التكملة" ج2 ص555 "الاستقصا" ج2 ص180 "الإعلام" ج4 ص134.

أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفرا وحضرا انتهى، والدليل على أن العادة السلطانية كانت ملازمة الطبيب لباب الملك حضرا وسفرا قضية أمير المؤمنين يوسف بن عبد المومن لما سأل عمن بالباب من الأصحاب فقيل له إنما فيه الطبيب سعيد الغماري(20) والوزير الأعظم أحمد بن عبد السلام الجراوي،(21) فقال السلطان سبحان الله من العجائب طبيب غماري، ووزير جراوي، فلما سمع ذلك أحمد بن عبد السلام المذكور قال : وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، أعجب منها خليفة گومي فبلغ ذلك السلطان فحلم عنه عبد المومن ولم يواخذه، لأنه كان رئيس دولتهم وإمامها وممهدها، وكان خدم عبد المومن وولده يوسف هذا، وولده يعقوب، وهو مؤلف صفوة الأدب وديوان العرب(22)، المتكفل بمآثر دولة الموحدين، ذكرنا هذه الحكاية لغرابتها›(23) وأما في هذا الزمان فقد أهملت وتنوسي اعتبارها في الحضرة السلطانية، وليس المراد مطلق من يدعى طبيبا من الجهلة الذين يأخذون المسائل من الأوراق، وهو لا يكاد يحسن تهجي الحروف، فإن هذا يجلب إلى الاصحاء كل داء، كالذي أبدل الحبة السوداء بالحية السوداء(24)، ولكن المراد الذي يناسب الحضرة السلطانية إنما هو المهرة الدهاة، لا من يبهرج بالترهات، بل ينبغي أيضا أن يكون الإمام له اطلاع على أمهات مسائل هذا العلم، كتحقق أشخاص الأدوية المفردة، ومقدمات العلم وجمله الكلية، وطبائع المطعومات المتداولة، حتى لا يغتر بأقوال كل أحد، وخصوصا فيما يخص ذاته الشريفة، مما يوكل أو يشرب، وهذا القدر هو الحامل للإمام المازري(25) رحمه الله على تعلم الطب حتى

---

(20) سعيد الغماري : الطبيب الماهر، وهو مع الجراوي صاحبا القصة الطريفة مع يوسف بن عبد المومن الموحدي، المذكورة في التاريخ ت 585هـ 1189م "المن بالامامة" ج2 ص482 تعليقا، "وفيات الاعيان" ج6 ص136 "مظاهر النهضة الحديثة" لعبد الهادي احمد الحسين ج1 ص154.

(21) الجراوي، سبقت ترجمته في أول الكتاب لدى ذكر المؤلف مؤرخي الدولة الموحدية.

(22) المعروف أن صفوة الأدب مجموعة أشعار ضاهى بها الجراوي حماسة أبي تمام.

(23) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ك) و (ف) وسقط جله من (م) أيضا.

(24) هو توما الحكيم المذكور في أبيات أبي حيان الأندلسي التي يقول فيها :

يظن الغمر أن الكتب تهدى ... أخا فهم لادراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها ... غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ ... ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى ... تصير أضل من توما الحكيم

(25) المازري محمد بن علي بن عمر التميمي يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالإمام ت 556 هـ 1160م "الديباج" ص279 "الشجرة الزكية" ص127.

مهر فيه لما كان أصابه مرض وكان يباشره طبيب يهودي فقال له : ياسيدي أما تخاف من معالجة مثلي لمثلك، وأي قربة هي أكبر في ديني من إتلاف مثلك للمسلمين، فتنبه الإمام المازري لذلك واشتغل بالطب حتى دون فيه كتبا نافعة.

وفائدة الطب هو حفظ الصحة الحاصلة حتى تبقي على صاحبها إلى الأجل المسمى، وأورد الصحة الزائلة حتى تعود إلى حالها الأول، وثمرة ملازمة الطبيب كل يوم أن الإنسان بصدد تغير الأحوال عليه وتبديل حال بحال آخر، لأن دوام الحال من المحال عند المتكلمين، لأن العرض لا يبقى زمانين، والصحة لا محالة أنها عرض من الأعراض، فإذا تبدلت الأسباب المقتضية للصحة ظهرت لها أمارات في ذات الإنسان، يجدها كل عاقل فطن، فيخبر الطبيب بذلك فيدله على ما يقابل ذلك التغير حتى يرد الطبيعة إلى مجراها المعتاد، فتبقى الصحة محفوظة، هكذا كل يوم يخبر الطبيب بما ازداد عليه أو نقص، وهذا المهيع لا يشك في أن من سلكه يجد بركته في حفظ الصحة عليه إن كان معلمه عالما صادقا في علمه، وكان المتعلم لا يخالف أمر معلمه فإن قيل : هذا يقتضي أن الملوك الذين لهم أطباء حكماء يتعاهدون أحوالهم على المنهاج المذكور لا يمرضون، ونحن نرى أكثرهم يمرض، بل ربما كان يسرع المرض إليهم أكثر من غيرهم، فالجواب أننا شرطنا في طول الصحة طاعة المطبوب لأمر الطبيب وعدم مخالفته، والغالب على الملوك كونهم مغلوبين لشهواتهم مع كثرتها عندهم في كل حين، وحضورها لديهم، وتيسر وجودها عليهم، ومن كان هكذا حتى من السوقة تغلبه نفسه، فلا يقدر على كفها عن شهوتها، وهذا يجده كل أحد من نفسه، وقد أشار رسول اله صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء»(26) وهذه الكلمة الشريفة جمع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما دونه الحكماء في دواوينهم على كثرته، وهو مضمون ما ذكرناه في مشاورة الطبيب وطاعته فيما يأمر به، وهو أمر شاق علي النفوس الغالبة كما ذكرنا، ومن أقدره الله على مغالبة نفسه، ومدافعة هواه جنى ثمرته، ووجد لذته، والله على كل شئ

(26) حديث : (المعدة بيت الداء)، لا أصل له، إنما هو من كلام بعض الأطبا، كما نص على ذلك السيوطي في "الدرر المنتشرة" والعجلوني في "كشف الخفا" ج2

قدير، ومما يدل على صحة ما ذكرناه أن الحكماء والفلاسفة الذين جاهدوا نفوسهم حتى ملكوها ولم يبق لها تصرف في أرواحهم، بل صار الحكم للأرواح تطول حياتهم وتقل عللهم وعاهاتهم، وربما عاش بعضهم المئين من السنين كما هو مذكور مشهور عند نقلة الأخبار.

ولما فرغ الناس من نزاهاتهم فرحا بشفاء أمير المؤمنين وجه كل أحد من العمال والقبائل وفودهم وهداياهم لحضرة مولانا للتهنئة بما منحه الله من الإبلال، والمعافاة والاستقلال، والتخليص لذلك المقام العالي، المتوج بتاج الجلال، وكنت نظمت في التهنئة له أعزه الله تعالى هذه الهمزية لما ورد الخبر بشفائه :

جاد الزمان وجاء بالسراء ورمى إساءته وراءَ وراء
وافى كتاب في يمين مبشر متضمن لمسرة غراء
فلثمت وجه الأرض من فرح بما جاء البشير به من الأنباء
نبأ شهي للنفوس سماعه متبلج عن مأمن وهناء
لبست به الدنيا لباس جمالها وتبخترت في بهجة وبهاء
ونفى عن الأرواح كل كآبة كالصبح ينسخ سدفة الظلماء
ضاءت به الأرجاء وابتهجت به مهج النهى وجوانح الأحشاء
يا برد مورد ذلك النبأ الذي عم الوجود بسابغ النعماء
يا برده بين الجوانح مخبرا قد عم بالألاء والآلاء
وازداد نورا في مطالع سعده قمر الدجا وكواكب الجوزاء
ورد البشير به فكان وُروده بردا على أحشائنا الحراء
ولذا فرحت فرحت أرقص مثلما لعب النسيم بسرحة غناء
أو كالذي سلبته ثوب وقاره كأس مروقة من الصهباء
قل للبشير فدتك يابن مكرم نفسي وأنفس سائر الكرماء
ويقل شكرك يا بشير وأنت قد وافيت للأموات بالأحياء
بشرتنا بشفاء من بشفائه ماء الحياة يسير في الأعضاء
بشفاء مولانا الإمام محمد ملك الممالك كعبة العلياء
ملك نمت في الأنبياء أصوله ورست به الأعراق في الخلفاء
وخطى الملوك الصيد تقصر دونه ويطول فيه المدح بالإطراء
لما اشتكى سارت إلى كل الورى شكواه حتى ارتج كل بناء
وتكدرت كل المشارب بعدما كانت مروقة ذوات صفاء

فاليوم قد جبر الإله بفضله   صدع الوجود وزال كل عناء
واسترجع الأرواح من أشباحها   ما كان منتسبا إلى الأصداء
وأضاء مصباح الخلافة آمنا   لا يختشي أبداً من الإطفاء
هذا أمير المؤمنين مسلما   ومبرأ من سائر الأدواء
والله ذو فضل عظيم قد حبا   سلطانه بعد الضنى بشفاء
وأباحه صفو الحياة وطيبها   فحياته متبوأ السراء
فله الهنا كل الهناء فذاته   خلصت خلوص التبر بعد صلاء
وله البشارة أن تطول حياته   في ملكه ذي العزة القعساء
حتى يشيد للفخار مبانيا   لم يبنها أحد من العظماء
ويزاد في عمر الخلافة مثلما   زادت مآثره على الأمراء
فالحمد لله الذي ألطافه   معلومة بالكشف للضراء
والحمد لله الذي لم يبلنا   بشماتة الحساد والأعداء
عكس الإله بفضله آمالهم   وجزاهم بفجاءة البأساء
كذبت ظنونهم التي يرجونها   وكذا الظنون كواذب الاملاء
واغبر منتجع العدا فرباحهم   نكبت بإعصار بعيد رخاء
بينا هم يتضاحكون إذا هم   في مأتم يا ويلهم وبكاء
فلنا الهناء معاشر القرباء قد   فض القضاء معاشر البعداء
وضحت لنا الآمال تعبق مثلما   عبق الأزاهر غب جرى الماء
لا زال مولانا تضاحكه المنى   منصور رايات رفيع لواء

ثم رفعتها للحضرة المولاوية مع وفود التهاني، ترفل في حلى أنصع المباني، وحلى أحاسن المعاني، تأمل وترجو من مولانا القبول وبلوغ الأماني.

ومما رفع لحضرة مولانا الخليفة الأسعد، المبارك الأمجد، مولانا الحسن أعزه الله تعالى تهنئة الفقيه العلامة النحرير القاضي أبي عبد الله سيدي محمد الطيب بن محمد التاملى الرداني(27) حفظه الله وهي :

(27) محمد التاملي الرداني نكتفي عن ذكر ترجمته بما نص عليه في الجيش بتحليته الحافلة التي منها ذكر قصيدته الحائية الرائعة.
وترجمه الأستاذ المختار السوسي في كتابه "رجالات العلم العربي في سوس" ص111 حيث قال : عالم جيد كبير أديب حسن الآثار، ذويد طولى في التفنن، وهو أريحي نزيه وتولى القضاء بعد والده في تارودانت، وعنده أشعار تـ 1282هـ 1865م.

غرام يفوت الحد والوصف والشرحا ... ولحظ جرى دما من أحشائي الجرحى
وتبريح شوق أرق العين فهي من ... دواعي الهوى ماتعرف الليل والصبحا
ولاعج حب أضرم النار في الحشا ... ولم يطفها وبل العيون الذي سحا
نشأ ذاك عن زهر الرياض وطيرها ... وقد خطبت في بانها الخطبة الفصحى
تحض على خلع العذار ذوي الهوى ... إذا الشمسُ حلت من منازلها النطحا
ليغتنموا الوقت الذي طاب منه والـ ... نسيم العليل والهواء الذي صحا
ويقتطفوا ورد الخدود مفتحا ... ويرتشفوا ثغرا بمسك زري نفحا
فكم قد دعا فصل الربيع وزهره ... نفوس كرام فاستجابت له فرحى
وكم بين محبوب نفور وحبه ... سعى لطفه يوما فضمهما صلحا
دعاني فيمن قد دعاه بلطفه ... فأضربت عن داعي القبول له صفحا
وقلت له لاتطيبني محاسن ... أتيت بها فليلحني فيك من يلحى
فلي همة لا أرتضي أن أحطها ... لما يقتضي من حالها اللهو والمزحا
أخاف عليها أن تشاب بغير من ... جوانحنا من حبه قد غدت طفحا
ومن ملكت اثاره الناس كلهم ... فمن مبتغ منحا ومن متق رمحا
فتى جمعت فيه المحاسن مفردا ... خصوصية فاستوجب الحمد والمدحا
إذا حسن اسمه الشريف جرت به ... منا طقنا ازدانت به سائر الأنحا
فقد حسن الله اسمه وفعاله ... وحقق في معناه ما يعجزه الشرحا
خليفة مولانا الإمام ونجله ... وعمدته فيما يروم له نجحا
ترشح في حال الصبا لتحمل الـ ... خلافة فاستعلى من آطامها الصرحا
له اليمن عين والسعادة ساعد ... ينيلانه التيسير والنصر والفتحا
تمهد سوس منذ ولي أمره ... مع الحوز حتى صارأهلهما مرحى
فقد سار في تهذيبهم خير سيرة ... فنالوا بها الربح الذي أعظم الربحا
وما احتاج في تمهيدهم غير رأيه ... وتدبيره لا العاديات بها ضبحا
فكم هزم التدبير والرأي عسكرا ... ولم يغنه ان أعمل السيف والرمحا
وكم كف كف الجور والبغي عدله ... وكم وكفت كفاه للمعتفي سحا
فيا سيدا يغني العفاة تكرما ... عليهم كما يفنى العداة إذا أنحى
ليهنك والأنام بسرء إمامنا ... وعافية أضحت لمغربنا روحا
فإن سلامة الإمام سلامة ... لكل رعاياه وأعظم بها ربحا
أدام الإله عزه وبقاءه ... وعوضه من كل ما مرض صحا
ويهنيك بالمجد السعيد وبالرضا المـ ... ـزيد وإدراك المنى عيدك الأضحى
تؤمك أشتات الوفود تقربا ... إليك فتوليها المبرة والمنحا

فطوبى لمن أمسى ليومه شاهدا ... هناك مشاهدا محياك أو أضحى
لئن عاق عبد الدار عن ذاك بعده ... فقد زاره قلبا وإن لم يزر شبحا
وزف إلى ذاك الجناب خريدة ... مخدرة عن غيره قد طوت كشحا
عسى أن ترى منه بعين الرضى إذا ... تأملها خبرا وحققها لمحا
فإن ترضه أو يرضها فاز قدحها ... ولم يلف فيها ناقد عيبا أو قدحا
على أن در مدحها لك زانها ... فإن نقصت فصحا فقد كملت مدحا

‹وهذا القاضي عين أعيان زمانه، لا خصوص قطره وبلده، قد أدرك المجد يافعا قبل بلوغ أمده، محتده كريم، ومفخره عظيم، ومحاسنه في جيد الزمان لؤلؤ نظيم، تحلى بالأدب الظاهر، والفضل الباهر، والكرم الذي صار به حاتم أيامه، وتدين به في قعوده وقيامه، فاتفقت القلوب على حبه، والألسن على امتداحه، لدينه وحسن خلقه وسماحه›(28).

ومما رفعت لحضرته نصره الله في بعض أعياد الفطر عند ختمه للصحيح الجامع هذه الميمية الكاعب العذرا، التي هي بالتقدم أحرى، وهي :

حديث الحمى يهتاج منه غرامي ... ومن بان عند البان فيه مرامي
أعيدوا على سمعي محاسن ذكرهم ... وماذا عليكم في ارتداد كلامي
ولا تنكروا مني حنينا إليهم ... فإن حنين الصب غير حرام
ألا حظهم خلف النوى ثم أنثني ... بأربعة مثل الغمام سجام
سقى الله صوب الغيث أو بمدامعي، ... أباطح حلوها وراء آكام
وإن بخلوا حتى بطيف خيالهم ... يمر سرارا في ضمير ظلام
فكم ظمأ بين الضلوع اجنه ... إلى ظبيات في الصريم ظوامي
ولا أتناسى ما حييت معاهدا ... مخضلة يبتل منها أوامي
أقمت زمانا عندها بمسرة ... بنجد وقد ساء الغيور مقامي
وغالبت ريب الدهر فيها على المنى ... فلم تتكدر صبوتي بملام
وقضيت فيها العيش غضا كأنما ... أعير ازدهاء الروض غب رهام
هوى سلب الأيام غير ادكاره ... فتعلو له الأنفاس وهي حوام
وحق المعالي حلفة لا يبرها ... على لَغَب إلا نفوس كرام
لشد الذي نالته مني صبابتي ... ولذ لقلبي شقوتي وهيامي
رضيت بدين الحب لا أبتغي به ... بديلا وفي حبي فضضت لجامي
ولا أختشي كيد الليالي وأهلها ... ولا أتقي منهن رمية رام

(28) ما بين العلامتين سقط من (ك) و (ش) و (ف).

فلي عدة للحادثات أعدها ... محمد نجل المالك بن هشام
سأنزل من عليائه كل حاجة ... إلى ماجد رحب الثناء همام
وأطفئ إن شب الخطوب ضرامها ... بنجل أمير المؤمنين ضرامي
وجيه مهيب كلما لاح وجهه ... تلفع رغما أوجه برغام
أغر المساعي توجته جلالة ... تغض لها الأبصار وهي سوام
محجب أفناء إذا ما ذكرته ... ذكرت ربيعا مستهل غمام
وإن تدع يوما باسمه لمهمة ... وجدت منال الرغب حول ثمام
يفيض الندا من راحتيه على الورى ... تفيض نائي الحجزتين ركام
فتى لا يسير الدهر إلا بسيره ... يقادله طوعا بغير خطام
تشاهده بدرا تكامل حسنه ... إذا ادرع الفرسان ليل قتام
إذا ركب ارتجت له الأرض كلها ... بذي لجب جم الصهيل لُهَام
يجاذب أطراف الأعنة واطئا ... على جثث للمارقين وهام
إذا مال قوم للضلال وأوغلوا ... وأغواهم طغيان كل طغام
رماهم بعقبان عليها ضراغم ... سيوفهم فيها مدب حمام
وروى غليل المشرفية منهم ... وحكم في الأوصال كل حسام
وطهر دين الله من كل فاتن ... وأبرأه من علة وسقام
فما زال بالبيض الصفاح وبالقنا ... يدافع عنا دائما ويحامي
ويحيي من الآثار ما كان دارسا ... تعاظم عن إدراك كل امام
فأجرى من الأنهار ما روض الفضا ... وأبدت فيه الأدواح حسن قوام
وفجر في القفر المهامه أبحرا ... تموج بأحلى من كئوس مدام
تفيض فتغني الأرض عن واكف السما ... من المزن رجاف الرواعد هام
فهبت به الآمال بعد ضياعها ... لدى معشر عن رعيهن نيام
أيا سيدا لم يبق فخرا لسادة ... شيوخ وقد أضحى بسن غلام
فلله مجد أعجز النجم دركه ... أحلك أعلى ذورة وسنام
بقيت لناما لاح في الأفق كوكب ... وما جاء فطر بعد شهر صيام
تقيم لنا في كل عام مواسما ... ذوات وجوه للوفود وسام
وأعظمها قدرا وأحسن منظرا ... جلوسك للإقراء يوم ختام
ختام الصحيح الجامع الحجة الذي ... رميت إلى احكامه بزمام
تحكمه عند الحكومة مثلما ... تقوم بحكم الوحي خير قيام
فمن نوره الوضاح تقتبس الهدى ... وترمي به نحو العدا بسهام

فنـورك نـور اللـه ليـس بمنطـــف   وسيفك سيـف اللـه غيـر كهـــام
وأهـدي إلى مثـواك منـي بشائـــرا   دواني قطـاف فـي بديـع نظـــام
على وجهك المحمود في كل موطن   صـــلاة من المولى وأزكى ســـلام

ساقة الجيش العرمرم، الغالب المظفر المغنم(*)
في أركان الملك ودعائمه، وأوتاده وقوائمه

اعلم أن للملك أمورا لا يقوم إلا عليها بناؤه، ولا يستنتج إلا من مقدماتها هناؤه، وأمورا يكمل بها حسنه ورواؤه، وينصع بها بهاؤه(*)، ويشرق بها ضياؤه، ومجموع القسمين هو المستفاد من هذه الساقة، وإليها يوجه الاعتناء مساقه.

أمَّا القِسم الأول : وهو ما لا يقوم الملك إلا به، وهو أولى ما تنصرف الهمة أولا إلى استجلابه، وهي أمور سبعة : العدل، وحسن السيرة، وحسن النظر(*)، وذكاء الفطنة، والمشورة، وتدبير الحرب، وجباية الأموال، وهذه الأمور كلها في الحقيقة ترجع الى السياسة.

وأمَّا القِسم الثَّاني : وهو الأمور التي يكمل بها حسنه، فالشجاعة، والحلم، والجود، فهي ثلاثة، وفي هذا القسم تذكر أمور مستحسنة، يجر بها القلم رسنه، وأمور أخرى تلزم الملك لزوم الظل لشخصه، وشعاع الشارق لقرصه، وهي الحجابة، والوزارة، والقهرمانة، والكتابة، فمجموع المسائل التي يسأل عنها في هذه الساقة أربع عشرة مسألة، ولك أن تدعوها السرايا لمناسبة الجيش، والخاتمة في مواعظ تناسب الملوك، وتهدي الموفق منهم إلى سبيل النجاة في السلوك، والله المستعان،

السرية الأولى من القسم الأول في العدل

قال الله تبارك وتعالى {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} قرن الله العدل مع الإحسان إشارة إلى أن العدل قد لا يمكن إلا مع الإحسان، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي العطاء البالغ للمؤلفة، لأن مجرد العدل فيهم لا يمكن في الحال، ومنزلة الإمام العادل عند الله تعالى عظيمة، قال صلى الله عليه وسلم : «عدل الإمام في رعيته يوما واحدا

(*) في الأصل و (م) المغنم وفي (ف) و (ش) و (ك) المعظم.
(*) في (ش) ساقط.
(*) نفي (ش) النظام.

خير من عبادة خمسين سنة بقيامها وصيامها»(1)، وقال صلى الله عليه وسلم: «الإمام العادل لا ترد دعوته»(2)، وما ذلك إلا لما فيه من صلاح هذا النوع الإنساني الذي هو أشرف المخلوقات، فبالعدل تصلح الدنيا وتعم البركة، وتكثر المنافع، وبه يكون صلاح الآخرة، فما أحق ما به صلاح الدنيا والآخرة أن تعظم منزلته عند الله تعالى، قيل: ليس فوق منزلة الإمام العادل منزلة إلا نبي مرسل، أو ملك مقرب، وقد وعد الله تعالى أهل العدل بالنصر على الأعداء لنصرهم شريعته، فقال: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}، ثم بين سبحانه من ينصره فقال {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر} وما بعث الله رسولا، ولا أنزل كتابا، إلا لتحصيل هذه الخصلة الشريفة، قال الله تعالى {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله} وقال {إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق}، قال الفهري العدل ميزان الله في الأرض، يؤخذ به(*) للضعيف من القوي، وللمحق من المبطل، فمن رفع ميزان الله الذي وضعه بين عباده، فقد تعرض لسخط الله، وقالت الحكماء: المملكة صورة في صورة رجل، فرأسه الملك، أي السلطان، وقلبه قوته، ويداه الجند، ورجلاه الرعية، وروحه العدل، فمملكة لا عدل فيها كجسد لا روح فيه، «ومما يعين الملوك على العدل تقريب من يؤثر التقوى، واجتناب من يقبل الرشاء واستكفاء من يعدل في القضية، واستخلاص من يشفق على الرعية، فإنه ما عدل من جار وزيره، ولا صلح من فسد مشيره»(3)، ولما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن البصري وقال له: اكتب لي صفة الإمام العادل، فكتب إليه: اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العدل قوام كل مائل، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل كالراعي الشفيق الذي يرتاد لماشيته أطيب المراعي، ويذودها عن المراعي المهلكة، ويحميها من أذى السباع وغيرها، وكالأب الحان على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، ويكتسب لهم

(1) نص عليه الشنراني في شرحه "مختصر ابن أبي جمرة ص 84 ولم يخرجه.
(2) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه والامام احمد.
(3) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ف) و (ك) أثبتناه هنا.
(*) (منه) في (ك).

في حياته، ويدخر لهم بعد مماته، وكالأم الشفيقة على ولدها، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته، وكالقلب بين الجوارح، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العادل قائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، الى آخر كلام الحسن، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامه في الخاتمة.

وروى أن عامل حمص كتب إلى عمر بن عبد العزيز أن سور المدينة احتاج إلى تحصين، فكتب إليه عمر حصنها بالعدل، ونق طرقها من الجور والسلام، وروي أن بعض عمال أبي جعفر المنصور غصب ضيعة لرجل، فارتحل ذلك الرجل حتي أتى أبا جعفر فاستأذن فأذن له، فلما وقف بين يديه قال : أصلح الله أمير المؤمنين إن الطفل الصغير إذا نابه مكروه إنما يفر إلى أمه لأنه لا يعرف غيرها، فلا يرى ناصرا له فوقها، فإذا ترعرع واشتد وأوذي كان فراره إلى أبيه لعلمه أن أباه أقوى من أمه، فإذا بلغ وصار رجلا ونزل به أمر شكا إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا قوي عقله واشتد به الأمر شكا إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكا إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعتها إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلى بيت الله وحرمه، فقال بل ننصفك ولا نحوجك إلى هذا، فكتب إلى الوالي برئت من آبائي الكرام إن لم ترد إلى هذا ضيعته ساعة قراءتك كتابي لأتاك مني ما لا قبل لك به، وزود الرجل وأحسن إليه وانصرف، وقال يزدشير لولده : إن الملك والعدل أخوان، لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالملك أس، والعدل حارس، فما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع، وقد قال وهب بن منبه : إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في مملكته في الأسواق والزرع والضرع وفي كل شيء، وإذا عمل بالخير أو هم به أدخل الله البركة في مملكته في كل شيء، ولما لقي سفيان الثوري أبا جعفر المنصور قال له : إني أعلم أن رجلا إن صلح صلحت الأمة وإن فسد فسدت الأمة، قال : ومن هو ؟ قال أنت، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ملكا خرج يسير في مملكته مستخفيا، فنزل برجل له بقرة فراحت البقرة وحلبت قدر حلب ثلاثين بقرة، فعجب الملك مما رأى، وحدث نفسه بأخذها،

فلما راحت من الغد حلبت على النصف، فقال الملك لربها، ما بال حلابها نقص، أرعت في غير مرعاها بالأمس ؟ قال : لا، ولكن أظن أن ملكنا هم بأخذها، فإن الملك إذا هم بالظلم أو ظلم ذهبت البركة. فعاهد الله تعالى في نفسه وتاب ألا يأخذها، فلما راحت من الغد حلبت حلب ثلاثين بقرة، فعاهد ذلك الملك ربه ألا يترك العدل ما بقي انتهى.

‹ومثل هذا ما حكاه محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه عن ملك شاه بن البارسلان السلجوقي، وكان سلطانا عظيم الشأن، متظاهرا بالعدل. قال الهمداني : إنه دخل عليه واعظ فوعظه فقال له : إن بعض الأكاسرة اجتاز يوما منفردا عن عسكره على باب بستان فطلب ماء يشربه، فأخرجت له صبية إناء فيه ماء السكر والثلج، فشربه وأعجبه واستطابه، فقال لها : كيف يصنع هذا ؟ فقالت له : إن قصب السكر عندنا يزكو حتى إننا نعصره بأيدينا، فيخرج منه هذا الماء، وكانت الصبية لا تعرفه، فقال لها : ارجعي وأحضري منه شيئا آخر، فرجعت فقال في نفسه : الصواب أن أعوضهم من هذا المكان وأصطفيه لنفسي، فلم يكن بأسرع من خروجها باكية، فقال لها : ما بالك ؟ فقالت : إن نية سلطاننا قد تغيرت، فقال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : كنت آخذ من هذا القصب ما أريد فأعصره من غير تعسف، والآن قد أجهدت نفسي في عصره فلم يسمح لي إلا بقليل، فقال لها : ارجعي فإنك تجدينه كما تحبين، وعاهد الله تعالى ألا يفعل ما كان عزم عليه، فخرجت ومعها شيء من السكر وهي فرحة مستبشرة، فقال السلطان لذلك الواعظ : ما لك لا تعظ الرعية ؟ وتقول لهم إن كسرى اجتاز على بستان فقال للناظور : ناولني عنقودا من حصرم عنبك، والناظور لا يعرف أنه كسرى، فقال له : لا يمكنني ذلك، فإن السلطان إلى الآن لم يأخذ حقه منه، فلا يحل لي أن أخونه انتهى، فتعجب الناس الحاضرون من مقابلة الحكاية بمثلها ومعارضته ما أوجب الحق عليه بما أوجب الحق له انتهى›(4) وفي هذا القدر كفاية في بيان فضيلة العدل الذي هو روح جسد المملكة، ولو ذهبنا إلى بسط القول في هذا المقام بذكر وقائع العدل الصادرة من الخلفاء الراشدين وأمراء السلف لأدى ذلك الى الطول الموجب للسآمة.

---

(4) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش) و (ف) و (ك) ومددناه بخط مؤلف الأصل بهامشه فأثبتناه هنا تتميماً ؟

وهي من السياسة لما قدمنا، قال الله تبارك وتعالى : {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته»(5) وقال أبو بكر رضي الله عنه : لا يصلح هذا الأمر إلا شدة في غير عنف، ولين في غير ضعف، وقال معاوية رضي الله عنه لصعصعة بن صوحان :(6) صف لي عمر بن الخطاب، فقال : كان راحما لرعيته، عادلا في قضيته، عاريا من الكبر، قابلا للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحريا للصواب، رفيقا بالضعيف، انتهى، وروي أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام أن يعرفهم الزمان الذي يرضى فيه الله سبحانه وتعالى عن الناس، فقال : إذا استعمل عليهم الهيّن اللين الحيي، انتهى، وأوصى أبرويز ولده شيرويه فقال : لا توسع على جندك ساعة يستغنون بها عنك، ولا تضيق عليهم ضيقا يضجرون به منك، وأعطهم عطاء قصد، وامنعهم منعا جميلا، وابسط لهم في الرجاء لا في العطاء انتهى.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، جزأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزءا لله، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول : «أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط، وأمنه من يوم الفزع الأكبر، انتهى». وكان بعض الملوك أصابه صمم فأهمه ذلك من أجل رعاية المظلومين، فأمر بالنداء في جميع مملكته ألا يلبس الأحمر إلا من كان مظلوما، وقال : لئن منعت سمعي لم أمنع بصري، والحمد لله، فكان كل من رآه لابسا الأحمر استكشفه عن مظلمته، فقضى فيها بالحق، وسئل بعض الملوك بعد خلعه : ما سبب ذهاب ملكك ؟ فقال : الاشتغال باللذات، عن التفرغ للمهمات، ووثقنا بعمالنا فآثروا مرافقهم علينا، فظلموا الرعية، ففسدت لنا منهم الطوية، فضعفت

(5) رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي.

(6) صعصعة بن صوحان من أهل الكوفة. قال ابن سعد : كان من أهل الخطط بالكوفة وخطيبا، وهو من أصحاب سيدنا علي، وشهد معه وقعة الجمل وأسلم في عهد الرسول ولم يره، توفي في خلافة سيدنا معاوية.

الإمارة، وقل الخراج، وبطل العطاء، فلما قصدنا العدو، قل الناصر، وأعظم ما أوجب زوال ملكنا استتار الأخبار عنا انتهى، قال الفهري : ومعظم ما رأينا وسمعنا ممن سبقنا في دخول الفساد على الملوك من حجبتهم عن مباشرة الأمور، قال : ولا تزال الرعية ذات سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب عنهم فهنالك سلاطين كثيرة، انتهى، ولما غزا سابور ذو الأكتاف ملك الروم، وخرب كثيراً من بلاده، كتب إليه : أخبرني بالذي سست به مملكتك، حتى قويت على ما أرى وبلغت ما لا يبلغه أحد من الملوك، فإن كان ما يضبط به الملك أديت إليك الخراج، وصرت كبعض رعيتك، فقال له سابور : إني لم أزد في السياسة على أني لم أهزل في أمر ولا نهي، ولا أخلفت في وعد ولا وعيد، ووليت أهل الكفاية، وأثبت لا على الهوى، وضربت للأدب لا للغضب، وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة ولا ضغينة، فدانت لي الرعايا وأدت الخراج، انتهى، وقال زياد لحاجبه : إني وليتك حجابتي، وعزلتك عن أربعة منها : عن المنادي للصلاة، لا تعرجه عني، ولا سلطان لك عليه، وعن طارق الليل لا تحجبه فإنه ما جاء به تلك الساعة إلا أمر مهم، وعن رسول الثغور، فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علي ولو كنت في لحافي، وعن صاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد، وأوصت بعض الملوك أمه فقالت له : يا بني، ينبغي للملك أن تكون له ستة أشياء، وزير يثق برأيه، ويفضي إليه بسره، وحصن يلجأ إليه إذا خاف وسيف إذا نازل الاقران لم يخش أن يخونه، وذخيرة خفيفة المحمل أذا نابته نائبة كانت معه، وزوجة إذا دخلت عليه أذهبت همه وحزنه، وطباخ إذا لم يشته طعاما صنع له ما يشتهيه، انتهى، وكتب بعض الملوك ثلاث رقاع، ودفعها لوزيره، وقال له : إذا رأيتني غضبت فادفع لي واحدة منها، وكان في إحداها إنك لست بإله فتفعل ما تريد، وإنك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضا، وفي الثانية ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، وفي الثالثة اقض بحكم الله بين الناس فإنه لا يصلحهم إلا ذلك.

لما احتضر أبو بكر الصديق أرسل إلى عمر رضي الله عنهما، وقال له : إن وليت على الناس فاتق الله والزم الحق، فإنه ما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة إلا باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحق الميزان إذا وضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة إلا باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفته عليهم، وحق الميزان اذا وضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفا.

واعلم أن لله تعالى عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وأن الله تعالى ذكر أهل الجنة بحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئها، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف ألا ألحق بهم، وأن الله ذكر أهل النار بسوء أعمالهم فرد عليهم أحسنها، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف أن أكون منهم، وأن الله تعالى ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون المؤمن راهبا لا يتمنى على الله، فإن أنت حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن أنت ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه، انتهى، وقيل للاسكندر : فلان يسيء الثناء عليك، فقال : أنا أعلم أنه ليس بشرير، فينبغي أن نعلم هل نابه من جانبنا أمر دعاه الى ذلك، فبحث عن حاله فوجدها رثة فأمر له بصلة سنية، فبلغه بعد ذلك أنه بسط لسانه بحسن الثناء عليه، فقال : أما ترون أن الأمر إلينا فيما يقال فينا من خير أو شر، انتهى، فهذا من حسن النظر، وكان لعبد الله بن الزبير أرض مجاورة لأرض معاوية رضي الله عنهما قد أقام فيها معاوية عبيدا يعمرونها، فدخلوا في أرض عبد الله، فكتب إلى معاوية : أما بعد، يا معاوية : فانْهَ عبدانك عن الدخول في أرضي وإلا كان لي ولك شأن، فلما وقف معاوية على كتابه، دفعه إلى ابنه يزيد، فلما قرأه قال له : ما ترى ؟ فقال أرى أن تنفر إليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه، فقال : أو خير من ذلك يا بني، علي بداوة وقرطاس، فكتب : وقفت على كتاب ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، وقد كتبت له على نفسي صكا بالأرض والعبدان، وأشهدت

على فيه، فليضفها مع عبدانها إلى أرضه وعبيده، والسلام. فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية، كتب إليه : وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل، والسلام. فلما بلغ معاوية، قال لولده : إذا بليت بمثل هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء، انتهى.

ولما خاف المامون انتقاض أهل خراسان بيعتهم عليه أيام فتنته مع أخيه الأمين، استشار وزيره الفضل بن سهل فقال له الفضل : إنك قد قرأت القرآن والحديث، فأرى أن تجمع العلماء وتحسن إليهم، وتكرم القواد والملوك وأبناءهم وتعدهم بالمواعيد السنية، والمراتب العالية، وتحط ربع الخراج عن الرعية، ففعل ذلك فمالت إليه وجوه الخلائق وقالوا : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا، انتهى، وقال ابن الهندي : رفعت إلى المامون أن رجلا ما زال يصرخ بذمه، قال فدعاني، وقال لي، قد عرفت قصة الرجل، وأنا عازم على أن أوجه إليه عشرة آلاف دينار أقطع بها لسانه عني، فقلت : يا أمير المؤمنين، إذن يطمع فيك كل من في مثل حاله حتى يطمع فيك السوقة، ومثل هذا يؤدي إلى الإجحاف بأموال أمير المسلمين والجرأة عليه، فقال : والله لئن كان ما تخاف لأفتحن بيوت أموالي ولأغلقن عن شتمهم أسماعي، فألق هذا الرجل وادفع له عشرين ألف دينار يصرفها فيما ينوبه، وأخبره أني على توليته، قال : ففعلت، ثم دعا بالرجل فرفع مجلسه وولاه.

السربة الرابعة من القسم الأول في ذكاء الفطنة

كثيرا ما أتى الملوك من تولية الأمور لخامدي الفطن وأهل التغفل، وإن كانوا أمناء صالحين كما وقع لمولانا علي كرم الله وجهه في قضية التحكيم لما وجه لذلك أبا موسى الأشعري في مقابلة من هو أدهى أهل زمانه عمرو بن العاصي، ذكر الجرجاني آخر كتاب الكنايات ما نصه : وحكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : بلغني أن عتبة بن أبي سفيان قال لابن عباس رضي الله عنه ما منع عليا أن يبعثك مكان أبي موسى ؟ فقال عبد الله بن عباس منعه حاجز القدر، وقصر المدة، ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثني لاعترضت في مدارج نفس معاوية ناقضا لما أبرم، ومبرما

لما نقض، أسف إذا طار، وأطير إذ أسف، ولكن مضى قدر وبقي أسف، والآخرة خير لأمير المؤمنين، فقال في ذلك خريم بن فاتك الأسدي(7) مشيرا لهذه القضية :

لو كان للقوم رأي يرشدون به ... أهل العراق رموكم بابن عباس
لله در أبيه أيما رجل ... ما مثله لفصّال الأمر في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس

انتهى.

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إني لأستعمل الرجل وأدع خيرا منه، لأنه أيقظ عينا، وأوسع ذهنا، وأشد جرأة، وأصبر على شدة، انتهى، وبعض الناس ينسب هذا القول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومما يذكر من ذكاء الفطنة الصادر من الملوك، ما روي عن المنصور بن أبي عامر أنه قدم عليه تاجر من اليمن بجوهر نفيس وأحجار ياقوت كثيرة، فأخذ منه ما استحسنه، ورد إليه الباقي، فصرّه التاجر في قطعة يمانية حمراء وأخذ طريق الرملة على الشط، وكان اليوم حارا فدعته نفسه إلى التبرد في النهر، فنزع ثيابه ووضع الصرة عليها، ودخل في النهر يتبرد، فمرت حدأة فاختطفت الصرة تحسبها لحما، وارتفعت بها في الأفق حتى قطعت ما أدركته عين الرجل، فقامت عليه القيامة حتى أصابته من ذلك علة، فلما كان وقت دفع أثمان ما اشترى من التجار، جلس المنصور بن أبي عامر لذلك بنفسه، فنظر المنصور الى التاجر فاستبان له ما هو عليه من المهانة والكآبة بعد النشاط وشدة العارضة، فسأله عن شأنه فأعلمه بقصته، فقال له : هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر ؟ فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها، قال : مر مشرّقا على سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك، يعني الرملة، فدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال له : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى وجاء بهم سريعا، فقال لهم ابحثوا عمن غير حال الإقلال منهم سريعا، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا في ذلك ثم قالوا ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناوبون السبق على

(7) خريم بن الأخرم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وكعب الاحبار توفي بالرقة في عهد سيدنا معاوية.

أقدامهم عجزا عن شراء دابة، فابتاع الآن دابة واكتسى هو وأولاده كسوة متوسطة، فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور فاستدناه والتاجر حاضر، وقال له سبب ضاع منا وسقط إليك، فما فعلت به ؟ فقال ها هو ذا يا مولانا فضرب بيده الى حجزة سراويله وأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طربا وكاد يطير فرحا، فقال له المنصور صف لي حديثها، فقال نعم، بينما أنا أعمل في جنان تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها، وراقني حسنها، ومنظرها، فقلت إن الطائر اختطفها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة دنانير عيونا كانت معها في الصرة، وقلت أقل ما يكون من كرم مولانا المنصور أن يسمح لي بها، فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر خذ صرتك وانظرها واصدقني عن عددها ففعل وقال : وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها، وقد وهبتها له، فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا ننقض عليك فرحتك، ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفورا، ثم أمر للتاجر بالعشرة دنانير ولصاحب الجنان بعشرة دنانير ثوابا على تأنيه عن إفساد ما وقع بيده، وقال له لو بدأتنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناك جزاءا وإحسانا، قال : فأخذ التاجر في الثناء على المنصور وقال له : والله لأبثن في الأقطار عظمة ملكك، وأبين أنك تملك طير عملك كما تملك بشرها، فلا تعتصم منك ولا توذي جارك فضحك المنصور وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك، انتهى.

وذكر ابن عذارى في البيان المغرب حكاية أخرى عن المنصور بن أبي عامر أغرب من هذه تدل على شدة فطنته ودهائه ونصه : قال ابن حيان إنه أي المنصور كان جالسا في بعض الليالي وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فدعا بأحد الفرسان وقال له : انهض الآن إلى فَجّ طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سقه إلي، قال فنهض الفارس في الحين وبقي في الفج في البرد والريح والمطر، واقفا على فرسه إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الحطب، فقال له الفارس : إلى أين تذهب يا شيخ ؟ قال وراء حطب، فقال الفارس في نفسه : هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا فما عسى أن يريد المنصور منه، قال :

فتركته، ثم فكرت في قول المنصور وخفت سطوته، فنهضت الى الشيخ وقد سار عنّي قليلا، فقلت له : ارجع الى مولانا المنصور، فقال : وما عسى أن يريد المنصور مني ؟ سألتك بالله لا تفعل واتركني لطلب معيشتي، فقال له الفارس : لا أفعل ولا أتركك حتى تقوم بين يديه، ثم قدم به على المنصور ومثله بين يديه، فقال المنصور للصقالبة أي عبيد الدار فتشوه هل تجدون معه كتابا، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا، فقال فتشوا بردعة حماره، فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى يأمرونهم أن يقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي المعلومة، فلما انبلج الصبح أمر المنصور بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم(8)، انتهى، وهذا من العجائب التي كادت أن تكون من الإخبار بالغيب، لا مدخل للدهاء فيها، ولكنها سعادة محضة.

‹ومما حكاه القاضي شمس الدين بن خلكان في ترجمة ملك شاه بن البارسلن أن سواديا لقيه وهو يبكي، فسأله عن سبب بكائه، فقال : إنني ابتعت بطيخا بدريهمات لا أملك غيرها، أردت الاستفضال ببيعها أتقوت بذلك، فلقيني ثلاثة أغلمة أتراك فأخذوه مني، ومالي حيلة سواه، فقال له : أمسك ثم استدعى فراشا وقال له : إن نفسي اشتاقت إلى البطيخ، فطف في العسكر وانظر من عنده شيء منه، فأحضره فعاد ومعه بطيخ، فقال له عند من رأيته ؟ فقال عند الأمير فلان، فقال فأحضره، فقال له : من أين لك هذا البطيخ ؟ فقال جاء به الغلمان، فقال : أريدهم الساعة، فذهب وقد عرف نية السلطان فيهم، فهربهم وقال : لم أجدهم فالتفت السلطان الى السوادي وقال له : هذا عبدك قد وهبته لك حيث لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك، والله لئن خليته لأضربن عنقك، فأخذ السوادي بيده وأخرجه فاشترى الأمير منه نفسه بثلاثمائة دينار، فعاد الى السلطان وقال يا سيدي قد بعت ذلك العبد بثلاثمائة دينار، فقال له : وقد رضيت ؟ قال : نعم يا سيدي، قال اذهب بسلام›(9)، انتهى.

(8) قصة الشيخ في (بيان المغرب) لابن عذارى ج 2 ص 290.
(9) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش) و (ف).

ومما روي من دهاء إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية أن رجلا من سجلماسة ذكرت له رفقة توجهت إلى مصر، فخرج مبادرا ليدركها ومعه ثلاثة آلاف دينار، قال : فإذا بالرفقة قد فاتتني، فجعلت أطوي المراحل وحدي حتى وصلت إلى قابس، فلما خرجت منها وسرت أميالا لقيني سبعة من الفرسان، فأنزلوني عن دابتي وأخذوا الخرج بما فيه، وأرادوا ذبحي فتضرعت إليهم، فقلت : قد أخذتم ديتي مضاعفة، وأنا رجل غريب لا أعرفكم، فأطلقوني، فرجعت إلى قابس، ثم سرت إلى القيروان، وقصدت الأمير إبراهيم بن الأغلب وهو في المقصورة، وقلت رجل غريب، وصحت وراءها رجل ملهوف، فأمر بإدخالي وسألني عن أمري ؟ قصصت عليه قصتي، فأمرني بالجلوس وجعل يأمر وينهى ويسارر بعض من هو معه، وظننت أنه نسيني، فلما انصرف قال لخادمه : الحقني بهذا الرجل، فركب ومضينا في أثره حتى دخل القصر، فأدخلت في بيت وأنا لا أدري ما يفعل بي، فبعد ساعة أتيت بالمائدة التي رفعت من بين يديه فوضعت بين يدي فاطمأننت وأكلت ونمت، فلما انتبه الأمير من قائلته دعاني فرفعت إليه وهو في روشن على باب القصر، وقد فتحت البويبات التي فيه، فأمرني بالجلوس إلى جنبه، وإذا به قد دعا حاجبه في الوقت الذي ذكرت له قصتي، وقال له : هل وجهت إلى طرابلس خيلا في هذه الأيام ؟ قال : نعم، وجهت سبعة من الفرسان، وقد أتوا، فقال له مر جميع من على بابك من الخيل أن يأتوا بعد قيامي من القائلة، ووجه مناديا بأسمائهم، قال فوقف خادم بين يدي القصر ينادي فلان بن فلان، فيجوز ناحية، وقال لي إن وقعت عيناك على واحد من أصحابك فعرفني به، فكلما مر واحد عرفته به فيأمر بوقوفه ناحية، فلم يزالوا يمرون حتى عرفت السبعة، فأمر بصرف غيرهم وأدخل السبعة وأنا جالس إلى جنبه، فقال لهم : أتعرفون هذا الرجل ؟ فأنكروا، فجعل يلاطفهم حتى قالوا نحن سلبناه، وماله بدار فلان في الخرج لم نأخذ منه إلا سبعة دنانير، فقال : أحضروها فجاءت ووضعت في المال، وقال لي خذ متاعك، وقال لي أتقيم أو تلحق بالرفقة ؟ فقلت له وأنّى لي بالرفقة ؟ فقال لي لم أبرح من الجامع حتى وجهت إلى عامل طرابلس بحبس الرفقة عليك، وإني أوجه معك من يصحبك إليها، فدعوت الله له ووجه معي من يصحبني ويلحقني بالرفقة فبلغتها سالما بجميع مالي، انتهى.

‹ومما حكي من فطنة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور العباسي، أنه لما دخل المدينة في حجته، قال للربيع وزيره أبلغني رجلا عاقلا عالما ليوقفني على دور المدينة، فقد بعد عهدي بديار قومي، فالتمس الربيع له فتى من أعلم الناس وأعقلهم، فكان لا يبتدئ بالإخبار عن شيء حتى يسأل عنه فيجيب بأحسن عبارة، فأعجب المنصور به فأمر له بمال، فتأخر عنه ودعته الضرورة الى استنجازه، فمر ببيت عاتكة بنت عبد الله بن أبي سفيان الأموي فقال : يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل   حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني   قسما إليك مع الصدد لأميل انتهى

ففكر المنصور في قوله وقال : لم يخالف عادته ابتداء بالإخبار دون استخبار، إلا لأمر، وأقبل يردد أبيات القصيدة ويتصفحها شيئا فشيئا حتى وقف على قوله فيها :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم   مذق لحديث يقول ما لا يفعل

فقال المنصور : يا ربيع، هل أوصلت إلى الرجل ما أمرنا له به ؟ فقال إلى الآن ما وصل إليه، فقال : عجله له مضاعفا، انتهى، وهذا من الذكاء والفطنة من أمير المؤمنين المنصور رحمه الله›(10).

السرية الخامسة من القسم الأول في المشورة

شاور سواك إذا نابتك نائبة   يوما وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تبصر ما منها نأى ودنا   ولا ترى نفسها إلا بمرآة

لا أضر على الرأي من الاستبداد، ولا أنفع في الحزم من الاستعداد، وأما ما وقع للرشيد لما استولى عليه وزراؤه البرامكة، فأمر بعض الشعراء مغنية فأنشدته قوله :

(10) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ف).

ليت هندا أنجزتنا ما تعد   وشفت أرواحنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فكان ذلك سبب الانتقام من البرامكة كما هو معروف، فإن هذا مقام آخر، ونوع من المكر والاحتيال على التوصل إلى كفاية من أريدت كفايته من الأعداء، وذلك من الحكم التي اشتمل عليها الشعر كما قيل :

الشعر نار بلا دخان   وللقوافي رُقىً لطيفه

وأما المشورة لو لم تكن أعظم الأسباب، لسعادة أولي الألباب، ما أمر الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : {وشاورهم في الأمر} مع أنه صلى الله عليه وسلم في غاية الاستغناء بأنوار الهداية، بما تكفل الله له به من إرشاده، ووعده به من تأييده وإمداده، وإنما أمره الله تعالى بذلك ليستن به غيره، لما علم فيها من الفضل الكثير، قال صلى الله عليه وسلم : «ما تشاور قوم إلا هداهم الله لأرشد أمورهم»(11)، وقال صلى الله عليه وسلم : «المشورة حصن من الندامة، وأمان من الملامة»(12)، وقال صلى الله عليه وسلم : «لن يهلك امرؤ عن مشورة»(13)، وقال صلى الله عليه وسلم : «من نزل به أمر فشاور فيه من هو دونه تواضعا عزم له على الرشد»(14)، وقال الإمام علي كرم الله وجهه : «نعمت الموازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد، وقال الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الرأي الواحد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين، والثلاثة آراء كالثلاثة خيوط لا تكاد تنقطع، وقال عمر بن عبد العزيز : المشاورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يعضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم، وقال بعض الحكماء : من كثرت استشارته، حمدت إمارته، وقيل لحكيم : ما يؤيد العقل وما يضر به ؟ فقال يؤيده ثلاثة : التثبت، والتجربة، والمشورة، ويضره ثلاثة : العجلة، والتهاون، والاستبداد، وقيل لرجل من بني عبس : ما أكثر صوابكم ! فقال : نحن ألف رجل فينا حازم واحد، فنحن نشاوره ونطيعه فصرنا ألف حازم.

(11) لم نقف على تخريجه.
(12) لم نقف على تخريجه.
(13) لم نقف على تخريجه.
(14) لم نقف على تخريجه.

ويطلب في المشاور أمور : منها أن يكون ذا عقل وافر، قال صلى الله عليه وسلم : «استرشدوا العاقل ترشدوا»(15) وقال عبد الله الكامل لولده محمد النفس الزكية : احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان عدوا، وقال بعض الحكماء : من استعان بذوي العقول، فقد فاز بإدراك المأمول، ومنها أن يكون ذا تجربة للأمور، ولذلك قال مولانا علي رضي الله عنه : رأى الشيخ خير من مشورة غلام، ومنها أن يكون ذا دين، فإن من غلب عليه الدين كان مأمون السريرة، موفق العزيمة، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «من أراد أمراً فشاور فيه مسلما تقيا وفقه الله لأرشد أموره».

ومنها أن يكون ذا نصيحة ومودة، فبذلك يمحض الرأي، ويصدق الفكر، قال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجلي عنك الغمر(16)، ولا يكون ذلك إلا من ناصح ودود، ومنها أن يكون سليم الفكر من هم قاطع، وشغل مانع، فإن من غمرت فكره الهموم، لم يستقر له رأي، وقد مر حارثة بن بدر بالأحنف بن قيس فقال له : لولا أنك عجلان لشاورتك، فقال له : أجل، كانوا لا يشاورون الجائع ولا العطشان ولا الحاقن ولا المضل، يعني الذي ضل رحله أو حمله، ولا الطالب، وكان كسرى إذا أهمه أمر استشار مرازبته، فإن قصروا في الرأي عاقب قهارمته، وقال : أبطأتم بأرزاقهم، فعلقت خواطرهم بها، فأخطأوا في رأيهم، وكان ملوك العجم إذا أرادوا مشاورة رجل أعطوه قوته وقوت عياله لسنة حتى يتفرغ لبه لما يراد منه.

ومنها أن لا يكون له في الأمر غرض، فإن الرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد، ومنها أن لا يكون المشاور ممن سبقت له عداوتك ثم دعته الضرورة الى مصادقتك، فأظهر لك غاية المحبة والنصيحة فإنه يتربص بك الدوائر، ويضمر لك الغوائل، ولا يرتجي صلاحا إلا في فسادك، ولا يرى رفعة إلا في سقوط جاهك، قال الأخطل :

إن الضغينة تلقاها وإن قدمت   كالضر(17) يكمن حينا ثم ينتشر

---

(15) رواه الخطيب، حديث ضعيف.
(16) الغمر مثلث الغين ومحرك. وهو من لم يجرب الأمور. الجاهل الغر.
(17) في (ش) فالضر.

وفي حكمة الهند : إذا أحدث لك العدو صداقة لعلة الحاجة إليك، فمع ذهاب العلة ترجع العداوة، كالماء تسخنه فيسخن، فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله باردا، والشجرة المرة لو طليتها بالعسل وسقيتها برب النخل ما أثمرت إلا مرا، وكل ذي عقل سليم يدرك ذلك كما قال دريد بن الصمة :

وما تخفى الضغينة حيث كانت ... ولا النظر المريض من الصحيح

روي أن بعض ولاة خراسان قطع يد رجل وكان ذلك الرجل دليلا خريتا ثم احتاج ذلك الوالي إلى دليل في بعض غزواته، فلم يجد غير ذلك المقطوع، فدعاه وأحسن إليه ثم سار به وقال له : إني أختصر لك الطريق، فمضى به في مفازة ثلاثة أيام ثم قال له : اسمع إنك الآن في فلاة بينها وبين الماء ثلالة أيام من كل ناحية كلها سبخاء قرعاء لا ماء فيها ولا مرعى، وأنت وكل من معك هالك، فافعل ما بدا لك، فمات هو ومن معه من الجنود عطشا، ومن كلام الحكماء : من نالته إساءتك، فهمته مساءتك، وما أحسن قول صالح بن عبد القدوس :

اذا وترت امرأ فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لم يحصد بها عنبا
ان العدو وان ابديى مسالمة ... اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وقال غيره :

ذعرته ثم أفسحت المجال له ... فلا تنم عنه فالمذعور يقظان

السرية السادسة من القسم الأول في تدبير الحروب

هذا من أشد أركان الملك، فإن أهل الإمامة الكبرى، والرياسة العظمى، بصدد معاداة كل أحد، روى أن المأمون كان في سفر فانعزل عن الجيوش لحاجة، فلما بعد عنهم لقي أعرابيا فسأله المأمون عن اسمه وبلده، فأجابه عن ذلك كله، فقال الأعرابي : قد سألتني فأجبتك، فأنا أسألك من أنت ؟ فقال له : أنا جميع العرب، فقال له : إذن أنت من قريش، فمن أيهم ؟ فقال له : أنا من الذين تعاديهم وتكرههم جميع قريش، قال له : إذن أنت من بني هاشم، فمن أيهم ؟ قال : أنا الذي تعاديه وتكرهه جميع بني هاشم، فقال : إذن أنت المأمون، السلام عليك يا أمير المؤمنين، انتهى.

فإذا كان الإمام بهذه المثابة فما أحوجه إلى الاعتناء الكثير بتدبير أمور الحرب، قال بعض العلماء الحكماء : إن الله تعالى قد جمع آداب الحرب في آية واحدة، وهي قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إن الله مع الصابرين}. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشا أو سرية يقول : «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، تقتلون من كفر بالله، لا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً»(18)، وكتب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ما نصه :

إلى سعد بن مالك ومن معه من المسلمين، أما بعد، فإني آمرك ومن معك بتقوى الله، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من العدو، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة، واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل من هو شر منهم، إذ عملوا بمعاصي الله، كفرة المجوس، (فجاسوا خلال الديار، وكان وعدا مفعولا)، واسألوا العون من الله على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم، وترفق على المسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص منهم ولا من قوتهم، فإنهم صائرون إلى عدو مقيم، جام النفس والكراع، وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة، لتكون لهم راحة بها، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا ترزأوا أحدا من أهلها شيئا، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء

(18) رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجة والدارمي والإمام أحمد.

بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فوفوا لهم ما صبروا لكم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئتم أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض ممن تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك، وإذا دنوت من أرض عدوك فأكثر من الطلائع، وبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا ابتدارهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، واختر للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، واجعل أمر السرايا إلى أهل الرغبة في الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص أحدا بها بهوى فيضيع من أمرك ورأيك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليهم فيه ضيعة، وإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ولا تعاجلهم بالمناجزة، ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنيعه بك، ثم أذك حراسك على عدوك، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم وهو المستعان هـ.

وهذه الرسالة المباركة ما تركت قليلا ولا كثيرا مما يحتاج إليه في الحرب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحرب خدعة»(19)،هـ وقالت الحكماء : رب حيلة أنفع من قبيلة، وقال المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني

فالحازم من الملوك هو الذي يدبر مملكته بالآراء والمحاولة والاحتياط والمداراة التي لا تخل بمنصب الملك، وآخر ما يرتكب قرع الكتائب انتهى، وقد أوصى عبد الملك بن مروان أميرا سيره لأرض الروم فقال له : أنت تاجر الله تعالى لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحا تجر وإلا تحفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك انتهى.

(19) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

وينبغي لمن وجه جيشا أن لا يقدم عليه إلا الرجل الشجاع الباسل البطل، الرابط الجأش، الجريء القلب، الصادق البأس، الممارس للحروب، المقارع للأقران، فقد قالت الحكماء : أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد، انتهى. وأول ما يجب عند إرادة الحرب هو إذكاء العيون كما تقدم في رسالة مولانا عمر رضي الله عنه، ليكون ما يأتي أمير الجيش وما يذر من توقف وحركة وسرعة وإبطاء على معرفة منه، وتيقن بسرائر عدوه، فليختر أمير الجيش لذلك قوما عقلاء فطناء نصحاء أوفياء، لا يقدر غيره على استخراج ما في ضمائرهم، فإن ظفر بهم على هذه الصفة فقد أصاب حاجته، وإن لم يصب على هذه الصفة إلا واحدا ضم إليه جماعة لا يعرف بعضهم بعضا، ويبعثهم مفترقين، فبذلك يعرف صدقهم من كذبهم باتفاقهم واختلافهم، حتى لا يقدم على أمر إلا بعد تيقن حاله، وعلى أمير الجيش أن يخفي نفسه على العدو قدر طاقته، فلا تكون له حالة واحدة يعرف بها من ملبوس أو مركوب أو مستقر أو حلية، بل لا يزال يبدل ذلك ويغيره في أكثر أوقاته حتى يعمي أمره على عدوه، فإنه إذا عرف بزي طلبت غرته، ويحث عليه بكل وجه من وجوه الإذاية والهلاك، فقد اتفق ذلك لكثير من الملوك قبل الإسلام وبعده، وذلك كملك الحبشة باليمن الذي قام عليه سيف بن ذي يزن حسبما ذكر في السير، وكجرجير ملك النصارى بإفريقية الذي قتله عبد الله بن الزبير أيام عثمان بن عفان رضي الله عنهما، كما ذكره أصحاب الفتوحات، وكقضية علي بن عيسى بن ماهان مع طاهر بن الحسين، وكقضية أبي الفتح البارسلان التركي مع ملك الروم وغيرهم ممن يكثر ذكره، ولذلك قالوا : إن أمير الجيش لا يباشر الحرب بنفسه بوجه إلا إذا رأى فرصة يخاف فوتها، أو رأى متورطا في حبائل العدو ورجا إنقاذه، أو رأى ناحية من جيشه يرى فيها خلل ولم يجد من يسده غيره، وليجتهد في إخفاء شخصه عن عدوه في ذلك ما أمكنه، وأما في غير هذه الوجوه فلا ينبغي له أن يباشره، وروي أن المهلب بن أبي صفرة رأى في بعض وقائعه مع الترك اضطرابا من أصحابه، فألقى مغفره على رأسه وتقدم مستسلماً للموت، فأتاه القعقاع بن الأعلم وقال له : أيها الأمير ليس لنا عنك غنى، وأرجو أنك لا تحتاج إلى هذا الذي أردت، ولو أصبت ما كنا إلا كغنم لا راعي لها، وليس للأمير أن يباشر المكافحة ما

وجد من يحامي عنه، فتقدم القعقاع في الناس يحرضهم ويرغبهم في الجهاد، فثابت قوى الجيش فقصدوا الجلاد حتى هزموا العدو انتهى، وقد تقدم لنا في لواء اللمتون أن الشيخ عبد الله بن ياسين قال لأميره يوسف بن تاشفين : إنه وجب عليك حد لابد أن آخذه منك، فقال له : ما هو ؟ فقال لا أذكره لك حتى آخذه منك، فقال له : دونك فكشف القميص عن ظهره، وضربه عشرين سوطا، فقال له : إنك باشرت القتال بنفسك وغررت بالمسلمين.

ومن مكايد الحرب اتخاذ الكمائن، قالوا ويجب أن يختار لها المواضع الخفية المنخفضة، وينتخب لها من الجند أهل التيقظ والجرأة ومن ليس به سعال، ومن الدواب ما ليس له صهيل، ويكون إقدامهم بعد الثقة بإصابة الفرصة، وليكن إيقاعهم كضرام الحريق سرعة، ويكون نهوضهم من مكمنهم في وقت يظن فيه غفلة الحراس، فإن كان في الصيف ففي أشد ما يكون من الحر، وفي الشتاء في أشد ما يكون من البرد، وليكن أكبر همهم النكاية في العدو، قال بعضهم : وكما يجب في حق الملك اتخاذ الجند من السيوف كذلك ينبغي له اتخاذ جند من الكفوف، وذلك مما يتنافس فيه أفاضل الملوك وأخيار الوزراء، ومن أحسن ما روي في ذلك ما رواه الفهري قال : كان نظام الملك وهو الذي تنسب إليه المدرسة النظامية ببغداد قد توزر لأبي الفتح بن البارسلان ملك الترك، وكان وزيرا لأبيه من قبله، فقام بدولتهما أحسن قيام، فشد أركانها، وشيد بنيانها، واستمال الأعداء، ووالى الأولياء، وعم إحسانه العدو والصديق، والمحب والمبغض، والقريب والبعيد، حتى ألقى الملك العزيز بجرانه، وذل الخلق لسلطانه، والذي مهد له ذلك مع توفيق الله تعالى أنه أقبل بكليته على مراعاة حملة الدين، فبنى المدارس للعلماء والرباطات للعباد والصلحاء، وأجرى لهم الجرايات مشاهرة، ورتب لهم الكسا، وعم بالخيرات جميعهم، فلم يكن أحد ينتمي إلى العلم وإلى الصلاح إلا ونالته كرامتهم الشاملة السابغة في جميع مملكتهم، وهي مسيرة أربعة أشهر من أطراف الشام إلى ما وراء نهر جيحون، وما بالشام والعراقين وسمرقند وخراسان إلا من عمته صلته وإحسانه، فيخرج من بيوت أمواله في تلك الأسباب الصالحة ستمائة ألف ألف دينار في كل سنة، فاشتغل به السعاة عند الملك وقالوا : هذه الأموال

يقام بها جيش تركز رايته في سور قسطنطينية، فحمله ذلك على أن قال له يوما : يا أبت بلغني أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف ألف إلى من لا ينفعنا بشيء، فبكى نظام الملك وقال للملك يا بني : أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أبلغ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تبلغ ثلاثين دينارا، وأنت مشتغل بلذاتك، منهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا جميعا كافحوا عنك بسيوف طولها ذراعان، وقسي أقصى مدى مرماها ثلاثون ذراعا، وهم معك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي، وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل، إذا نامت جيوشك قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدي مولاهم، فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم، يدعون لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون، وببركاتهم تمطرون، وبدعواتهم ترزقون، تخرق سهام دعائهم إلى السماء السابعة وتجاوزها بالدعاء والتضرع، فبكى أبو الفتح وقال لنظام الملك : يا أبت أكثر لي من هذا الجيش، فجزاك الله على حسن نظرك خيرا.

السوية السابعة من القسم الأول في جباية المال

إذا أخذ المال من وجهه ووضع في محله أمدته البركات، وحفظته العنايات، فكان نافعا لصاحبه، وإن كان قليلا، مكفولا بالله وكفى بالله كفيلا، وإن كان مجموعا من تهاوش أذهبه الله في نهائر(20) وإن كان كثيرا فهو كأمس الدابر، وهو على الوصف المحمود مادة الملك، وأغزر عناصره، وأقوى مؤيده وناصره، وقد صنع أرسطاليس للإسكندر الشكل الدوري المعروف عند الحكماء، وكتب عليه : العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يؤيده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يقودهم العدل، العدل مألوف به صلاح العالم، العالم بستان، انتهى، وقولنا : وهو على الوصف المحمود أي إذا أخذ من وجهه وصرف في محله، هذا

(20) في الأصل "نهابر" وصوابه "نهائر".

القيد لابد منه في كونه نافعا لصاحبه، وإلا كان وجوده كعدمه، وكثرته كقلته، وهذا مشاهد الضرورة كم رأينا وسمعنا من جمع من الأموال ما لا يعد فلم ينفعه عند الحاجة إليه، بل يكون ماله أشد ضررا عليه، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون لا يدخرون الأموال بل يبذلونها في وجوهها، ويصرفونها في حقوقها، فقد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال الثقيلة فجلس إليها فلم يقم حتى لم يبق منها درهم واحد، ‹وقدمت على عمر رضي الله عنه خزائن كسرى التي ليس على وجه الأرض أكثر منها ولا أفخر ولا أنفس من الذهب والفضة واليواقيت والجواهر والمسك والعنبر والحلي والحلل فوضعت في المسجد، فجلس إليها فلم يقم حتى لم يبق منها درهم واحد›(21) وما ذاك إلا أن ادخارها غير نافع، وإنما ينفع ادخار الرجال وما يقوم بهم من آلات الحرب والكراع، قال بعضهم : بيوت الرجال، خير من بيوت الأموال، لقوله تعالى {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل} وكان بعض الحكماء يقول : عدو الملك بيت ماله، وصديقه جنده، فإذا ضعف أحدهما قوى الآخر، فإذا ضعف بيت المال ببذله للحماة قوي الناصر، واشتد بأس الجند، وأدرك الملك كل ما أراد، وإذا قوى بيت المال بالاختزان ضعف الحماة، وقل الناصر، وهان أمر الملك، فوثب عليه الأعداء انتهى، وقد أوصى بعض الملوك ولده فقال له : يا بني لا تجمع الأموال لتتقوى بها على الأعداء، فإن في جمعها تقوية للأعداء، فإنك إذا جمعت الأموال ضعفت الرجال، فاحتقرك الصديق ووثب عليك العدو انتهى.

ولما قام أبو عبد الله داعية بني عبيد في قبيلة كتامة على أمراء إفريقية واستجابت لدعوته البربر وزحف بهم إلى السلطان زيادة الله القائم بدعوة بني العباس جعل زيادة الله يعطي للناس بلا عد، بل يحثو للرجل ما يحمله من الذهب بالأطباق، ويعطيه من الخيل والسلاح فيخرج من عنده ويذهب للداعية، فلم ينفعه ماله المدخر حين احتاج إليه، لأنه إنما كان ادخر عداوة الناس لما احتجن عليهم مال الله المأخوذ لأجلهم، فكانوا يتربصون به الدوائر، فلما أمكنهم القيام لم ينفعه حينئذ دفع المال بعد فوات محله، وهذا دليل على عدم الانتفاع بالمال المدخر عن أهله.

(21) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش).

وأما قلة البركة فيه فإنه روي أنه لما مات هشام بن عبد الملك بن مروان خلف أحد عشر ابنا، وكان أوصى لهم بمال فاقتسموه، فناب كل واحد منهم ألف ألف دينار، ثم إن الله تعالى محق ذلك كله في مدة قليلة، حتى ما كان يرى من ولده أحد إلا وهو فقير، ولقد شوهد أحدهم يوقد في تنور الحمام، بملء بطنه، ولما حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دعا أولاده وكانوا أحد عشر، فلما نظر إليهم بكى وقال : بأبي وأمي من خلفتهم بعدي فقراء، فقال له مسلمة بن عبد الملك : تعقب يا أمير المؤمنين فعلك، وتدارك أمرك، وأغنهم فما يمنعك أحد في حياتك، ولا يرجعه الوالي بعدك، فنظر إليه مغضبا وقال : يا مسلمة، منعتهم إياه في حياتي، وأشقى به بعد موتي، أما ولدي فبين رجلين، إما مطيع فالله رازقه وكافيه، وإما عاص فلم أكن لأعينه على معصية الله، ثم التفت إلى بنيه وقال : إني لم أترك لكم مالا ولكني تركتكم وما لأحد قبلكم اتباعة، ولا تقع على واحد منكم عين أحد إلا ويرى له عليه حقا. فلما مات خلف بضعة عشر دينارا، فجهز منها بخمسة، واقتسموا الباقي، فحصل لكل واحد ثلاثة أرباع الدينار، ثم إن الله وسع عليهم حتى إن أحدهم جهز مائة فارس من خالص ماله في سبيل الله تعالى.

القسم الثاني : فيما يكون به حسن الملك وكماله، ويظهر به رونقه وجماله وفيه ثلاث سرايا، وخصال حميدة ومزايا.

السرية الأولى من القسم الثاني في الجود

أما الدرجة العليا من الجود فهي خاصة بنبينا مولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب في الأزل بلسان القدم، أنه لولاه : لم تخرج الدنيا من العدم(22)، وذلك أمر واضح شهير صريح، كما قال البصيري في بردة المديح :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

هذا في سر الحقيقة، وأما في الشاهد فقد كان صلي الله ليه وسلم لا يبارى في الوجود ولا يجارى، قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله

(22) وجدناه هكذا ولم نقف على أنه حديث أو اثر.

عنهما كان رسول الله صلى اله عليه وسلم : أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان إذا لقيه جبريل، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة(23) انتهى، وسأله رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال لهم : أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة أخرى، ثم مائة أخرى، فكان صفوان يقول : كان محمد أبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار أحب الخلق إلي، وأعطى المؤلفة أزيد من ألف بعير في يوم واحد، ورد على هوازن سبيهم وكانوا ستة آلاف، وأعطى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه من الذهب ما لم يطق حمله، وجيء يوما بتسعين ألف درهم ففرقها وما رد سائلا حتى فرقت، وأهدي له طبق فيه رطب وقثاء فرده مملوءا ذهبا، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : «الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»(24)، ويقول : «الكريم قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من الناروالبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار«(25)، وقال : «اصطناع المعروف يقي مصارع السوء»(26) وقال لبلال : «أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا»(27)، وقال له رجل أوصني يا رسول الله فقال له : «لا تحقرن شيئا من المعروف أن تأتيه ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، أو تلقي أخاك بوجه طلق»(28)، وقال : «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»(29).

واقتدى به صلى الله عليه وسلم أصحابه وأهل بيته، روي أن أبا بكر رضي الله عنه أنفق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانين ألفا، وروى أنه خرج عن ماله ثلاث مرات، وورد عليه في صدر خلافته مال من بعض العمال فصبه في المسجد وأمر فنودي : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليحضر، فجاء أبو أيوب وقال : إن

(23) رواه البخاري بلفظ آخر.
(24) رواه الطبراني في الكبير.
(25) رواه الترمذي.
(26) رواه البخاري.
(27) رواه الطبراني في الكبير.
(28) رواه مسلم بلفظ آخر.
(29) رواه الطبراني في الأوسط.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : «إن جاءني مال أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا وأشار بكفيه» فقال له أبو بكر : اذهب فخذ، قال فحفنت حفنة فقال : عدها، فوجدت فيها خمسمائة دينار، فقال عد مثليها، فانصرفت بألف وخمسمائة، ثم قسم الباقي على المسلمين.

وكان عمر رضي الله عنه يلبس المرقع ويأكل الخشن ويعطي نفائس الذخائر للمسلمين، ولا يرضى بإعطاء القليل، وكان يقول إذا أعطيت فأغن، ولما فتح العراق وجيء إليه من المال بما لم ير مثله قيل له : أدخله بيت المال، قال : لا ورب الكعبة، لا يرى تحت سقف بيت المال حتى يقسم، فغطي في المسجد بالأنطاع، وحرسه رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أصبح ورأى الذهب والفضة والدرة والياقوت والزبرجد يتلألأ بكى، فقيل له : ما هذا يوم بكاء، ولكنه يوم شكر وسرور، فقال : والله ما كثر هذا في قوم إلا رجع بأسهم بينهم، ثم توجه الى القبلة وقال : اللهم إني أعوذ بك أن أكون متدرجا، فإني أسمعك تقول «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» ثم قال أين سراقة ؟ فأتى به أشعر الذراعين فأعطاه سواري كسرى فقال البسهما، ففعل، فقال : قل الله أكبر، فقال : الله أكبر، فقال : قل الحمل لله الذي سلبهما كسرى لكفره، وألبسهما أعرابيا من بني مدلج لإيمانه، ولم يعط سراقة سوى السوارين، وكان فيهما غنى الأبد، وقسم سائر المال على المسلمين، ولم يدخر منه شيئا، وإنما أعطى السوارين لسراقة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يوما وقد نظر إلى ذراعيه : «كأني بك وقد لبست سواري كسرى، فقال سراقة ملك الملوك، قال : نعم وقال عمر رضي الله عنه لما قسم تلك الأموال : إن الذي أدى إلينا هذا لأمين، فقال رجل : لما كنت أنت أمينا كان الناس كلهم أمناء، ولو رتعت لرتعوا، فقال : نعم.

وكان عثمان رضي الله عنه ذا جود وعطاء يتبع بعطاياه وجوه البر، فقد روي أنه لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو تبوكا رغب الناس في النفقة في سبيل الله تعالى، فقال عثمان : علي مائة بعير بأقتابها وأحلاسها، ثم رغب صلى الله عليه وسلم في النفقة في سبيل الله

فقال عثمان : وعلي مائة أخرى بأقتابها وأحلاسها، ثم فعل مثل ذلك في الثالثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما على عثمان ما فعل بعد هذه»(30)، وكانت في المدينة المشرفة بئر جديدة لرجل من اليهود فما يسقي أحد منها إلا بثمن، فاشتراها عثمان بأربعين ألفا وصرفها للمسلمين، وكان بإزاء المسجد بيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من اشتراه وزاده في المسجد فله الجنة، فاشتراه عثمان بعشرين ألفا وأدخله المسجد(31)، قال الحسن البصري : شهدت عثمان بن عفان يخطب وأنا قد راهقت، فلم أر منظرا أحسن منه، فسمعته يقول : أيها الناس أغدوا علي كسوتكم فيجاءُ بالحلل، فتقسم بينهم حتى إنه والله يقول : يا معشر المسلمين، اغدوا علي السمن والعسل فيقسم بينهم، ثم قسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره، والأعطيات دارة والخير كثير انتهى.

وكان الإمام علي رضي الله عنه في الدرجة العليا من الجود، قدم عليه أعرابي فقال : يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفعت إليك حاجة قد رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرته، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك. فقال له : خطها، فإني أكره أن أرى عليك مذلة السؤال، وكذلك كان يقول رضي الله عنه كل من عرضت له حاجة عندي فليرفعها إلي في كتاب، فإني أكره أن أرى ذل المسألة في وجوهكم، فكتب الأعرابي في الأرض إني عار وأنا فقير، فقال علي لغلامه : يا فتى ائت بالحلة الفلانية، فدفعها الى الأعرابي فلبسها وقام بين يديه وأنشد :

كسوتني حلة تبلى محاسنها ... وسوف أكسوك من باقي الثنا حللا
إن نلت حسن ثناء نلت مكرمة ... وليس تبغي بما قد نلته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه ... كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به ... كل امرؤ سوف يجزى بالذي فعلا

(30) رواه البخاري في كتاب التفسير.
(31) رواه البخاري ومسلم.

فقال علي رضي الله عنه : هات يا فتى الدنانير التي عندك وادفعها للأعرابي، ثم قال له يا أعرابي أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك، وكانت مائة دينار، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «تشكّروا لمن أثنى عليكم (32)، انتهى.

وقال رجل لمعاوية يوما أعطني فإني أتيت من عند أبخل رجل وأجبنه وألكنه، فقال معاوية : من هو ويحك ؟ قال علي، فقال له : كذبت والله لو كان لعلي بيت تبر وبيت تبن لأنفق تبره قبل تبنه، وما كان علي قط في فئة إلا غلبت، ولا أخطب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من علي، فقم قبحك الله، وأشرف الإمام علي يوما في أيام ولايته على بيت ماله فرأى فيه فضة كثيرة وذهبا كثيرا فتغير لونه وأرعد وقال : يا بيضاء ابيضّي وغري غيري ويا حمراء احمري وغري غيري، ثم أمر بقسم جميعه على الناس وأمر بكنسه ورشه، ودخل وصلى فيه وقال : الآن استرحت والحمد لله، وحسبك من منقبة في جوده رضي الله عنه جوده بنفسه في الليلة التي مكرت فيها قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم، التي أنزل الله في شأنها قوله تعالى : {وإذ يمكر بك الذين كفروا} الآية، فقد فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، فلبس لباسه، وارتدى بردائه، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انج بنفسك ودعني في مكانك أقيك بنفسي، فنام على فراشه، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجو الله أن يقيك شرهم(33)، وروي أن الله تعالى قال في تلك الليلة لجبريل وميكائل عليهما السلام، إني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالزيادة، فاختار كل منهما أن تكون الزيادة له، فأوحى الله إليهما : هلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض واحفظاه من عدوه، فكان جبريل عند رأسه وميكائل عند رجليه، وهما يقولان بخ بخ، من مثلك يا بن أبي طالب، يباهي الله بك الملائكة، وفي ذلك أنزل الله {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة{ الله}(34)،هـ.

(32) رواه ابن عساكر في تاريخه، والأصفهاني في ترغيبه.
(33) رواه الطبراني.
(34) متفق عليه.

هذا بعض البعض مما روى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم في هذه الخصلة التي هي الجود، وأما بقية المشاهير من الصحابة فإنه لا يمكن أن يجمعه ديوان وذلك كالحسنين السبطين رضي الله عنهما، وابن عباس وابن جعفر وابن عوف وطلحة بن عبيد الله ومن لا يحصى من المهاجرين والأنصار.

وأما أجاود الملوك من الدولتين الأموية والعباسية ومن بعدهما، فلو ذهبنا الى ذكر القليل من ذلك لخرجنا عن المقصود، ولا بأس بالإلمام بما فيه غرابة أو طرفة أو حكمة، من ذلك ما حكى عن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه مرض مرة فاستبطأ الناس في عيادته فسأل فقيل له : إنهم يستحيون منك لمالك عليهم من الديون، فقال : أخزى الله مالا يمنع من زيارة الإخوان، فأمر مناديا ينادي من لقيس عليه مال فهو في حل، فازدحم الناس عليه حتى كسرت عتبة بابه من كثرة العواد، ووقفت عليه امرأة يوما وقالت له : أشكو إليك قلة الجردان في بيتي، تعني الفئران، فقال : ما أحسن هذه الكناية، فأمر أن يملأ بيتها بالحنطة والإدام وسائر الأقوات، ومن ذلك ما حكى عن عرابة الأوسي الذي قيل فيه :

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين(35)

قيل إنه لما ضعف حاله في آخر عمره خرج الى المسجد ويده اليمنى على كاهل غلام، ويده اليسرى على كاهل غلام، وهما يقودانه لأنه صار أعمى، فلقيه رجل في طريقه فسلم عليه وقال له : إني رجل غريب انقطعت بي السبل، ونفدت نفقتي وقصدتك لتعينني بما يجري الله على يديك، فرفع يديه عن الغلامين وقال له خذهما مباركا لك فيهما، والله ما يملك عرابة غيرهما، وجعل يقول : من يأخذ بيدي الى المسجد وأجره على الله، ومن الأجواد عبيد الله بن أبي بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه، روي أنه كان ينفق على جيرانه أربعين دارا عن يمينه وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه وأربعين خلفه، يقوت الجميع ويكسوهم ويضحي لهم، وكان يعتق كل عيد مائة رقبة، وروي أنه اشترى يوما جارية بعشرة

(35) عرابة بن أوس الحارثي الأنصادي من سادات المدينة الأجواد المشهورين، أدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلم صغيرا توفي بالمدينة من "الاصابة" ج 2 ص 473.

آلاف وقال لغلامه ائت بدابة تحمل عليها، فقال له رجل : هذه دابتي فقال احملوها عليها إلى داره، ومن الأجواد مخلد بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، كان كأبيه وجده وأهل بيته المهالبة، أنشده رجل :

آل المهلب قوم إن نسبتهم كانوا الأكارم آباءا وأجدادا
لو قيل للمجد حدْ عنهم وخلهم بما احتكمت من الدنيا لما حادا
إن المكارم أرواحَ يكون لها آل المهلب دون الناس أجسادا

فأعطاه مائة ألف درهم، ثم عاد إليه فقال له مخلد : ألم تكن أتيتنا قريبا فأجزناك، قال : بلى، ولكن ذكرت قول الكميت فيك :

سألناه الجزيل فما تلكا وأعطى فوق منيتنا وزادا
فأعطى ثم أعطى ثم عدنا فأعطى ثم عدت له فعادا
مرارا ما أعود إليه إلا تبسم ضاحكا وثنى الوسادا

فأعطاه ضعف ما كان أعطاه قبل، ومات مخلد هذا في حياة أبيه يزيد، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وقال : اليوم مات فتى العرب، ولو أراد الله بأبيه خيرا أبقاه له، ثم أنشد عمر بن عبد العزيز فيه متمثلا :

على مثل عمرو تذهب النفس حسرة وتضحى وجوه القوم مغبرة سودا

ومن أجاود العرب المضروب بهم الأمثال في الدنيا معن بن زائدة الشيباني أحد أمراء الدولتين المروانية والعباسية، روى أن الصاحب بن عباد فرق على الناس كسا كثيرة، فسمع بذلك بعض شعراء زمانه فكتب إليه بهذه الأبيات :

أيا من عطاياه تدني الغنى إلى راحتي من نأى أو دنا
كسوت المقيمين والزائرين كسا لم تخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في ثياب من الخز إلا أنا

فقال الصاحب : قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلا سأله مركوبا فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ونعل وقال : لو علمت مركوبا غير هذا لأمرت لك به، وأنا قد أمرت لك بجبة وقميص ودراعة وفروة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وخفين، ولو علمت ملبوسا غير هذا لأمرت لك به انتهى. وروي أن رجلا قصد معنا فقيل له :

هو داخل هذا البستان، فأخذ عودا فنقش فيه هذا البيت وجاء الى مدخل الماء للبستان فألقاه في الماء والبيت هو هذا :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فليس إلى مَعْنٍ سواك رسول

فدخل الماء بالعود فرآه معن فأخذه وقرأه وقال : انظروا هل بالباب أحد ؟ فوجدوا الرجل فأدخل عليه وقال له : أنت صاحب هذا العود ؟ قال نعم، فأمر بإنزاله في محل، وبعث إليه مائة ألف ووضع العود تحت وساده، فلما كان الغد قرأ العود أيضا وبعث إليه بمائة ألف أخرى، وفي اليوم الثالث قرأ العود وبعث إليه بمائة ألف أخرى، فلما رأى الرجل كثرة المال الذي وصل إليه فاستعظمه وخاف ألا يبقى له، فجمع تلك الأموال وذهب بغير استئذان، فلما كان اليوم الرابع بحث عنه فلم يوجد له خبر، فقال معن : عزمت أن أبعث إليه كل يوم مائة ألف كلما قرأت شعره حتى يفنى جميع ما في بيوت أموالي. كان معن بن زائدة يتصرف لبني أمية في أنواع من الولايات، وكان منقطعا الى يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقين، فلما وقعت الحروب التي بين ابن هبيرة وأبي جعفر المنصور أبلى فيها معن بلاءا عظيما، فلما قتل ابن هبيرة خاف معن فاختفى، واشتد طلب أبي جعفر له، وجعل لمن يأتيه به عشر ديات، قال معن : فلما طال بي الأمر تعرضت للشمس حتى حال لون وجهي، وخففت عارضي، ولبست جبة صوف، وركبت جملا، وخرجت في زي الأعراب متوجها الى البادية، فلما خرجت من باب المدينة تبعني أسود متقلدا بسيفه، حتى إذا بعدنا عن الحرس قبض على خطام البعير وأناخه، وقبض على يدي، فقلت له : مالك ؟ فقال أنت طلبة الملك، فقلت : ومن أنا حتى يطلبني الملك، قال : ألست معن بن زائدة ؟ فقلت له لست بمعن، فقال أنا أعرف بك منك، فلما رأيت منه الجدّ قلت له : عندي جوهر هو أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بي إليه، فخذه، ولا تكن سبب سفك دمي، فقال : هاته، فأعطيته إياه، فلما نظر إليه قال : صدقت في قيمته، ولكن لست أقبله منك حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، فقلت : قل، فقال : إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قطّ، قلت لا، قال : فنصفه ؟ قلت لا، قال فثلثه ؟ قلت لا، حتى بلغ العشر فاستحييت، فقلت أظن أني فعلت

هذا، قال : ما ذاك بعظيم، أنا رجل رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهما، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير، وقد وهبته لك، ووهبتك لجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى العقد في حجري وأطلق خطام البعير وقال : انصرف في حفظ الله، فقلت يا هذا، قد والله نصحتني وأحسنت إلي، فخذ ما دفعته لك فإنني عنه في غنى، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقالتي هذه، والله لا أخذت في معروف ثمنا أبدا، ومضى لسبيله، قال معن : فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يأتيني به ما شاء، فما عرفت له خبرا، ولم يزل معن مختفيا إلى أن كان يوم الهاشمية، وكانت في ذلك اليوم مقتلة عظيمة، وكان معن متواريا بالقرب، وهو يوم ثار فيه جماعة من أهل خراسان على أبي جعفر في المدينة التي بناها السفاح بالأنبار، وتسمى الهاشمية، فخرج معن متلثما فتقدم وقاتل بين يدي المنصور قتالا عظيما أبان فيه نجدة وشهامة، وفرق القوم شذر مذر، فلما أفرج عن المنصور قال : من أنت ؟ فكشف لثامه، وقال أنا طلبتك يا أمير المؤمنين، أنا معن بن زائدة، فأمنه وكساه وحباه وصار من خواصّه، وقال في ذلك شاعره المنقطع إليه مروان بن أبي حفصة قصيدة بديعة يمدحه بها فأعطاه عليها مائة ألف درهم، فروي أن مَعْناً دخل يوما على المنصور فقال لاهيه يا معن أتعطي ابن أبي حفصة مائة ألف على أن قال فيك :

معن بن زائدة الذي زيدت به ... شرفا إلى شرف بنو شيبان

فقال لا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته ذلك على قوله في هذه القصيدة :

ما زلت يوم الهاشمية معلنا ... بالسيف دون خليفة الرحمان
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهند وسنان

فقال أحسنت، انتهى.

وقد جمح بنا القلم عما نحن بصدده من الاختصار، لأن النفوس تستلذ مطاعم الكرم وإن كان حبله اليوم قد انقطع وانصرم، والمراد إنما هو الإشادة بفضيلة الجود، الذي اتفق أهل العقول المتقدمون والمتأخرون على أنه محبوب عند كل أحد محمود، قال الحكماء : إن الجود أساس الملك

وكماله، وحسنه وجماله، تعنو له الوجوه، وتذل له الرقاب، وتسترق به الأحرار، وتستمال به الأعداء، وتحقن به الدماء، فكم من شخص فارق بسببه وطنه وأهله وأحبابه، وكم من تارك لأجله دينه وملته، وأحق الناس به أحوجهم إلى عطف القلوب عليهم، وصرف الوجوه إليهم، وهم الملوك وولاة الأمر، انتهى.

وقد حكى أن الامام أبا الوليد بن رشد الجد(36) لما سمع أخبار الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن جعفر المعروف بالسبتي، وجه صاحبا له وقال له : الزم هذا الرجل حتى تستقرئ أحواله على التمام وأخبرني بذلك، فلازمه ذلك الرجل سنة كاملة، فلما رجع إلى ابن رشد قال له حاصل الخبر عنه أنه رجل تدور أموره كلها على الصدقة، فقال أبو الوليد : لعله من قوم يرون أن الوجود، ينفعل بالجود، انتهى، هذا مبلغ علم أبي الوليد في شأن من لم يدر ما وراء ما هو فيه، والمراد من حكاية هذا الكلام قوله، ان الوجود ينفعل بالجود، فإنه صحيح لا يحتاج إلى برهان، دليله المشاهدة والعيان.

وليكن هذا القدر كافيا في هذه السرية، وإلا لو أراد الإنسان أن يعد من اشتهر بالجود في الإسلام والجاهلية، لأعجزه ذلك من الملوك وغيرهم مثل حاتم الطائي ومعاصره، أوس بن حارثة، وهرم بن سنان، وعبد الله بن جدعان، وأبي دلف العجلي، وكعب بن مامة، والبرامكة : يحيى بن خالد الذي قيل فيه البيتان اللذان طارت بهما رياح الاشتهار، وبلغا مبلغ الليل والنهار، وهما :

سألت الندى هل أنت حر ؟ فقال : لا   ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء ؟ قال : لا بل وراثة   تملكني عن والد بعد والد

وولديه جعفر والفضل، فقد أفرد الناس أخبار جودهم ومآثرهم بالتأليف، ومثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل، ومثل طاهر بن الحسين الخزاعي وولده عبد الله بن طاهر وغير من ذكر ممن يفوت العد، و لا ينتهي إلى حد، والله واسع عليم.

---

(36) أبو الوليد زعيم فقهاء وقته بالأندلس والمغرب ومقدمهم المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ولي قضاء الجماعة بقرطبة سنة 511هـ وله كتاب «البيان والتحصيل» ت 528هـ 1126م شجرة النور ج 1 ص 142.

السرية الثانية من القسم الثاني في الشجاعة

هذه الخصلة بها تظهر سعادة أهل الرياسة، وتتم المقاصد لولاة الأمر وأرباب السياسة، فمن خلا منها لم يتم أمره، ولم يلح في مشارق الكمال بدره، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحل الأعلى منها، قال ابن عمر رضي الله عنهما، ما رأيت أشجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أنجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال مولانا علي رضي الله عنه : كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، وقال أنس رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه، وهو يقول : لن تراعوا لن تراعوا، وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه : ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب، انتهى.

قيل ما من شجاع إلا وأحصيت له فرّة سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اتفق المؤالف والمخالف على أنه ما نكص قط ولا أحجم، فقد حضر المواقف الصعبة، وفر عنه الأبطال غير ما مرة، وهو مقبل غير مدبر، وقد قيل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، لقد رأيته على بغلته البيضاء يركضها نحو الكفار وهو يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وكان عمه حمزة وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أشد الناس إقداما بعده صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم بعض أخبار مولانا علي رضي الله عنه، وأما سيدنا حمزة رضي الله عنه فيكفي فيه ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السماوات : حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وكان يوم بدر معلما بريش نعامة أحمر، ولما أسر عبد الرحمان بن عوف أمية بن خلف وابنه عليا، قال له : يا عبد الرحمان من المعلم بريش نعامة

أحمر ؟ قال : حمزة، قال ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل، وكان ذاك كالفحل الهائم لم يلقه أحد إلا صرعه، فقتل من صناديد قريش الذين يعدون بألف أحد عشر رجلا منهم شيبة بن ربيعة وطعيمة بن عدي، وكانت له يوم أحد في المشركين نكاية عظيمة، قتل منهم في أول حملة ثلاثة، منهم أرطاة صاحب لواء المشركين.

ومن مشاهر أبطال الصحابة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وكفى في فضله أن النبي صلى الله عليه وسلم سماه سيف الله على الكفار، وكان من عظماء قريش في الجاهلية، له كانت القبة والأعنة، أما القبة فكانوا يجمعون فيها ما يجهزون به جيوشهم، وأما الأعنة فهي قيادة الجيش في الحروب رضي الله عنه، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف الصديق رضي الله عنه ولى خالد اقتال أهل الردة فكان له في ذلك الغناء العظيم كما هو مشهور لا سيما أهل اليمامة أتباع مسيلمة الكذاب الذين لم يلق الصحابة أشد بأسا منهم، وهم المراد بقوله تعالى {ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد} فلما فرغ من أهل الردة وجهه أبو بكر رضي الله عنه إلى العراق، ووجه أبا عبيدة إلى الشام، فلما بلغ أبو عبيدة إلى الشام جمع الروم من الجنود ما لا يحصى لقتال المسلمين، فكتب بذلك أبو عبيدة إلى أبي بكر، فقال أبو بكر : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، فكتب إليه أن الحق إخوانك المسلمين بالشام، فإن الروم قد جمعوا لهم، وإذا بلغتهم فأنت أمير الجماعة، فكان فتح الشام كله على يديه أميرا في خلافة الصديق، وتحت لواء أبي عبيدة أيام الفاروق رضي الله عنهم أجمعين، قال بعض من حضر وقعة فحل وكانت من الوقائع العظام بالشام، لما لقينا العدو حمل خالد على الميمنة فدق بعضها ببعض، ثم على الميسرة فدق بعضها ببعض، وعلى القلب كذلك قتل من بطارقتهم أحد عشر دون من سواهم وهو ينشد :

أضربهم بالصارم المهند ضرب طبيب الدين هاد مهتد
لا واهن الحول ولا ممید

وأعظم الوقائع في تلك الحروب وقعة اليرموك كان عدد المشركين فيها مائتي ألف وأربعين ألفا، وكان المسلمون في ستة وثلاثين ألفا،

فنصرهم الله على عدوهم حتى لم يفلت منهم إلا قليل، مات منهم غريقا في نهر الواقوصة مائة وعشرون ألفا، وقتل باقيهم بالمعركة، واستشهد من المسلمين قريب من ثلاثة آلاف، وكان خالد متولى الحرب ذلك اليوم وهو أول من هزم من تولى قتاله فتوالت بعد ذلك الهزائم وفي ذلك يقول بعضهم :

لما لقينا أولياء الشيطان　　دعوا هرقل ودعونا الرحمان
والله قد أخزى جنود باهان　　بخالد النجح أبي سليمان

ومن طالع كتب الفتوحات لم يخف عليه قدر خالد وشهامته ومكانه من الإقدام، ولما حضرته الوفاة قال : شهدت أزيد من مائة زحف وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء.

ومن مشاهير الشجعان الصحابة رضوان الله عليهم الزبير بن العوام وولداه عبد الله ومصعب، وبيت بني العوام بيت شجاعة وإقدام في الجاهلية والإسلام، أما الزبير فمواقفه شهيرة، وكان يعد بألف، خرج في أول يوم للتعزير من أيام اليرموك بطريق يطلب البراز فخرج إليه الزبير فقتله وأخذ سلبه، ثم خرج ثان فخرج إليه الزبير فقتله وأخذ سلبه، ثم ثالث كذلك ثم رابع كذلك فخرج خامس فأراد الخروج إليه فأقسم أبو عبيدة عليه فرده، ولما بعث عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر يستمده لما رأى جيوش أهل مصر كثيرة وطلب منه أن يمده، فبعث إليه أربعة آلاف على كل ألف منها رجل يعد بألف فارس، وهم الزبير والمقداد وعبادة بن الصامت وخارجة بن حذافة، وكتب إليه : اعلم أن معك اثني عشر ألفا، وكان في عصر الصحابة جماعة غير هؤلاء يقوم الواحد منهم مقام ألف، وأما عبد الله بن الزبير فهو الذي قتل جرجيرا أمير الروم في أول فتوح إفريقية، ونفله عبد الله بن أبي سرح ابنته كما هو مشهور، ومعها أربعون جارية، وهي من أعظم الغنائم، وأما مصعب بن الزبير فتكفيه شهادة عدوه، روي أن عبد الملك بن مروان قال يوما لجلسائه : من أشجع العرب ؟ فقال بعضهم أمير المؤمنين، وقال بعضهم شبيب الخارجي، وقال آخرون قطري بن فجاءة، وذكروا أناسا، فقال عبد الملك بل أشجع الناس رجل جمع بين سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب التي لا أجمل منها في عصرها، وعائشة بنت

طلحة التي تساميها في الحسن والجمال، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز وابنة زبان سيد العرب، وولي العراقين خمس سنين، وأصاب الأمان، وأعطى ألف ألف وألف ألف وألف ألف فأبى وسل سيفه وتقدم يصرع الأبطال حتى قتل حميدا عزيزا مقبلا غير مدبر، ذاك مصعب بن الزبير، فقال القوم : صدق أمير المؤمنين.

ومن شجعان الصحابة وهو أولى بالتقديم طلحة بن عبيد الله، كانت له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهد مشهورة سيما يوم أحد، فقد روي أنه جرح يومئذ خمسا وسبعين جرحا ما بين ضربة وطعنة ورمية، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى شلت يده وقطع منها أصبع، فقال صلى الله عليه وسلم : إنها سبقته إلى الجنة، ومع ذلك لم يوهنه ما أصابه، فإنه حين أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصعد فوق الصخرة ولم يقدر برك له طلحة فرقي فوق ظهره حتى استوى عليها، وكان الصديق رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال ذلك يوم كله لطلحة، وهو أحد الأجواد المشاهير كما هو معلوم.

ومن مشاهير الشجعان من الصحابة رضوان الله عليهم أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه، وهو ممن يقوم مقام ألف، روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج يوم أحد سيفا وقال من يأخذه بحقه ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ فقال أن تضرب به في العدو حتى ينحني، فقال أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه يقاتل، وكان الزبير ممن سأل السيف، فلما أخذه أبو دجانة، قال الزبير منعني وأنا ابن صفية عمته. وأعطاه إياه، والله لأتبعنه حتى أنظر ما يصنع به، قال فأخرج عصابته الحمراء وعصب بها رأسه، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في مثل هذا المقام أو مثل هذا الموطن فتقدم وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

وجعل لا يلقى أحدا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا دفف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله يجمع بينهما، فلما التقيا اختلفا ضربتين فعضت سيف المشرك في درقة أبي دجانة وضربه أبو دجانة فقتله، قال الزبير فقلت حينئذ الله ورسوله أعلم، قال أبو دجانة رأيت رجلا يحمش الناس حمشا شديدا فصمدت إليه، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا هو امرأة، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة، وقال أبو خيثمة : لما انكشف المسلمون يوم اليمامة رأيت أبا دجانة يضرب بسيفه في نحور القوم أمامه وعن يمينه ويساره، وصرع رجالا منهم فتفرقوا عنه ونكصوا حتى تراجع المهاجرون والأنصار، فحملنا على المشركين حتى أقحمناهم الحديقة، فقال أبو دجانة : ارفعوني على الترسة وألقوني في الحديقة، فضاربهم حتى فتحنا الحديقة فوجدناه ميتا رحمة الله عليه، وقتل مسيلمة لعنه الله في الحديقة قتله وحشي بعدما ضربه عبد الله بن زيد الأنصاري بسيفه فأوهنه، ثم زرقه وحشي بحربته، والله أعلم أيهما قتله، انتهى.

ومشاهير الأبطال من الصحابة يفوت عدهم من طلبه، فأحرى غيرهم من سائر العرب في الجاهلية والإسلام، وليس مرادنا في هذه السرايا المذكورة في هذه الساقة الاستقصاء، ولا بلوغ الغاية في الإحصاء، والشجاعة باقية في هذا الجنس الإنساني ما بقي الدهر، ولكن شجاعة كل زمان بحسبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم.

السرية الثالثة من القسم الثاني : في الحلم

هذه الخصلة من خصال الشرف العالي، ومن أحق ما يتصف به ذوو الألباب، وفيها راحة للأسرار، وسلامة للأعراض، واستجلاب للمحامد والثناء الجميل، لا سيما لولاة الأمر وملوك الأمم، فما أحوج من ولاه الله شيئا من أمور خلقه إلى ما يملك به قلوبهم، ويستدعي به رضاهم، وهو الحلم عليهم الذي هو غاية الإحسان إليهم، والنفوس مجبولة على حب المحسنين، قال بعض العلماء : حد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب، وقال جعفر الصادق : لأن أندم على العفو خير من أن أندم على العقوبة، وسئل أبوه محمد الباقر : ما حقيقة الحلم ؟ فقال كيف يعرف فضل شيء ما

ظهر كماله في أحد، فإن الناس أكثر ما يغشون أبواب الملوك عند تنازعهم، وضيق أخلاقهم، فإذا لم يكن الملك ذا حلم يرد به بوادرهم تحمل من أمورهم حملا ثقيلا، ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أعلى درجات منه، فقد أثنى الله على الخليل عليه الصلاة والسلام فقال {إنَّ إبراهيم لأوَّاه حليم} وقال في ولده الذبيح إسماعيل عليه السلام «فبشرناه بغلام حليم» وقال في نبيه شعيب عليه السلام على لسان قومه : {إنَّك لأنت الحليم الرشيد} وروي أن عيسى عليه السلام مر على قوم من اليهود الملاعين فقالوا له شرا : فقال لهم خيرا، فقيل له في ذلك، فقال كل ينفق مما عنده، انتهى، ولأجل ذلك قال بعض العلماء : كاد الحليم أن يكون نبيا.

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم في الدرجة العليا من الحلم، فكان لا يزيد على كثرة الجهل عليه إلا صبرا، ولا على إساءة المسيء إلا حلما، قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها إلا أن تنتهك حرمة من حرم الله سبحانه، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما قوله تعالى {وقال نُوحٌ ربِّ لا تذَرْ على الأرض من الكافرين ديَّارا} فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أحلمك وأكرمك ! لقد دعا نوح على قومه فهلكوا، ولو دعوت علينا لهلكنا عن آخرنا، فلقد وطئ ظهرك، وأدمي وجهك، وكسرت رباعيتك، وقيل لك : ادع عليهم فأبيت أن تقول إلا خيرا وقلت «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» وروي أنه لما كذبه أهل مكة وبارزوه بالعداوة جاءه جبريل ومعه ملك الجبال، فقال له : يا محمد إن الله أمر ملك الجبال أن يطيعك فيما تأمره به، وقال له ملك الجبال، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فقال صلى الله عليه وسلم «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا»، وقد هبط عليه من التنعيم ثمانون رجلا عند صلاة الصبح ليقتلوه فأخذوا فعفا عنهم وأطلقهم، وفي ذلك نزلت {وهو الذي كفَّ أيديَهم عنكم» الآية، وعفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره، وقد أوحي إليه بشرح ذلك فلم يعاتبه فضلا على أن يعاقبه، وعفا عن اليهودية التي سمته في الشاة التي سمتها وشوتها وأهدتها إليه، فأخبره بذلك ذراع الشاة عند مناولته فدعي بها فاعترفت، وقال لها : ما

حملك على ذلك ؟ فقالت قلت إن كان نبيا لم يضره، وإن كان كاذبا أراحنا الله منه، فعفا عنها علي الصحيح، ولما أظفره الله بأهل مكة بعدما فعلوا به من قتل أصحابه وعمه وتمثيلهم بهم وتحزيبهم عليه، فما زاد على أن عفا عنهم، وقال : ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال : أقول كما قال أخي يوسف «لا تثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم اذهبوا فأنتم الطلقاء» ومن ذلك حلمه عن عبد الله بن أبي وغيره من المنافقين بعد إطلاع الله له على خبث رأيهم وقبيح أسرارهم، وقال لمن سأله قتلهم «لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه»(37) إلى غير ذلك مما يناله من جفاة الأعراب، وكان يقول إذا رأى منهم جفاء وغلظة «يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(38) وقال عليه الصلاة والسلام «وجبت محبة الله تعالى لمن أغضب فحلم»(39) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب الحليم الحي ويبغض الفاحش البذي»(40) وقال للأشجِّ عبد القيس «إن فيك لخصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»(41) وقال «إذا كان يوم القيامة ينادي : من له أجر على الله تعالى فليقم، فيقوم العافون عن الناس»، ثم تلا «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» وقال «ما ازداد أحد بعفو إلا عزا فاعفوا يعزكم الله»(42) وقال «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه»(43) ولما نزل قوله تعالى {فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجميلَ} سأل جبريل عن معناه ؟ فقال : «يا محمد إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك وتعطي من حرمك»(44) وروي مثل هذا في قوله تعالى {خُذ العفوَ وامُرْ بالعُرف، وأعرضْ عن الجاهلينَ}.

وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : والله لأسبنك سبّا يدخل معك قبرك، فما زاد على أن تبسم وقال : بل معك يدخل يا أخي والله لا معي، واغتاظت عائشة رضي الله عنها على خادم لها، ثم رجعت

(37) رواه البخاري في كتاب التفسير.

(38) رواه البخاري ومسلم.

(39) رواه ابن عساكر في تاريخه والاصفهاني في ترغيبه.

(40) رواه الطبراني.

(41) متفق عليه.

(42) رواه مسلم.

(43) لم نقف على تخريجه.

(44) رواه أصحاب السنن.

إلى نفسها فقالت : لله در التقي ما ترك للغيظ شفاء، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عيينة بن حصن استأذن له الحر بن أخيه على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فلما دخل عليه قال له : والله يا بن الخطاب ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر وهم أن يوقع به، فلما رأى ذلك ابن أخيه، قال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول {خُذِ العفوَ وامُرْ بالمعروف وأعْرِض عن الجاهلين} قال فوالله ما جاوزها عمر حينَ تلاها، وكان وقافا عند كتاب الله تعالى، انتهى.

وأقوى ما ورد في حلم عثمان رضي الله عنه قضية يوم الدار إذ قام عبيده وخواصه وجماعة من المهاجرين ليقاتلوا الذين حاصروه، فقال لعبيده من أغمد سيفه فهو حر، وقال لغيرهم : من كانت لي في عنقه بيعة فليغمد سيفه، فقالوا إنهم يقتلونك ؟ قال : وإن قتلوني فلا تراق دماء المسلمين بسببي، وكان مولانا علي رضي الله عنه يحرض على الحلم ويوصي به ويقول : من تحلم ساد، ومن تفهم ازداد، وقال له سلمان يوما : ما الذي يباعدني من غضب الله ؟ قال : ألا تغضب، وقال يوما لعامر بن مرة : من أحمق الناس ؟ قال : الذي يظن أنه أعقل الناس، قال : فمن أعقل الناس ؟ قال : من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال، قال : صدقت، وقال : أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره، ولذلك كان الأحنف يقول : وجدت الحلم عن الرجال أنصر لي من الرجال، وما ذاك إلا لأن من حلم كان الناس أنصاره، وقال أكثم بن صيفي : العز والغلبة للحليم، وقال معاوية رضي الله عنه لخالد السدوسي : إنك تحب عليا حبا مفرطا ؟ فقال : أحبه والله لحلمه إذا غضب، وعدله إذا حكم، ووفائه إذا وعد، وصدقه إذا حدث، وسأل علي رضي الله عنه أحد كبراء الفرس عن أحمد ملوكهم عندهم ؟ فقال : لأزدشير فضل السبق، غير أن أحمدهم سيرة أنوشروان، قال : فأي أخلاقه كان أغلب ؟ قال : الحلم والأناة، فقال علي رضي الله عنه : هما توأمان ينتجهما علو الهمة، ولما قبض الملعون ابن ملجم بعد طعنه لعلي رضي الله عنه قيل له : ما تأمرنا أن نصنع به ؟ قال : إن أعش فالأمر إلي، وإن مت فالأمر إليكم (وأن تعفوا أقرب للتقوى)، وروي أنه دعا غلاما له يوما فلم يجبه، فدعاه ثانيا وثالثا كذلك فقام إليه فرآه مضطجعا، فقال : أما سمعت ندائي ؟ قال : بلى، قال فما منعك من جوابي ؟ قال

أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال : امض فأنت حر لوجه الله العظيم {ومن كرم الرجل سوء أدب غلمانه}(45) وقال إنا نصافح أكفا نود قطعها، واستمر ذلك في أهل بيته رضي الله عنهم، فروي أن رجلا من أهل الشام قال : دخلت المدينة فرأيت رجلا راكبا على بغلة فلم أر أحسن منه وجها ولا سمْتاً ولا مركوبا، فمال قلبي إليه، فسألت عنه فقيل لي : هو الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فجئته وقلت له : أنت ابن أبي طالب ؟ فقال لي : أنا ابنه، فقلت : فعل الله بك وبأبيك، وجعلت أسبه وأسب أباه وهو يتبسم، فلما انقضى كلامي قال : أحسبك غريبا ؟ فقلت أجل، فقال : إن احتجت إلى منزل أنزلناك، وإن احتجت إلى مال واسيناك، وإن احتجت إلى معونة أعناك، قال : فانصرفت وما على وجه الأرض أعز ولا أحب إلي منه، وكان لسيدنا الحسين رضي الله عنه غلام جنى جناية توجب عقوبة شديدة، فلما أقعده للضرب قال : يا مولاي «والكاظمين الغيظ» فقال : قف فقال : يا مولاي «والعافين عن الناس» قال : قد عفوت عنك، قال : يا مولاي «والله يحب المحسنين» قال : أنت حر لوجه الله العظيم، ولك ضعف ما كنت أعطيك، وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين المعروف بالباقر أنه كان يقول : من كظم غيظا يقدر على إمضائه حشا الله قلبه إيمانا، وكان ابنه جعفر الصادق يقول : لأن أندم على العفو أحب إلي من أن أندم على العقوبة، وروي أن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي هجاه أبو عاصم الأسلمي، فلما ولي الحسن المدينة أتاه مستنكرا في زي الأعراب وأنشده :

ستأتي مدحتي الحسن بن زيد ... وتشهد لي بصفين القبور
قبور لم تزل مذ غاب عنها ... أبو حسن تعاديها الدهور
قبور لو بأحمد أو علي ... يلوذ مجيرها حفظ المجير
هما أبواك من وضعا فضعه ... وأنت برفع من رفعا جدير

فقال الحسن : من أنت ؟ قال أبو عاصم الأسلمي، فقال ادن حياك الله وبسط له رداءه وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، وكان الداعي العلوي صاحب طبرستان من ولد الحسن هذا، فكان إذا افتتح

(45) ساقط من (م).

الخراج نظر ما في بيت المال من خراج السنة التي قبلها، فيفرقه في قبائل قريش على درجاتهم، وفي الأنصار والفقهاء وأهل القرآن وسائر الطبقات حتى لا يبقى منه شيء، فجلس في سنة من السنين ليفرق على عادته فبدأ ببني عبد مناف، فتقدم إليه رجل فقال : من أي بني عبد مناف أنت ؟ قال له : من بني أمية، فقال : لعلك من بني معاوية ؟ ومن ولد يزيد ؟ قال نعم، قال بئس ما اخترت لنفسك، إذ جئت آل أبي طالب وعندك ثأرهم، وجعل العلويون ينظرون نظرا منكرا، فقال لهم الداعي : كفوا عافاكم الله تعالى، فليس في مثل هذا أدرك لثأر الحسين، وقد حرم الله تعالى أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت ووالله لا يعرض له أحد إلا أقدته به، واسمعوا مني حديثا يكن لكم قدوة، حدثني أبي عن أبيه قال : عرض على المنصور سنة حج جوهر فاخر فعرفه وقال : هذا كان لهشام بن عبد الملك وصار لابنه محمد، وما بقي أحد غيره، ثم قال للربيع : إذا كان غدا وصليت بالناس في المسجد الحرام فأغلق أبوابه كلها وافتح بابا واحدا وقف عليه فلا يخرج إلا من عرفته، فلما كان الغد فعل الربيع ذلك فعرف محمد إذ ذاك أنه المطلوب، فتحير، وإذا بمحمد بن زيد بن علي بن الحسن، فلما رآه متحيرا وهو لا يعرفه أنكر أمره فقال له : يا هذا أراك متحيرا ؟ فمن أنت ولك الأمان، وعلي تخليصك إن شاء الله، قال أنا محمد بن هشام بن عبد الملك، فمن أنت ؟ قال أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسن، قال : فعند الله احتسب نفسي إذن، قال : لا بأس عليك يا ابن عمي، فإنك لست قاتل زيد، وأنا أولى بخلاصك مني بإسلامك، ولكن تعذرني فيما أتناولك به من مكروه يكون سبب خلاصك إن شاء الله تعالى، فقال : أنت وذاك، فطرح رداءه في عنقه ولببه وأقبل يسحبه، فلما قرب من الربيع بحيث يراه لطمه وقال للربيع يا أبا الفضل هذا الخبيث، جمال من الكوفة أكراني جماله ذاهبا وعائدا وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى لبعض قواد خراسان، ولي عليه شهود، فضم إلي حرسين يسيران به معي الى القاضي ويمنعان الخرساني من التعرض لنا، فأمر الربيع حرسين فمضيا به معه، فلما بعد من المسجد قال له : يا خبيث أتؤدي إلي حقي ؟ قال نعم، يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للحرسين انصرفا في حفظ الله، ثم أطلقه، فقبل محمد بن هشام رأسه وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم أخرج

جوهرا له قدر عظيم ودفعه له وقال : يا سيدي تشرفني بقبوله فأبى، وقال إنا نحن أهل بيت لا نأخذ على معروف أجرا، وقد تركت دم زيد وهو أعظم قدرا من متاعك، فانصرف رحمك الله راشدا واختف من هذا الرجل، فإنه مجد في طلبك، فانصرف وقد نجا ثم أمر الداعي للأموي بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم إليه جماعة من مواليه وأمره أن يبلغوه مأمنه، ويأتوه بخطه بسلامته.

وكان معاوية رضي الله عنه يقول : إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكبر من حلمي، وعورة لا يواريها ستري، ويقول : إني لألقى الرجل أعلم في قلبه علي ضغنا فأستشيره فيثور إلي منه بقدر ما في نفسه، فيوسعني شتما وأوسعه حلما، حتى يعود صديقا أستنجده فينجدني، وقسم يوما قُطُفاً على الناس فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة لم تعجبه فحلف أن يضرب بهما رأس معاوية، وجاء وأخبره وقال له أوف بنذرك، وليرفق الشيخ بالشيخ، وكان قيس بن عاصم المنقري رضي الله عنه من أشهر العرب بالحلم، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مسلما «أتاكم سيد أهل الوبر»(46) وفيه يقول بعض الشعراء وقد مر على قبره :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
سلام امرئ غادرته غرض الردى إذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان خال الأحنف بن قيس، ومنه تعلم الأحنف الحلم، قال : بينما نحن عنده يوما جلوس إذا جاءته خادم بسفود عليه شواء فسقط من يدها على ابن له صغير كان بين يديه فمات، فدهشت الأمة فقال : لا روع عليك أنت حرة في سبيل الله، وقال لا يذهب ما أصابها من الروع إلا سرورها بتعجيل العتق، وسئل الأحنف ممن تعلم الحلم ؟ فقال من خالي قيس بن عاصم، ولقد كنا نتردد إليه لنتعلم الحلم كما كنا نتردد الى العلماء لنتعلم

(46) قيس بن عاصم، قال ابن سعد : كان قد حرم الخمر في الجاهلية ثم وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم، فأسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا سيد أهل الوبر، وكان سيدا جوادات نحر 20 هـ 640 م بالبصرة. "الاصابة" ج 3 ص 252 «رغبة الآمل» ج 3 ص 10 ج 4 ص 99-234.

العلم، وكنا يوما عنده وهو جالس يحدثنا فإذا بجماعة قد أتوا بقتيل ومكتوف وقالوا له : هذا ابنك قد قتله أخوك هذا، فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ، ثم أنشد :

أقول للنفس تأساءً وتعزية إحدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من بعد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ثم التفت الى ابن له آخر وقال يا بني : أطلق عمك ووار أخاك وسق إلى أمك مائة من الإبل دية ولدها فإنها غريبة فيكم، والبيتان اللذان تمثل بهما هما لامرأة من العرب قتل أخوها ابنها فأنشدتهما في ذلك، وقد ذكروا قضية الحيص البيص الذي قتل جرو كلبة فهجاه بعضهم، والقصة مشهورة لا نطيل بها، وكان الأحنف بن قيس يضرب به المثل في الحلم، روي أن رجلا أدركه في طريق فجعل يسبه بأقبح سب وهو يماشيه، فلما قرن من الحي وقف الأحنف وقال يا أخي إن كان بقي لك شيء من السب فقله ها هنا، فإني أخشى أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، وجعل عمرو بن الأهتم ألف درهم لمن يسفه الأحنف فأقبل عليه رجل يسبه سبا عنيفا ليغضبه، والأحنف مطرق صامت، فلما رآه الرجل لا يكلمه جعل يعض أصابعه ويقول واسوأتاه والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه، وفعل به آخر كذلك وأطال إلى أن أراد الأحنف القيام إلى الغذاء فأقبل على الرجل وقال : يا هذا إن غذاءنا قد حضر فانهض بنا إليه فإنك منذ اليوم تحدو على جمل ثفال أي بطيء، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول ما قرن شيء الى شيء أفضل من علم الى حلم ومن عفو الى قدرة ويقول : من اجتمعن فيه فقد سعد من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر عفا وصفح. وجنى رجل في أيامه جناية أوجبت عقوبته، فنذر لئن أظفره الله به ليفعلن به ما يستحقه فلما ظفر به أمر بعقوبته فقال له رجاء بن حيوة قد فعل الله لك يا أمير المؤمنين ما تحب فافعل أنت ما يحب الله من العفو، قال صدقت وأمر بإطلاقه، وأسمعه يوما رجل كلاما يكرهه، فقال له عمر : لا عليك إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا، فانصرف غفر الله لك ورحمك، فانصرف وهو يقول :

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان كاسفة لا صفح ذُلّ ولكن صفح أحلام

وروى أن المهدي العباسي نذر دم رجل كان سعي في فساد دولته وجعل لمن دل عليه ألف درهم، فتوارى الرجل حينا ثم ظهر وهو خائف يترقب، فرآه من عرفه فأخذ بمجامع ثوبه وقال : هذا بغية أمير المؤمنين، فأيقن الرجل بالهلاك، وإذا بوقع الحوافر فنظر الرجل فإذا معن بن زائدة في موكبه، فصاح يا أبا الوليد أجرني أجارك الله، فوقف معن وقال للذي تعلق به أرسله، فقال له : إنه بغية أمير المؤمنين الذي بذل فيه لمن دل عليه ألف درهم، فقال انطلق إليه وأخبره أنه عندي، وحمل معن الرجل وانطلق الآخر الى المهدي بالخبر، فأمر بإحضار معن، فلما أتاه الرسول دعا بنيه ومواليه وقال لهم : لا يخلص أحد إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف وركب وأتى المهدي فسلم عليه ولم يجبه وقال : أتجير علي يا معن ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، قال ونعم أيضا، واشتد غضبه، فقال معن يا أمير المؤمنين قتلت على طاعتكم في يوم واحد خمسة عشر ألفا إلى أيام أخرى كثيرة كان لي فيها حسن بلاء أفما تروني أهلا أن يوهب لي رجل واحد استجار بي ؟ فأطرق المهدي كثيرا ثم قال : قد أجرنا من أجرت، وقال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة فيكون قد أحياه وأغناه ؟ فقال قد أمرت له بخمسة آلاف، فقال يا أمير المؤمنين إن الملوك صلاتهم تكون بقدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل كبير، وعفو أمير المؤمنين أكبر، فأجزل له الصلة، فقال : قد أمرت له بمائة ألف، قال عجلها يا أمير المؤمنين فإن أفضل الخير أعجله، فأمر بتعجيلها له، فدعا له معن وانصرف ولحق به المال فأعطاه للرجل وقال : الحق بأهلك وإياك ومخالفة الخلفاء فبهم يؤيد الله الدين ويحوط الإسلام.

وقيل إن هارون الرشيد خرج عليه رجل فجهز إليه جيشا فظفروا به، فلما أدخل عليه قال له : ما تريد أن أصنع بك ؟ قال : الذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه، فأطرق الرشيد مليا ثم رفع رأسه وأمر بإطلاقه، فلما خرج قال بعض الحاضرين يا أمير المؤمنين يقتل رجالك، ويفني أموالك، وتفلته بكلمة واحدة ؟ هذا يجرئ عليك أهل الشر، فأمر برده، فعلم الرجل أنه سعى به عنده، فلما وقف بين يديه قال : يا أمير المؤمنين، لا تطعهم فيَّ، فلو أطاعهم الله فيك ما استخلفك عليهم لحظة واحدة، فأمر بإطلاقه وقال لهم لا تعاودوني فيه.

وكان للمأمون في الحلم ما برز به على سائر أهل بيته حتى صار له جبلة، فكان يقول : ليس علي في الحلم مئونة، ولو وددت أن أهل الجرائم علموا رأيي في العفو، فذهب عنهم الخوف مني، فخلصت لي قلوبهم، وقال أيضا : لقد حبب إلي العفو حتى إني خفت أن لا أوجر عليه، ولو علم الناس بما أجد في العفو من اللذة لتقربوا إلي بالجرائم، قال القاضي عمر بن الحبيب العدوى(47) وفد أهل البصرة على المأمون وأنا معهم، وكنت أصغرهم سنا لينظر لهم قاضيا فنحن معه إذ جيء برجل مقيد مغلل، ثم بسط النطع وجيء بالسياف وأمر بضرب عنقه، فقلت في نفسي : لأقومن فأكلمه لعل الله تعالى ينجي هذا، فقمت وقلت يا أمير المؤمنين حدثني أبوك عن جدك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من بطنان العرش ليقم من كان أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه»(48) فاعف عنه عفا الله عنك فقال المأمون : آلله أن أبي حدثك بهذا الحديث، فقلت والله إن أباك حدثني به، فقال : صدقت ان أبي حدثني به على الوجه الذي ذكرت فأطلقوه وأمر لي بالقضاء انتهى، ولما خالف عمه إبراهيم بن المهدي عليه وظفر به في خبر طويل عجيب مشهور، ووقف بين يديه وأنشده :

أتيت ذنبا عظيما وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمن وإن جزيت فعدل

رق له المامون وقال له : لو لم يكن يا عم في حق رحمك ما يوجب الصفح عنك لبلغك ما أملت حسن توسلك، ولطف تنصلك، ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق المعتصم وابنه العباس ومن حضره وقال : ما ترون في أمره ؟ فأشاروا عليه بقتله، وسكت أحمد بن أبي خالد(49) وكان وزيره وقال له : تكلم، فقال يا أمير المؤمنين : إن قتلت فلك نظراء تقدموا واقتديت بهم، وإن عفوت لم يكن لك نظير، فنكس المامون رأسه ساعة ينظر متفكرا، ثم أنشد متمثلا :

---

(47) عمر بن حبيب العدوي قاض، من رجال الحديث، ولي قضاء البصرة وغيرها في خلافة المامون، لم نعثر على وفاته، وكيع في "أخبار القضاة" ج 2 ص 142، "تهذيب التهذيب" لابن حجر ج 7 ص 432 "الأعلام" ج 5 ص 43 (سير أعلام النبلاء) ج 9 ص 409.

(48) لم نقف على تخريجه.

(49) أحمد بن أبي خالد، كان من الموالي عند المامون العباسي، وهو على جانب كبير من رجاحة العقل، كما كان كاتبا فصيحا، بصيرا بالأمور، وقد وزره ت 210 هـ 825 م (تاريخ الاسلام السياسي) لحسن ابراهيم حسن ج 2 ص 257.

قومـي هـم قتلـوا أميـم أخـي		فـإذا رميـت أصابنـي سهمـي
فلئـن عفـوت لأعفـون جَلـلاً		ولئـن سطـوت لأوهنـن عظمـي

ثم قال المأمون يا عم لا تثريب عليك، قد عفوت عنك، ورددت عليك جميع أموالك وضياعك، وقد شاورت العباس وأبا إسحاق فأشارا بقتلك، فرأيت أن حقك أعظم من جرمك، فعفوت عنك، فإن غيرت فالله مغير بك، فقال إبراهيم بن المهدي : أما إنهما قد بلغا في نصحك الغاية رعيا لعظيم قدر الخلافة، وما جرت به عادة السياسة، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، ثم أنشد :

أفديك يا خير من يعيا(50) بمؤتلف		من الثناء ائتلاف الدر في النظم
اثني عليك بما أوليت من نعم		وما شكرتك إن لم أثن بالنعم
رددت مالي ولم تبخل علي به		وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فأبت منك وقد خولتني نعما		منها الحياتان من موت ومن عدم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي		مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفا مننت به		إني لفي اللؤم أحظى منك في الكرم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به		والمال حتى أسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت		إليك لو لم تهبها لم تكن تلم
رأيت ذلك أجرا فاحتسبت به		قربى إلى الله في الإسلام والرحم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به		فلا عد مناك من عاف ومنتقم

فقال المامون : قد مات حقدي عليك بحياة عذرك، وأعظم من عفوي عنك رفعي عنك مرارة شفاعة الشافعين، انتهى ؟ ولما قال عبد الله بن طاهر الخزاعي قصيدته التي يذكر فيها مآثر أبيه ويفخر فيها بقتلهم المخلوع محمد بن زبيدة الأمين عارضه محمد بن يزيد الحصني، وكان من ولد مسلمة بن عبد الملك بن مروان فأفرط في السب وجاوز الحد، في قبيح الرد، فمن ذلك قوله :

يـا بـن بيت النـار يوقدهـا		مـا يحـاذيـه سراويـل
مـن حسين ومـن أبـوك ومـن		مصعـب غالتكـم غـول
نسـب فـي الخـزي مؤتشـب		وأبـوات أراذيـل
قاتـل المخلـوع مقتـول		ودم المقتـول مطلـول

(50) في (م) يغي و (ف) يعيا..

وهي طويلة، فلما ولي عبد الله بن طاهر مصر ورد إليه تدبير أهل الشام قامت على الحصني قيامته، وعلم أنه لا يفلت منه إن هرب، فأقام بموضعه مستسلما وفتح باب حصنه، قال محمد بن الفضل : وكان من خواص ابن طاهر لما شارفنا بلده، ونحن نتوقع من الأمير أن يوقع به، دعاني عبد الله ليلا فقال : بت عندي، وليكن فرسك معدا، فلما كان السحر أمر أصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب في السحر، وأنا وخمسة من غلمانه الخاصين به معنا، فصبحنا الحصني وإذا بباب حصنه مفتوحا، وهو جالس مترسل، فقصده عبد الله وسلم عليه، ونزل وجلس عنده، وقال له : ما حبسك هاهنا وحملك على فتح باب حصنك ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل مع ما في نفس أميره عليك فقال : ان هذا لم يغب عني ولكن فكرت في أمري فقلت إني أخطأت في أمري خطيئة حملني عليها نزق الشباب، وإني وإن هربت لم أفته، فاستسلمت نفسي، وكل ما أملك فأنا من أهل بيت أسرع فينا القتل ولي فيمن مضى أسوة، ووثقت بأن الرجل إذا قتلني وأخذ مالي شفى غيظه ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، فوالله، ما تلقاه عبد الله إلا بدموعه على خديه، وقال له : أتعرفني ؟ قال : لا والله، قال أنا عبد الله بن طاهر، وقد أمن الله خوفك، وحقن دمك، وحرس نعمتك، وصان حرمك، وما تعجلت لك وحدي إلا لتأمن قبل هجوم الجيش لئلا تخالط عفوي عنك روعة تلحقك، فبكى الحصني فرحا وقام وقبل رأسه، فضمه عبد الله وأدناه، ثم قال : أما إنه لابد من عتاب، إني قلت شعرا في قومي أفخر بهم، وكانوا أهلا لذلك، ولم أطعن فيه على حسبك، ولا ادعيت عليك فضلا، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك فهو من القوم الذين ثأرك عندهم، وكان يسعك السكوت وإن لم تسكت لا تسرف، فقال : أيها الأمير الكريم، قد عفوت تفضلا، فاجعله عفوا لا يخالطه تثريب، ويكدر صفوه بتأنيب، قال : قد فعلت، فقم بنا ندخل منزلك حتى توجب علينا حقا بالضيافة، فقام مسرورا ودخلنا منزله وأتى بالطعام كأنه كان أعده، فأكلنا وجلسنا نشرف في مستشرف له، وأقبل الجيش، فأمرني عبد الله أن أشير عليهم بالجواز، وأن لا ينزلوا إلا بعد ثلاثة فراسخ، وأقام عنده إلى العصر، ثم دعا بدواة وكتب له بتسويغه خراجه ثلاث سنين، وقال له : إن نشطت فالحق بنا وإلا فأقم بمكانك، فقال : بل أتجهز وألحق

بالأمير، ففعل ولم يزل عنده أثير المنزلة مدة ولايته.

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به، إن أخبار الحلماء المنقولة في دواوين أهل الأدب لا تنحصر، ولا فرق بين المطنب والمختصر، وقد أشرنا إلى المستحسن الكافي في هذه السرايا العشر، واكتفينا من ذلك بخالص اللب دون القشر، وبقي الكلام على الأمور التي لها بالرياسة الكبرى غاية الاشتباك، ولا يمكن عنها انفكاك، وهي (الوزارة) و (الحجابة) و (القهرمانة) وهي من جملة السرايا المرصودة في هذه الساقة.

حكم الوزارة

أما الوزارة، فهي التي يسدل بها الملك رداءه ويعقد إزاره اعلم أنه لما كانت الرياسة الكبرى التي هي سياسة النوع الإنساني من أعظم المشاق اللاحقة بالظاهر الجسماني، والباطن النفساني، كما قال بعض رؤساء الحكماء : لمعاناة نقل الجبال من أماكنها بأضعف الحبال، أهون من معاناة قلوب الرجال، كان الملك القائم بها أحوج الناس للمؤازرة وهي المعاونة على ما دفع إليه من استرعاء أحوال الخلق، فإنه لا يقدر على الاستغناء عن غيره حتى في أمور نفسه الخاصة به، في تدبير معاشه، فأحرى أمور الرعية، فلابد له حينئذ بالضرورة ممن يشد به أزره، ويشاركه في أمره كما قال نبي الله موسى عليه السلام : (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي) وقال تعالى : {وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا} ومازال الأمر على هذا فيما قبل الإسلام في دول فارس والروم حتى جاء الإسلام الطاهر الظاهر على الأديان، وصار الملك خلافة، وذهب رسم الملك، وذهبت تلك الخطط اللازمة له بذهابه، وبقيت المعاونة بالرأي والمفاوضة في المصالح المستجلبة، والمفاسد المستدفعة، فلم يمكن زوال هذا اذ هو أمر طبيعي لابد منه فكان صلى الله عليع وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في المهمات العامة والخاصة فيما لم يوح إليه فيه شيء، ويخص الصديق بخصوصيات أخرى حتى كان بعض العرب الذين عرفوا دول العجم قبل الاسلام كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزير النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا كان عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر، ولم تكن العرب تعرف لفظ الوزير في هذه المرتبة، وإنما علمها منهم من خالط العجم كما ذكرنا، هذا حاصل ما

ذكره ابن خلدون، وقد اختصرناه وحصلناه وشرحناه بزيادة عليه وقد ذكرنا أن السلطان لا يستغني عن غيره بالضرورة وأنه لابد له من أعوان، وهم أصحاب الخطط الأربعة التي قلنا انها تلازمه، ولا تنفك عنه ولا ينفك عنها، وأشدها الوزارة التي معناها في لفظها فهي اما من المؤازرة التي هي المعاونة وذلك أظهر من غيره، وإما من الوزر الذي هو الحمل، وذلك لأن الوزير يشارك الملك في تحمل المحمولات، وثقل النوائب والشدائد، فعلى هذا كل أمر تكون فيه معاونة السلطان يقال لمن تولى ذلك الأمر وزير، سواء كان ذلك الأمر من ناحية رياسة السيف، أو من ناحية رياسة القلم«هذا على الوجه العام الذي يقتضيه الاشتقاق المذكور)(51) وأما ما جرت به الأعراف في الدول السابقة فهو مختلف كل دولة تطلق لفظ الوزير على ما جرى به عرفها، ويعلم ذلك باستقراء أخبار الدول الماضية، فمن الدول من لا يسمى الوزير إلا من له أعنة الخيل، واستتباع حملة السلاح، ومنهم من يشترط في هذا أن يكون من قبيل السلطان وذوي رحمه، ومنهم من لا يشترطه، ومن الدول من يطلق الوزير على رئيس الكتاب الذي له التصرف التام في جميع أمور الباب {السلطاني}(52) وهذا هو الواقع في زماننا وما قرب منه، بل ولو لم يكن له حظ في الكتابة، وإنما له النظر العام في الكتاب وغيرهم من رؤساء الأجناد، ومباشرة العمال، والوساطة بين الناس وبين السلطان مثل العربي قادوس عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والقائد أحماد مولى أتاي عند السلطان العادل مولانا سليمان، وإذا كان مع ذلك يحسن الكتابة والترسيل فهو غاية الكمال فيه، كالسيد عبد العزيز الفشتالي عند المنصور السعدي، ومثل العلامة الرئيس أبي العباس اليحمدي عند مولانا إسماعيل، ومثل أخينا في الله جمال الدولة أبي عبد الله سيدي محمد بن إدريس عند السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، ومثل سعد الدولة الوزير الأعظم أبي الثناء سيدي الطيب بن اليماني عند مولانا المظفر أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمان.

ولابأس بالإشارة الخفيفة إلى بعض أحوال هؤلاء الوزراء المذكورين في هذا اللواء الشريف الحسني أعز الله بها برهانه.

---

(51) ما بين القوسين ساقط من (م).

(52) ما بين القوسين ساقط من الأصل و (ش) و (ف).

أما الوزير أبو العباس اليحمدي

فقد كفانا مؤونة التعريف به الفقيه العلامة الداهية أبو الحسن السيد علي المصباحي بتأليفه المسمى "سنا المهتدي الى محاسن اليحمدي"(53) وهو تأليف عجيب ملأه آدابا غضة، أنصع من جوهري الذهب والفضة، وهو موجود تقريه عين من وجده، وملك لؤلؤه وعسجده، وهو من أنفس الذخائر، التي يفاخر بها من يفاخر، رأيت نسخة منه بخط مؤلفه بفاس عند بعض حفدة المؤلف، ذكر فيه المؤلف أن اليحمدي منسوب الى بني يحمد، مضارع حمد يحمد فهو إذن بفتح الميم لا بكسرها كما يجرى على الألسنة، وهي قبيلة من قبائل جبال الزبيب، وكفى هذا الوزير ثناء عليه ما تقدم لنا في راية مخدومه السلطان الأعظم مولانا إسماعيل بن الشريف أنه لما ولى ولده مولاي المأمون مراكش أمره أن يذهب إلى رئيس الحضرة وإمام الكتاب الفقيه الكبير أبي العباس اليحمدي يأخذ منه رسم التقليد، ويسمع وصيته، ويعمل بها، وكان مولاي المأمون يكره اليحمدي أشد الكراهة، فتوجه إليه كرها وأخذ المكاتب من عنده، وسمع وصيته جبرا عليه، وعاد إلى والده وقال له يامولاي : إن اليحمدي ينقصك ويزعم أنه هو الذي علمك الدين، وأنك جاهل لا تعرف الفرض والسنة، فقال له السلطان : والله إنه لصادق إن قال ذلك، هو الذي علمني ديني، وعرفني بربي، انتهى، فهذا يدل على فضل السلطان والوزير والله ذو الفضل العظيم.

وأما الوزير أفاندي العربي قادوس

وهذا اللفظ عجمي، وهو أفاندي، فإن سلطانه سيدي محمد بن عبد الله كان يدعوه بذلك استعظاما واستفخاما لشأنه، وكان من مواليه الذين نشأوا في حجور تربيته، ورضعوا أخلاق حضرة الملك وارتشفوا لبانها، وتدرجوا في مغارس الرفاهية أنبويا فأُنبويا حتى صاروا دوحة، وصار غاية العز أفنانها وقضبانها، وأصله من أعلاج الإسبنيول كما أخبرني ولده السيد محمد، وكان الوزير المذكور شعلة من الذكاء والفطنة، وركنا شديدا من أركان الدولة المحمدية في حسن التدبير والحزم الذي لا يعزب عنه من

(53) علي بن احمد المصباحي الزروالي صاحب كتاب سنا المهتدى الى مفاخر الوزير ابن العباس اليحمدي ترجم فيه لوزير السلطان المولى اسماعيل، توفي سنة 1150 هـ 1737 م.

أمور الحضرة قليل ولا كثير، وكان شأنه في أمور الكتابة أن يأمره السلطان أن يأمر الكتاب بالكتابة لفلان بكذا، ولذوي فلان بكذا، فيكتبون ما أمرهم به فيأخذه منهم ويطبعه ويدخل إلى حضرة السلطان فيسرد عليه تلك الأوامر، ثم يخرج بها ويدفعها لأربابها.

ومن أغرب ما نقل عنه في هذا أن السلطان أمره ذات ليلة أن يكتب نحو ثمانين كتابا في أمور متعددة مختلفة، فنسي أن يمليها على الكتبة، فلما جاء في الصباح دعاه السلطان وقال له كتبت تلك المكاتب، فلم يجد بدا من أن يقول نعم، وكانت الرقاع البيض تكون عنده مطوية مهيأة للكتابة فيها، فجعل يخرج صفيحة بيضاء وينظر فيها ويسرد على السلطان مضمن المراد لفلان ويطويها، ثم يأخذ أخرى كذلك حتى سرد عليه جميع تلك الأوامر التي أمره بها والسلطان يظن أنها مكتوبة مطبوعة على العادة، فخرج إلى الديوان فأملى على الكتاب [فكتبوها](54) ودفعها لأربابها، هكذا أخبر بعض أصحاب السلطان المذكور، وهذا من العجائب إن صح، وقد أدرك من فخامة الجاه، وضخامة الرياسات أقصى الغايات، قالوا : كانت الملوك الأعاظم تقيم ببابه فلا يتيسر لهم لقاؤه إلا بعد ثلاثة أيام ونحو ذلك، ولما مات السلطان امتحن مولاي اليزيد ذلك الوزير غاية الامتحان، وفعل في عذابه ما يبغضه الله، ويحبه الشيطان، وعند الله تجتمع الخصوم، ويقتص من الظالم للمظلوم.

وأما الوزير الأكبر، الحاجب الأشهر، الرجل الصالح، القائد أحمد،
فإنه أحق أن يخص ويفرد

كان هذا الرجل مع طول رياسته، ونفوذ كلمته، في جميع مملكة المغرب، واتصال عزه، وعدم منازعته ومشاركته في مرتبته، ما نقلت عنه قط مظلمة ارتكبها، ولا موبقة اعتمدها، ولا مسألة خان فيها مخدومه أو لبس عليه فيها، أو مضرة كتمها عنه اتباعا لهواه، أو موافقة لغيره، كان سلطانه العادل يذكر عنه ذلك ويمدحه به في كثير من المقامات رحمهم الله تعالى، كانت وزارته ممتدة بطول ولاية سيده نحوا من ثلاثين سنة، ولا أظنه فاتته صلاة في جماعة حضرا وسفرا ولا يفارقه دلائل الخيرات في قبه كلما

(54) ما بين القوسين ساقط من (م) و من الأصل.

وجد فسحة من الأشغال أخرجه وقرأها، ما تيسر منه، مع ملازمة أوراده، وإقامة الرواتب المشروعة، هكذا رأيناه، وأما مباشرته الناس، وملاقاة الضعفاء وذوي الحاجات والضرورات، فكان أرحم وأرفق بهم من الوالدة بولدها، ولا يخاطبهم إلا بالسيادة والتمويل، وأما أن يقهر أحدا أو يسبه فإنه في البعد الأبعد عن ذلك، وكان هو ووالداه وإخوته مماليك لمولانا السلطان العادل رحمه الله أعطاهم له والده السلطان سيدي محمد، فنشأ الوزير في كفالته، وتخلق بأخلاقه، من زمن الصبا إلى مماته، وكانت حياته مقرونة بسعادة السلطان العادل، فإنه من يوم قتل رحمه الله سنة خمسة وثلاثين ومائتين وألف، انتشر نظام مملكته، واختلت أسبابها، فلم تزل في اضمحلال حتى انطفأ سراجها، وكان قتله عبيد البخاري ظلما وعدوانا بعد رجوع السلطان من وقعة زيان، وكان السلطان بعد قتله يقول في كثير من الأمور : لو كان أحمد حيا ما وقع هذا، أو لكان كذا، ومن مناقبه الدالة على فضله الذي لا يطمع في مثله الا أفراد الرجال، أنه خرج من الدنيا ولم يخلف قليلا ولا كثيرا إلا كسوته التي على ظهره مع ماذكرناه من عظم الشأن، وعلو المرتبة، ونفوذ الكلمة في أقطار الأرض، فإنه كان هو السلطان في حقيقة الحال.

حدثنا السلطان العادل رحمه اله تعالى وقد ذكره يوما وأكثر من الثناء عليه حتى قال : والله لولا أنني كفنته وجهزته ما وجد ما يكفن به، فإننا وجدنا في صندوقه الذي وجدنا مفتاحه معلقا معه ستمائة مثقال، ووجدنا زماما بخطه عليه من الدين ستمائة مثقال، فقضينا ذلك الدين بتلك الدراهيم فخرج من الدنيا كيوم وضعته أمه، مع ما ظفر به من الشهادة، انتهى، فمن سمع هذا وتحققه فليعلم أن من سبقت له السعادة لا يضره شيء، فهذا الرجل قد خاض في غمرات الدنيا وقام في مقام مجموع الفتن، ومزرعة المظالم والسيئات، التي تستفز الرجال، وتهد الجبال، ووقف مع الذين قيل إنهم دعاة على أبواب جهنم، فلم يتعلق به من تلك الأدناس شيء، وأدرك الفوز الذي وقف دونه أطماع السابقين، فسبحان المتفضل الكريم، الواسع العليم، ومن تشوف إلى البرهان على ما ذكرناه، يقال له طلبك البرهان على مثل هذا مما لا تقول به أولو العقول والأذهان، فهل رأيت هذا الرجل شيد القصور، أو غرس البساتين، أو تأثل الأصول، أو

ادخر الذخائر، أو استعد للنوائب، كما يفعله من عمر دنياه ولم يبال بما تخرب من أخراه عافانا الله بفضله آمين.

وأما الوزير العلامة المفوه الرئيس أخونا في الله
سيدي محمد بن ادريس

فإنه كان عصام الدولة وحلية جمالها، ومجلى محاسنها ومظهر كمالها، بآثاره تزري دولة بني مولانا هشام، بدولة بني مروان بالشام، ساعدته أحكام السعود، وعاملته بإنجاز الوعود، فأدرك في ظلال دولة السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان من الجاه والعز والصولة، ما لم يدركه الوزير المهلبي مع ملوك الديلم ومعز الدولة. فضحكت له الأيام بعد عبوس، وأركبته أعز المراكب وألبسته أفخر ملبوس، وبيته في فاس ومنبته منبت طيب، وأصله الأصيل ناشئ عن واكف من الأصالة صيب، وجدت بخطه يوما في ذكر بعض آبائه الكرام، محمد بن ادريس بن محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس ثلاث مرات، فقلت له ما هذا التكرار ؟ فقال لي : هكذا بخط والدي مرفوعا إلى السيد محمد بن الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل، تكرر محمد بن إدريس في عمود آبائنا تبركا بالجد المذكور، وقال : فقلت لوالدي هذا النسب صحيح ؟ فقال : هكذا كان أباؤنا ينتسبون، وكانت عندهم ظهائر الملوك المتضمنة للتوقير والاحترام، وضاعت لهم في بعض الفتن الواقعة في باديتهم قبل انتقالهم لفاس، وكان بعض من ذكر في ذلك العمود، وهو السيد عبد القادر بن محمد بن إدريس رجلا صالحا زاهدا في الدنيا معرضا عن كل شيء من أسبابها، وكان أولاده أرادوا تجديد تلك الرسوم التي ذهبت فنهاهم عن ذلك، وقال لهم : أما النسب فإنه ثابت لنا والحمد لله بالحيازة المستمرة، والمزية النافعة النفع الحقيقي إنما تظهر في الآخرة، وأما في الدنيا فإن كان مرادكم التوقير بين الناس والخروج من وظائف العوام فأنا ضامن لكم ذلك إلى آخر الدنيا، انتهى.

(قال مليه غفر الله له : ينبغي هنا التنبه لنكتة جليلة، وذلك أن أكثر الناس، لا سيما من يدعي الورع يزهد في الانتساب إلى من لم يتحقق له

عنده الاتصال به، مثل هذا السيد الذي نهى أولاده عما ذكر، وذلك جهالة محضة، ومخاطرة في الدين، قال العلامة القادري في أزهاره في ترجمة الشريف سيدي عبد القادر الشبيهي(55) لما ذكر الحديث المعروف وهو(من انتسب لغير أبيه الى آخره)(56) ما نصه : قال الشيخ الكامل المكمل، برزخ الشريعة والحقيقة، سيدي أحمد زروق رضي الله عنه : من وجد بيد آبائه نسبا فليتمسك به للتبرك، وإن لم يقف على صحته للحديث (تبرء من نسب وإن دق كفر)(57) والناس مصدقون في أنسابهم ما لم يعلم خلاف ما قيل انتهى كلام الشيخ زروق، وعبارته في شرح الوغليسية(58) لما تكلم عن فضائل أهل البيت الشريف، والناس مصدقون في أنسابهم حتى يعرف ذلك بيقين انتهى كلام الأزهار، وقولنا : إن ذلك مخاطرة في الدين، أعني لما يظهر من قوله عليه السلام (تبرّؤ من نسب وإن دق كفر) انتهى، فهذا وإن كان يحمل على التغليظ مخاطرة لا محالة.

وكنت أنا وقع لي مثل ذلك، وجدت آبائي ينتسبون إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فحصلت لي ريبة في ذلك لما وقفت على قول الشيخ بن عبد السلام التونسي(59) وتلميذه ابن عرفة، يصعب إثبات نسب له ستمائة سنة، فبحثت عن تحقيق تلك النسبة لأسلافنا كل البحث، فلم أقف لذلك على ما يعتمد عليه، إلا أن الشيخ ابن ناصر كان ينسب لهم ذلك لما صاهرهم على ابنته ولم أتحقق أيضا قول الشيخ ابن ناصر رضي الله عنه، فتركت ذلك الانتساب، فلما وقفت على الحديث الذي نقله الشيخ زروق رجعت إلى تلك النسبة رجاء بركتها، وخوفا من الوقوع في ذلك الخطر).

وكان مقام سلفهم بقبيلة زمور من بني عمرو منهم من عهد قيام مغراوة على الأدارسة، واختفاء الأدارسة في أغمار القبائل، وكان والده

---

(55) عبد القادر بن عبد الله الشبيهي الجوطي الحسني دعي بالشبيهي للشبه بمحمد صلى الله عليه وسلم بسبب ما كان بين كتفيه من صورة الخاتم ت 1099 هـ 1687 م.

(56) في الجامع الصغير بالفاظ متقارنة.

(57) روى الامام احمد والدارمي بألفاظ متقاربة.

(58) كتاب فقهي للامام احمد زروق توفي سنة 899 هـ 1493 م.

(59) أبو الفتح محمد بن عبد السلام التونسي نزيل دمشق ولد بتونس وبها نشأ وطلب العلم عالما حافظا متفننا توفي سنة 749 هـ 1344 م الديباج المذهب ص 336.

المذكور سيدي إدريس رجلا صالحا أدركناه وزرناه مرارا، وكان يلتمس منه الخير، ويرغب الناس في صالح دعواته، فلا يلقاه أحد إلا قبل يده، وطلب منه الدعاء، ولا يعرف أحدا إذا لم يكلمه كأنه مصطلم ولكن ليس كل الاصطلام، ويذهب من داره بدرب اللمطى إلى جامع الأندلس، ولا يلقاه أحد الا هنالك وكان يقرأ الأحزاب الموظفة بجامع الأندلس ويصلي الصلوات المفروضة كلها هنالك، ويجلس في ناحية من المسجد، وإذا لم يحضر الإمام الراتب لا يصلي غيره، حتى كان كأنه هو الراتب، لأن الأئمة يتكلون علي وجوده هنالك في كل وقت، فلا يحتاجون إلى طلب من ينوب عنه، هكذا أدركناه، وكنت أقرأ هناك حزبا بين الظهرين، وهو من جملة أهل ذلك الحزب، فأغتنم زيارته وتقبيل يده ودعائه، مع ما كان بيني وبين الوزير المذكور من شدة الاتصال في زمن القراءة بسبب المناسبة الأدبية الجامعة بين المتجانسين، وسببه أني لما قدمت لفاس أول مرة وذلك عام تسعة وعشرين ومائتين وألف، وكنا نحضر معا عند الفقيه الأزمي، وجدناه في باب الشهادات من المختصر، فلما ختم أنشد الناس في ذلك قصائد على العادة، ومن جملة ذلك قصيدة لي أولها :

ختام الهوى قد فض منك بسره فما لك تطوي الحب من بعد نشره

فكتب إلي الوزير يطلب نسخة منها بقطعة أولها :

ختام الهوى هام الحبيب بحسنها

فتمكن من يومئذ بيننا وبينه حب روحاني، بقضاء سابق سبحاني، فقضينا زمان الشبيبة في تحصيل ما كتب من علوم الرسوم في اشتراك المشايخ والمجالس، واقتناء الفضائل والنفائس، وإقامة الأفراح والمتنزهات والمخاطبات والمساجلات والمباسطات، في الجد والترهات، فمضت لنا في ذلك ليال وأيام أرق وأطيب من أيام ذي سلم، بلا منغص إلا سرعة زوالها كأحلام من حلم، وكان والده المذكور في أول أمره يعلم الصبيان في المكتب الذي بباب درب اللمطي زمانا، وانتفع الناس به، فلما ترعرع ولده الوزير أقامه مقامه، وغلب عليه الهروب من الناس والانفراد كما أشرنا إليه، فكان الوزير في ذلك لامتثال أمر أبيه، وكان لا يخالفه لا فيما قل ولا فيما جل، ولا يفعل أمرا من الأمور المهمة إلا بإذنه، ولا يسقط في يده

درهم فأعلى إلا ألقاه في يد أبيه، فأقام في ذلك المكتب فأعانه الله عليه، وبارك في حركته، وأعطى القوة الباهرة، فكان يكتب الصبيان ويكتب غالب الكتب التي يقرأ بها، ولا يفوته ما هو بصدده من حضور مجالس التعلم، وإذا ذهب إلى القراءة يترك عمه سيدي أحمد ينوب عنه في المكتب حتى يرجع، وقد كتب على تلك الحالة كتبا عديدة زيادة على الأنصبة التي يحضر بها وهي شيء كثير، كتب ثلاث نسخ من الشفاء وسفرها بيده وباعها ودفع ثمنها لأبيه، ونسختين من القاموس وباعهما بثلاثين مثقالا لكل واحدة، وذلك أغلى ثمن في ذلك العهد، والشفاء بعشرة مثاقيل لكل واحدة وهو ثمنها، والأشياء في ذلك الوقت رخيصة، والدراهم قليلة.

ولما فرغ السلطان العادل مولانا سليمان من بناء الدارين اللتين بزقاقي الحجر والرواح، لولديه مولاي إبراهيم ومولاي علي، جعل وليمة عظيمة للشرفاء والعلماء وخواص الطلبة ومن يشار إليه بالخير، فأحيا الناس تلك الليلة بالصلاة وتلاوة القرآن والذكر والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الوزير المذكور ممن حضر وأنشد قصيدة طنانة عجيبة المنزع أولها :

حياك حياك رب العرش يادار ولاتحل حماك الدهر أكدار

فعجب الناس بها في ذلك المجمع وأنشدها الناشدون في كل بيت من بيوت الدارين، وكان من جملة الحاضرين شيخنا أبو الفيض سيدي حمدون بن الحاج فأخذها وتركها عنده، وفي صبيحة الليلة طلع بها للسلطان وقال له : هذا نفس غريب في هذا الزمان، ظهر في ولد من أهل فاس، وأنشد هذه القصيدة في هذه الليلة، فأمر له السلطان بمائة مثقال، ولكل واحد من الفقهاء بخمسين مثقالا، ولكل واحد من مطلق الحاضرين بعشرة مثاقيل، فدعا شيخنا الوزير ودفع له مائة مثقال، وكان مائة مثقال إذ ذاك لها بال عظيم، فقال الناس فلان أعطي مائة مثقال، فذهب بها الوزير وصبها في حجر أبيه، وبذلك مع ما باع به الكتب التي كان يكتب زوجه أبوه، فما زالت الأيام تدرجه وترقيه حتى كان ما تقدم من قيام أهل فاس على الإمام العادل مولانا سليمان ومبايعتهم لأولاد مولاي اليزيد، حتى انطفأت نارهم، وانكشف دخانهم، ورجع الناس لإمامهم العادل، وولى على فاس ولد أخيه

السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، فاتصل الوزير بخدمته، فلما بويع بعد موت عمه العادل بقي الوزير على رتبته تسمو به السعادة حتى استقل بالوزارة وكان يقول : إنه ما أدرك ما أدرك إلا ببركة ولي الله تعالى سيدي مولاي عمرو، وهو رجل صالح مشهور بالزهد والعبادة والتجافي عن جميع أسباب الدنيا، مقبل بكليته على ما خلق لأجله، وكان الناس يقصدونه للزيارة، ويستمدون منه الخير والبركة، وهو مقيم بمدرسة الصهريج التي في جوار جامع الأندلس، وهو رجل أستاذ يقرأ بالجماعة، دائم العكوف على التلاوة والذكر، قيل إن السلطان العادل كان طلب منه الوصول إليه فامتنع فأتاه السلطان في بعض الليالي مختفيا، وهو لا يعرفه، فزاره ودعا له، ولو عرفه ما ظهر له، وكان الوزير ملازما له لأجل الخدمة، والقيام بكل ما يحصه من الضروريات زمانا طويلا، وكنت طلبت منه أن يوصلني إليه لطلب الزيارة، فاستأذنه لي فأذن، فدخلت عليه في بيت بأعلى المدرسة، فرأيت رجلا تذكر الله رؤيته جالسا على حصير أظنه بلا لبدة، لابسا حائكا وقميصا لا غير، وكان الزمان باردا جدا، وهو ضعيف الجسم، نحيل مائل إلى الطول، أسود اللحية، فدعا لنا بالخير، وقرأ الفاتحة والحمد لله على لقاء أهل السعادة، فإنه ما أفلح من أفلح، إلا بصحبة من أفلح، وكان هذا السيد لا يقبل عطية أحد، ذكر الوزير أنه كان يعرف في بعض الكهوف بخارج باب الفتوح من حضرة فاس معدن الفضة، فكان إذا احتاج الى القوت يأتي بتراب منه وبدفعه للوزير أو لرجل آخر كان يخدمه أيضا، يقال له السيد محمد المغيرفي فيسبكه من دفعه إليه فيصرف منه عليه حتى ينقضي ويأتي بآخر، ولم أتيقن تاريخ وفاة السيد عمرو المذكور، وإن كنت حاضرا في الصلاة عليه وفي دفنه، إلا أنني ما كنت أقيد شيئا من أمثال هذا، وأما وفاة الوزير فإنها كانت سنة أربع وستين ومائتين وألف في أوائل المحرم كما تقدم.

وأما الوزير الأعظم، المبارك الأعز الأكرم، الذي له في ساحة المجد أرفع المباني، العلامة أبو الثناء سيدي الطيب بن اليماني

فإن هذا السيد انتشأ في حجور السعادة والصون، وصادف من العناية كل تأييد وعون، فجمع له بين الرياستين، فتردد بين المرتبتين

النفيستين، بعدما اقتنى من علوم الشرع ما اقتنى، وحاز منها ما توجه إليه الاعتناء، اتخذه السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان بن هشام معلما لأولاده الكرام، الذين خصهم الله بغاية الاعتزاز والاحترام، فلما قدم مولانا المظفر مراهقا من سجلماسة في صدر خلافة والده أضافه إلى تربيته ونظره، وخصه بكفالته في ورده، وصدره، فانتشأ مولانا المظفر في حضانته انتشاء الدر في صوان الصدف، وما خرج عن أخلاقه الحسان ولا صدف، حتى جمع عليه القرآن العظيم حفظا ورسما، وأدرك غاية الكمال مسمى واسما، وقرأ مقدمات العلوم وأمهاتها، وأحاط بصورة النجابة من جميع جهاتها، فلازمه بعد ذلك حتى تجلت شمس الخلافة في مشرقه، ولاح تاج الإمامة الكبرى على مفرقه، فهو الآن قطب دائرة ملكه، ويتيمة عقد سلكه، بيمنه حفظ الله الله سيادته وأدام في سماء العلى سعادته، ومما كتبت له في بعض قدماته مع مولانا نصره الله من فاس لمراكش،وكان قد طال مكثه بالغرب مانصه :

أيها السيد الرفيع المكانة ... والذي شرف الإله مكانه
أنت يا أيها الوزير همام ... أمر المجد أن يكون فكانه
طيب الأصل والفروع زكي ... أنت والله حافظ للأمانه
بيس للملك غيرك اليوم كاف ... رافع بالنهى له بنيانه
كلما دجت الخطوب أنارت ... منك ما قد دجى شموس الفطانه
قد وسعت الورى بخلق كريم ... وأبنت الأمور كل الإبانة
قدم اليمن إذ قدمت وجاءت ... كل من يستعين منك الإعانة
فهنيئا لهم بمقدم بحر ... لافظ دره لهم وجمانه
بحر علم من آل قيلة قوم ... نصر الدين بأسهم وأبانه
حفظ الله ذلك المجد حفظا ... دائما وأعزه وأعانه

المراد بآل قيلة الأوس والخزرج، وهو أعزه الله ليس ببدع في هذه المرتبة، ولا بأجنبي من خدمة عز هذه العتبة، فإن والده المرحوم كان في دولة السلطان العادل مولانا سليمان رئيس الكتبة، وكان للوزير الصالح القائد احمد به اعتناء زائد خارق للعوائد، لا يفارق جنبه الأيمن في صدر الديوان، لأنه لا يتلون بغير الصدق والعفاف، والمروءة بشيء من الألوان، وكان لنا رحمه الله معاشر الكتاب موردا صافيا، لا نخشى تغيره ولا كدره، وكنا له طائعين أولادا برره، وبيته في مكناس ثابت السيادة والأصالة ولا يبلي طول الزمان مآثره وخصاله.

حضرت يوما عند صاحبنا الفقيه الحاج المعطي الزداغي المراكشي (60) وكان قدم لحضرة السلطان العادل لحضرة مكناس بقصد سرد صحيح البخاري على العادة، فأنزله عند قهرمان الحضرة الأمين الحاج الطاهر بادو فأنزله بدار العريفة حول داره، فبينما نحن جلوس إذ قدم عليه الفقيه الكاتب سيدي اليماني، جاءه بأمر سلطاني، فساره بذلك ثم خرج، وكان معنا فتى من أهل مكناس، بذي اللسان مسلط على الأعراض، لاسيما أهل المروءة والدين، وكان إذ ذاك مشهورا بالأنظام الملاحين، التي يتعاطاها سفهاء العوام، لاسيما أهل مكناس، فلما خرج الفقيه الكاتب قال ذلك الفتى الموصوف كلمة ناقصة غاضة في حق الكاتب، فسمعه رجل كان معنا يقال له الحاج قدور الواقي، شيخ كبير تاجر من أهل مكناس، جال البلاد شرقا وغربا، وسودانا وبرا وبحرا، أخباريا نسابة صادق في كل ما يحدث به، يرجع إليه في الأمور العظام، لاسيما في الأنساب، فلما قال ذلك الفتى تلك المقالة قالله الحاج قدور، ماذا تقول ؟ قال له : كذا وكذا، فسأل عنه فقال للحاضرين ولد من هذا ؟ فقالوا هذا يقال له السيد فلان، طالب نجيب، حسن الخط أديب ‹وهو الذي غلب العميري شيخ الكلام لما تهاجيا بالملحون وفضحه على رؤوس الأشهاد›(61) فقال لهم : سألتكم عن أبيه ؟ فقالوا لا نعرف أباه، وكان في ذلك المجلس أيضا رجال مسنون السيد المكي بادو واثنان آخران لا أعرفهما، فقال له أنت مجهول الأب، وهؤلاء كبار أهل مكناس لا يعرفون أباك، وتقول في الفقيه المسلم السيادة والأصالة مما لا يليق بمنصبه ثم قال لأولئك الأشياخ : هل فيكم من يجهل والد الفقيه السيد اليماني ؟ فقالوا : نعرفه ونعرف جده بالمعاصرة، ونعرف سلفه المشهور بالخير والدين والنباهة والسيادة والوجاهة، فقال لهم : ما بالكم تسمعون كلام هذا السفيه المجهول {الأب}(62) ولا تنكرون عليه، هذا سبب خراب العالم، أن يسب الفاسد الصالح ولا ينكر عليه، لا حول ولا قوة إلا بالله، وما زال يشنع على القوم ويقبح سكوتهم عن ذلك، وكان أكبر منهم بكثير، وكان فيهم ذا جلالة وقدر، وجعلوا يأخذون بخاطره ويسعون

(60) ألمعطي الزداغي المراكشي من علماء دولة مولانا سليمان الذين يحضرون معه قراءة صحيح البخاري عام 1232 هـ، وجه عليه لذلك من مراكش ومكناس الاعلام المراكشي ز 7 ص 257.

(61) ما بين القوسين ساقط من (م).

(62) ساقط من (م) والأصل و (ش) وموجود في الفاسية.

في رضاه حتى استنزلوه من حالة الغاضب الذي اعتراه، فسكن قليلا، ثم قال والله اني لأعرف أصل هؤلاء القوم بني العشرين فإنهم من بلاد الأندلس، وكانوا أولا بتونس عند انتقالهم من الأندلس، ثم انتقلوا لتلمسان، ثم لفاس، ثم لسلا، ثم كانوا مدة بجبال الزبيب، ومن ثم انتقلوا لهذه البلدة، وهم ينتسبون الى الأنصار، انتهى كلام الحاج قدور المذكور. وكانت هذه القصة عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف، ولما كانت فتنة أولاد مولاي اليزيد، قدم الفقيه الكاتب سيدي اليماني لحضرة السلطان لفاس الجديد، وهو محاصر لفاس البالي فنزل معنا سيدي اليماني بدار الموقت التي هي متصلة بمنار الجامع الكبير، ونحن جماعة، وكنت أنا أباشره وأتسخر له، لأني أصغر القوم، وكان به ضعف وألم، لأنهم قدموا به ليلا فتضرر بذلك، وكانت الطريق التي بين فاس ومكناسة مخوفة لا تسلك إلا ليلا على خطر ‹وكانوا يمرون على طرف من جبل زرهون علي قنوفة فتعب الفقيه بذلك غاية التعب، وكان السلطان أمر خليفته بمكناس مولاي الحسن بتوجيه الفقيه سيدي اليماني، أراد سؤاله عن الأحوال الباطنة الخاصة ببيت المال، لأنه وقع فيه إسراف وتبذير، وعلم السلطان أنه لا يشفي غليله في ذلك إلا الفقيه سيدي اليماني، وقال السلطان لمولاي الحسن يركب القائد محمد أو ميمون الجرواني مع طائفة من إخوانه مع سيدي اليماني حتى يصل إلينا عزما فجاءوا به على الحالة المذكورة، فلما جاء نزل معنا كما تقدم›(63) ثم حدثته ذات يوم بما وقع من حديث الواقي، فقال لي صحيح كل ما ذكره عن سلفنا، إلا أنني ما عرفت إلا الانتقال من تونس لفاس، لا إلى تلمسان ثم فاس، وقال لي : إن سبب الانتقال من سلا الى الجبل أن بعض الأسلاف اذ ذاك كان متزوجا ببنت بعض أهل الجبل ‹الساكنين بسلا›(64) ثم حصلت هيعة بسلا من الغلاء فخرج بقومنا صهرهم الى الجبل، فأقاموا هنالك مدة ومنه الى مكناس، والله يعلم، ثم الى أين، قال لي : وكان قومنا يقال لهم بنو أبي العشرين البياشي بالشين المعجمة فتنوسي الوصف الأخير، وبقي الأول، ولم أدر ما سبب الوصفين لا الأول ولا الثاني، هذا حاصل ما ذكر لي الفقيه سيدي اليماني رحمه الله تعالى.

(63) ما بين القوسين من هامش الأصل بخط مؤلفه وساقط من (ش) و (ف).

(64) ما بين القوسين ساقط من (م).

قلت : رأيت السيد أحمد المقري في نفح الطيب ذكر أبا العشرين في محلين وذهب عني ذلك المحل، وكنت عهدت من عادتي في المطالعة أن أوقف على المهمات في الهامش عند المطالعة، ولم أكن طالعت منه إلا السفر الثاني والثالث، فأعدت مطالعة السفرين المذكورين، لكن إنما أنظر في الهامش لعلي أرى توقيفة على ذلك فسردتهما ورقة ورقة، فلم أجد ذلك، وعجزت عن مطالعة السفرين من أصلهما. ثم إني رأيت في وفيات الأعيان لشمس الدين بن خلكان، في ترجمة الشيخ أبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم البياسي الأنصاري، قال أحد فضلاء الأندلس وحفاظها، ثم قال وطاف بأكثر بلاد الأندلس، وتنقل فيها، ولما قدم من جزيرة الأندلس الى مدينة تونس جمع للأمير أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر صاحب إفريقية كتابا سماه "الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام" ابتدأ فيه بمقتل الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وختم بخروج الوليد بن طريف الشاري على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة الفراتية، ثم قال ابن خلكان في آخر ترجمته : وكان مولده يوم الخميس الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وتوفي يوم الأحد الرابع من ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمدينة تونس، والبياسي بفتح الباء الموحدة والياء المشددة المثناة من تحت والسين الغير المنقوطة، هذه النسبة الي بياسة، مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان، هكذا قاله ياقوت الحموي في كتاب المشترك وضعا، انتهى كلام ابن خلكان. وهذا يدل على أن ما ذكره الفقيه سيدي اليماني من أن البياشي بالشين المعجمة إنما هو تصحيف جرى على ألسنة العوام، كما هي عادتهم في كثير من الألفاظ، هذا ولا يبعد أن يكون هذا النسب هو الذي ينتمي إليه قوم البياز بفاس، فأبدلوا السين بالزاي لقرب المخرج، وكثيرا ما يتعاقب الحرفان المذكوران، كالسراط والزراط، والسعتر والزعتر، فيكون نسبهم الى البياسي المذكور، ويصح لهم نسب الأنصارية بلا إيراد ما حدثني به الفقيه أبو مالك السيد عبد الواحد الضرير السجلماسي البوعصامي(65) رحمه الله تعالى، قال : كنت عند القاضي الشريف مولاي عبد الهادي، وكان عنده عامل فاس السيد الطيب البياز، فقال له القاضي : هذا النسب الذي

(65) تقدمت ترجمته.

تنتسبون فيه الى الأنصار هل تنتسبون الى بعض المشاهير من صحابة الأنصار ؟ قال نعم، قال الى من منهم ؟ قال : لعبد الله بن رواحة، فقال له القاضي : عبد الله بن رواحة ما عقب ؟ فقال له العامل السيد الطيب ومن ذكر أنه ما عقب ؟ قال : فسكت القاضي، فلا أدري هل سكوته لكونه ليس على يقين من ذلك، أو إنما ترك ذلك خشية اللجاج انتهى، وربما يكون إنما اغتر القوم أهل فاس المذكورون لما سمعوا إطلاق البيازين على ربض غرناطة من الأندلس، فتمسكوا بهذا اللفظ، وإلا فالأصل البياسي كما قلنا، وهو مسلم النسبة الأنصارية، والله أعلم.

وقد ظهر بمجموع ما ذكرناه أن نسب القوم آل أبي العشرين إلى الأنصار واضح الصحة جدا، بل هو أصح من نسب البيازين ومن كثير من الأنساب الطويلة المدى، <بل صرح بذلك الأئمة الثقات الأماجد الهداة كالإمام أبي زيد سيدي عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، قال مؤلف "دوحة المجد والتمكين، في وزارة العالمين ابني العشرين"، قال العلامة أبو زيد الفاسي في الورقة الثانية من تأليفه في مشاهير علماء فاس في القديم ما نصه* : ومنهم بيت بني عشرين الخزرجيين، بيت علم وأصالة، منهم فقهاء أئمة، كالفقيه أبي الحسن علي بن عشرين، كان فقيها حافظا محصلا مستبحرا في الفقه، تفقه عليه فقهاء المغرب، وكان يحفظ المدونة، ومن صدره نقلت بعد أن أحرقها ملوك الموحدين من بني عبد المومن بن علي، يروى أنه لما جبرت من صدره في أول الدولة المرينية قوبلت بعد ذلك مع نسخة فوجدوها كما هي، لا خلاف بينهما إلا في مثل فاء أو واو، انتهى بلفظه، يعني كلام الفاسي وإن أردت بيان ما ذكر وإيضاحه فانظره في رسالتنا المسماة "بخمائل النسرين في الوزراء بني العشرين">(66)، ومآثر هذا الوزير ومحاسنه وآثاره في تشييد أسباب الخير في الدولتين الهشاميتين لا تعد، ولو ذهبنا الى تقييد ما شاهدنا من ذلك بالعيان لا انقضي الزمان قبل انقضائه، وأفضى بنا الى براح العجز وفضائه، ولو

(66) ما بين القوسين ساقط من (ش) و (ف) وأما رسالة خمائل النسرين في الوزراء بني العشرين فهو لمؤلف المبشر قلت وعنده كتاب آخر في نفس الموضوع سماه حسام الانتصار في بني العشرين الانصار، وفي الاعلام ان الفقيه الأديب السيد ج محمد بن الوزير ج ادريس بن الوزير الط أخبره بأن الحسام قد طبع، وان الخمائل ذيل الأول في أربع كراريس وان الأصل في عشرين كراسيا هـ الاعلام ج 6 ص 322 بترجمة الوزير محمد الط.

أفرد بالتأليف لكان بذلك حقيقا، وكان فعل ذلك لفاعله إلى نيل السعادة سببا وثيقا.

وأمـــا الحجابـــة

فإن هذا اللقب ظاهر معناه أن الحاجب هو الذي يحجب السلطان عن العامة، ويغلق الباب دونهم أو يفتحه لهم على قدر المصالح الضرورية السلطانية، وهكذا كان في دولة بني مروان وبني العباس، وأما في الدولة الأموية بالأندلس فإن الحاجب يحجب الخاصة والعامة، ويكون واسطة بين الناس وبين السلطان، الوزراء فمن دونهم، فلا تبرم الأمور الجليلة ولا الحقيرة إلا على يده، فتكون هذه المرتبة لها الرياسة على غيرها من المراتب، ثم تعاظم قدرها حتى وقع استبدادها، أي الحجابة واستقلالها كما وقع للمنصور بن أبي عامر في حجابته لهشام المويد، وأما دولة اللمتون فليس فيها شيء من ألقاب المملكة لبداوتها الصرفة، وكذلك أول الدولة الموحدية فإنها لم تستمكن في مقام الحضارة ‹الداعية الى انتحال الألقاب وتمييز المراتب والخطط الملوكية›(67) إلا في أواسطها لما استفحل أمرها، فلم يكن عندهم من المراتب إلا الوزير، وكانوا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف التصرف العام المشارك للسلطان في الرأي الخاص، كابن عطية وعبد السلام الكومي، ثم خصوا بعد ذلك هذا اللقب الذي هو الوزير بأهل نسب الدولة، كابن جامع وغيره، وكذلك دولة الحفصيين بإفريقية، وأما دولة زناتة وأعظمهم بنو مرين فلم يكن عندهم أثر لهذه المرتبة التي هي الحجابة.

وأمـــا القهرمانـــة

فإن السلطان إذا اتسع ملكه، وكثر في داره رواتب المرتزقين فإنه يحتاج بالضرورة إلى قهرمان خاص، أي أمين متصرف في أحوال أهل الدار من كل ما تدعو الحاجة إليه يجريها على قدرها ويرتبها علي مراتبها المضبوطة، وقوانينها الطبيعية، فلا يتعدى شيء مركزه من قوت وكسوة ونفقة في المطابخ والصطبلات وغير ذلك، ومن ذلك حصر الذخائر وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة

(67) ما بين القوسين ساقط من (م).

على السجلات، وهذه المرتبة في الدولة الشريفة الحسنية الإسماعيلية أعز الله ذكرها كلها بجميع تفاصيلها مندرجة في اسم الأمين في الاصطلاح، كالحاج حمو بن حيون عند السلطان العادل مولانا سليمان، وابن العادل في أول دولة السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، وابن شقرون في دولة مولانا أمير المؤمنين نصره الله تعالى.

وأمـــا الكتـــابـــة

هذه المرتبة أشرف من جميع المراتب المتقدمة، لتوقف الجميع عليها، وعدم قيام شيء منها بدونها، فإنها أخت السيف وقرينته، بل قالوا إن القلم أحد وأمضى من السيف، وشأنه أجل من أن يدرك بالكيف، قال ابن الرومي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت   له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يقاومه   ما زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للاقلام مذ بريت   إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وإنما أخرت الكلام في هذه المرتبة لأتفرغ لها، فإن بيننا وبينها رحما وشيجة العروق، ومنتسبا واضح الشروق، إذ كنا لها برهة من الزمان منتحلين، وإن لم نكن في عصبتها مستفحلين، فأردنا بحول الله تعالى أن نأتي في هذا التقييد عند بسط الكلام، بما يكون تحفة لحملة الأقلام، صلة لتلك الرحم المهجورة، وتسريحا لمثابة الحسن والاحسان المحجورة، فإن هذا الزمان قد غمص هذه الرتبة حقها، حتى ساومها(68) محوها ومحقها، ولم يبق لها حرمة، ولا راعى حقوق الذمة، فليس إلا أطلالا بالية، ورسوما خالية، وعسى الله أن يجري فلكها جري السعادة ويدير، فإنه على كل شيء قدير.

فنقول : إن الكلام فيها ينحصر في سبعة مقاصد، الأول في مدلول الكتابة في لغة العرب، الثاني في أوليات تتعلق بها كأول من خط الخط العربي، وأول من كتب أما بعد، وأول من قال من فلان الى فلان، الثالث في آلات الكاتب، الرابع في المكتوب فيه، الخامس في المكتوب به، السادس في الكاتب، السابع في المكتوب إليه.

(68) في (م) سامها بدل سوامها.

المقصد الأول : في معنى الكتابة في اللغة

يقال كتبه كتبا وكتابا خطه ككتّبه واكتتبه أو كتبه خطه، واكتتبه استملاه، كاستكتبه انتهى بلفظ القاموس، ولم يذكر الكتابة من المصادر، وكأنه جعلها حرفة كالتجارة، وقد فسر كتب بخط، وليس مراده بالخط الامتداد الوهمي الذي هو قسيم النقطة والجسم، ولكن المراد الرقم الظاهر على وجه الصحيفة ونحوها، ولم يعرفها صاحب الاقتضاب، وإنما قال في بعض كلامه، الزبارة والتزبرة : الكتابة، قال رجل من أهل اليمن : أنا أعرف تزبرتي أي كتابتي، قال أبو ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدواة يزبره الكاتب الحميري

وقال امرؤ القيس :

كخط زبور في مصاحف رهبان(69)

قال ابن قتيبة الزبور في هذا البيت الكاتب، يقال زابر وزبور بالزاي وذابر وذبور بالذال المعجمة انتهى، وأما أهل الرياضي فإن رئيسهم إيقليدس عرف الخط الذي هو بمعنى الكتابة، فقال : الخط هندسة روحانية ظهرت بآلات جسدانية، وقال أيضا : الخط شيء أظهره العقل بواسطة هي القلم، فلما قابل النفس عشقته بالعنصر.

المقصد الثاني : في أول من كتب بالعربي

{قال القاضي شمس الدين ابن خلكان ان أول من خط العربي إسماعيل عليه السلام، والصحيح عند أهل العلم أنه مرامر بن مرة من أهل الأنبار، وقيل : إنه من بني مرة، ومن أهل الأنبار انتشرت الكتابة في الناس هـ}(70) قال في القاموس : مرامر بن مرة أول من خط الخط العربي انتهى، وقد ضبط مرامر بقوله كعلابط وقال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتاب آلة الكتاب ذكر أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال : أول من وضع الخط يعني العربي نفر من طي من

---

(69) شطر بيت :

أتت بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

من قصيدة قفا نضحك من ذكري عيب وعرفان لا من قصيدة قفا نضحك وذكري حبيب ومنزل.

(70) ما بين القوسين بهامش الأصل وفي الملكية وساقط من (ش) و (ف).

بولان، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فصاروا إلى مكة فتعلمه منهم شيبة بن ربيعة بن حرب بن عبد شمس، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهشام بن المغيرة المخزومي، ثم أتوا الأنبار فتعلمه نفر منهم، ثم أتو الحيرة فعلموه جماعة منهم : سفيان بن مجاشع بن عبد الله بن دارم، وولده بالكوفة يسمون أولاد الكاتب، ثم أتوا الشام فعلموه جماعة فانتهت الكتابة إلى رجلين من أهل الشام، يقال لهما الضحاك وإسحاق بن محمد، وكانا يخطان الجليل، فأخذ إبراهيم بن الشجزي الخط الجليل من إسحاق بن حماد، واخترع منه خطا أخف منه وسماه الثلثين، وكان أخط أهل دهره بخط الثلثين، ثم اخترع قلما أخف من الثلثين وسماه الثلث، وأقام ابن الخميس على الخط الجليل الذي أخذه عن إسحاق بن حماد إذ أخذ عن إسحاق بن حماد الخط الجليل اخترع منه قلما آخر أهون من الجليل تاما مفرط التمام مفتحا، فأعجب ذا الرياستين الفضل بن سهل فأمر الكتاب ألا يحرروا الكتب إلا به، وسماه الرياسي، ثم أخذ ابن الأحول عن ابن الشجزي الثلثين والثلث، فاخترع منهما قلما سماه النهصف، وقلما آخر سماه خفيف النصف، وقلما أخف من الثلث سماه خفيف الثلث، وقلما سماه المسلسل متصل الحروف لا ينفصل بعضها عن بعض، وقلما سماه غبار الحلبة، وقلما سماه خط المؤامرات، وقلما سماه خط القصص، وقلما قصيرا خفيفا سماه الحوائجي، وقلما سماه المحدث، وقلما سماه المدمج، وقلما سماه الطوماري، انتهى، وحاصل ما نقل عن ابن مقلة من الأقلام ما يبلغ عدد أصنافه أحدا وعشرين، وهي هذه : الجليل، وقلم الثلثين، ويسمى السجلي، والرياسي، والنصف، وخفيف النصف، والثلث، وخفيف الثلث، ويسمى قلم الرقاع، والمسلسل، وغبار الحلبة، وصغير الغبار، وهو المسمى قلم المؤامرات، وقلم القصص، والحوائجي، والمحدث، والمدمج، وثقيل الطومار، وخفيف الطومار، والشامي، ومفتح الشامي، والمنشور، وصغير المنشور، وقلم الجزم قال ابن مقلة : للخط أجناس قد كان الناس يعرفونها ويعلمونها أولادهم، ثم تركوا ذلك وزهدوا فيه كزهدهم في سائر العلوم والصناعات، وكان أكبر تلك الأجناس وأجلها قلم الثلثين، وهو الذي كانت السجلات تكتب به فيما يقطعه الأئمة، وكان يسمى قلم السجلات، ثم ثقيل الطومار، والشامي، وكان يكتب بهما في

القديم عن ملوك بني أمية، ويكتب إليهم في المؤامرات بمفتح الشامي، ثم استخلص أولاد العباس قلم النصف فكتب به عنهم، وترك ثقيل الطومار والشامي، ثم إن المامون تقدم الى ذي الرياستين بأن يجمع حروف قلم النصف ويباعد بين سطوره فـفصل ذلك وسمى القلم الرياسي، فصارت المكاتبة عن السلطان بقلم النصف والرياسي، والمكاتبة إليهم بخفيفهما، والمكاتبة من الوزراء الى العمال بقلم الثلث، ومن العمال إلى الوزراء بصغيره، ومن الوزراء الى السلطان بقلم المنشور عوضا عن مفتح الشامي. وصغير المنشور، وسميا بقلم المؤامرات وقلم الرقاع وهو صغير الثلث، للحوائج والظلامات، قال : وأكثر أهل هذا الزمان لا يعرفون هذه الخطوط ولا يدرون ترتيبها، قد اقتصر كل كاتب على ما وقف عليه خطه كاقتصارهم في سائر الأمور.

وأما أول من افتتح كتابه بالبسملة فسليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام، وأول من قال أما بعد فداوود عليه السلام، وأول من كتبها من العرب قس بن ساعدة الإيادي، وكانت العرب تقول في افتتاح كتبها وكلامها باسمك اللهم، فجرى الأمر على ذلك في صدر الإسلام حتى نزل {باسم الله مجراها ومرساها} فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم الله حتى نزل {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان} فكتب باسم الله الرحمان، حتى نزلت {وإنه باسم الله الرحمان الرحيم} فصارت سنة إلى يومنا هذا.

وأما أول من طبع الكتاب أي الطبع عليه من خارج بعد طيه فعمرو بن هند، وسبب ذلك أنه كتب كتابا للمتلمس الشاعر الى عامله بالبحرين يوهمه أنه أمر له بجائزة، وقد أمر العامل فيه بضرب عنقه، فاستراب المتلمس فدفعه الى من قرأه عليه فأخبره القارئ، فرمي بالكتاب في النهر وفر على وجهه وفي ذلك يقول :

وألقيتها بالثني من جنب كافر   كذلك أجزى كل قط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها   يجول بها التيار في كل محفل

فلذلك أمر عمرو بن هند بالكتب فختمت، وفي الصحيح أن رسول الله عليه وسلم كتب إلى ملك الروم كتابا فلم يختمه، وقد روي أن أول من ختم الكتاب نبي الله سليمان بن داوود عليهما السلام، وقالوا في تأويل

قوله تعالى {إني ألقي إلي كتاب كريم} أي مختوم.

وأما أول من كتب من فلان الى فلان فرسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار ذلك سنة، يكتب الكاتب ويبدأ باسمه قبل اسم من يخاطبه، ولا يكتب لقبا ولا كنية، حتى ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتسمى بأمير المؤمنين كما تقدم في رايته أول هذا التقييد، فجرت العادة بذلك الى أول ولاية الوليد بن عبد الملك، فكان الوليد أول من اكتنى في كتبه، وأول من عظم الخط والكتب، وجود القراطيس، ولذلك قال أبو نواس :

سبط مشارفها دقيق خطها وكأن سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى في جلدها يقق كقرطاس الوليد هجان

وكان الوليد يقول : لا أكاتب الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضا، فجرت العادة على ذلك إلا في أيام عمر بن عبد العزيز، ويزيد الكامل، فإنهما لما وليا ردا الأمر الى ما كان عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزمان الصحابة رضوان الله عليهم، فلما ولي مروان بن محمد رد ما كان في زمان الوليد.

المقصد الثالث : في آلة الكتابة

كالدواة ومدادها وصوفتها، والخرقة التي يمسح بها، والسكين وقرابها، والمقص وما يجعل فيه الأقلام، هذه هي الآلات المشهورة التي يتوقف الكاتب عليها، وربما توقف على أمور أُخَر في النادر.

فأما الدواة فيقال : هي الدواة والنون، قال بعض المفسرين في قوله تعالى {نون والقلم} إن النون هي الدواة انتهى، وجمع الدواة دويات كقناة وقنوات، ويقال دواة ودوى كما يقال أيضا قناة وقنا، قال الشاعر :

لمن الدار كخط بالدوى أنكر المعروف منها وامحى

ويقال دواة ودوي كما يقال قناة وقني قال الشاعر :

وكم تركت ديار الشرك تحسبها تلقى الدوى على أطلالها ليقا

وجمع النون في العدد القليل أنوان وفي العدد الكثير نينان، كما يقال في جمع حوت أحوات وحيتان، واشتقاق الدواة من الدواء، لأن بها صلاح أمر الكاتب، وجعلها بعض الشعراء من دوى الرجل يدوى اذا صار

في جوفه الداء فقال :

أما الدواة فأدوى حملها جسدي   وحرف الخط تحريف من القلم

وليس للنون فعل يصرف منها، وأما الدواة فقد صرف منها أفعال، واشتقت منها أسماء، فقالوا ادويت دواة، إذا اتخذتها فأنا مدو، فإذا أمرت غيرك أن يتخذها قلت ادو دواة، ويقال للذي يبيع الدوي دواء، كما يقال لبائع الحنطة حناط، ولبائع التمر تمار، فإذا كان يعملها فهو مدو، كما يقال للذي يعمل القناة مقن قال الراجز :

أطر الثقاف خرص المقنّي(71)

ويقال للذي يمسك الدواة ويحملها داو، كما يقال لحامل السيف سائف، ولحامل الترس تارس ويقال لما تدخل فيه الدواة ليكون وقاية لها صوان وغلاف وغشاء، فإن كان شيء يدخل في فمها لئلا يسيل منها شيء فهو سداد وصمام وعفاص، وكذلك القارورة ونحوها، ومن اللغويين من يجعل العفاص ما يدخل في رأس القارورة، ويجعل الصمام والسداد ما يدخل فيها، ووزن دواة فعلة، وأصلها دوية تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا، ويدل على أن لامها ياء قولهم في جمعها دويات، فإن قال قائل : فإن الواو في دواة قد تحركت أيضا وانفتح ما قبلها فهلا قلبت ألفا، ثم تحذف إحدى الألفين للالتقاء الساكنين، فالجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما أن حكم التصريف يوجب أنه إذا اجتمع في موضعي العين واللام حرفان، يجب إعلالهما أعلت اللام وتركت العين، لأن اللام أضعف من العين وأحق بالإعلال، إذ كانت طرفا، وفي موضع تتعاقب عليه حركات الإعراب، وهي محل التغيير، والثاني أنهم لو فعلوا ما سامنا هذا السائل لأجحفوا بالكلمة وذهب معناها، ويقوي هذا الجواب ويدل على صحته أنك تجد الواو التي يلزم إعلالها إذا وقعت بعدها ألف لم يعلوها في نحو نزوان والكروان لئلا يلزمهم حذف إحدى الألفين، فيلتبس فعلان بفعال، ولم يأت في الكلام إعلال العين وتصحيح اللام إذا كانا جميعا حرفي علة إلا في مواضع يسيرة شاذة مما عليه الجمهور نحو غاية وآية

(71) وفي كتاب الاقتضاب عض الثقافي خرص المثني.

وطاية وثاية وراية انتهى. من كتاب الاقتصاب للشيخ الجليل أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي(72) رحمه الله تعالى وأما إصلاح الدواة بالمداد فإن صوفة المداد قبل أن تبل بالمداد يقال لها : البوهة فإذا خالطها المداد، فهي الليقة، وجمعها ليق، يقال لقت الدواة وألقتها فهي ملاقة، ويقال لها ليقة قبل بلها تسمية لها بما تؤول إليه، كما يقال للكبش ذبح وذبيحة قبل أن يذبح، وللصيد رميّة قبل أن يرمى، تقول العرب بئس الرمية الأرنب، وقال تعالى (وفديناه بذبح عظيم) فإذا عظمت الصوفة فهي الهرشفة، فإن كانت قطنة فهي قطفة، والكرسفة والقطن كله يقال القطف والكرسف، ويقال كرسفت الدواة كرسفة وكرسافا.

وأما المداد فإنه يذكر ويؤنث فيقال : هو المداد وهي المداد، ويقال له نقس بكسر النون، وأما النقس بفتح النون فهو مصدر نقست الدواة إذا جعلت فيها نقسا، وقد حكى الإمام ابن قتيبة في كتاب آلات الكتاب أنه يقال للمداد نقس ونقس بالفتح والكسر، قال : والكسر أفصح وأعرب، ويقال مددت الدواة أمدها مدا إذا جعلت فيها مدادا، فإذا كان فيها مداد فزدت محليه قلت أمددتها إمدادا، وإذا أمرته أن يأخذ بالقلم من المداد قلت استمدد، وإذا سألته أن يعطيك على القلم مدادا قلت أمددني من دواتك، وقد استمدته إذا سألته أن يمدك، وحكى الخليل : مدني وأمدني أعطني من مداد دواتك، وكل شيء زاد في شيء فهو مداد له، قال الأخطل :

رأت بارقات بالأكف كأنها   مصابيح سرج أوقدت بمداد

يعني الزيت، والحبر من المداد مكسور لا غير، فأما العالم فيقال له حبر وحبر، وقال بعض اللغويين يسمى المداد حبرا باسم العالم كأنهم أرادوا مداد حبر فحذفوا المضاف، ولو كان ما قالوه صحيحا لقالوا للمداد حبر بالفتح أيضا، فالأشبه أن يكون سمي بذلك لأنه يحسن الكتاب من قولهم حبرت الشيء إذا حسنته، ويقال للجمال حبر وسبر، وفي الحديث (يخرج من

---

(72) البطليوسي كان عالما بالأدب واللغة، متبحرا فيهما، مقدما في معرفتهما وإتقانهما سكن مدينة بلنسية، توفي سنة 521 هـ 1127 بمدينة بلنسية، وله مؤلفات كثيرة منها : "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب" وجدير بالذكر التنبيه على ان شرح أدب الكتاب له، نسبه بعضهم إليه، ورأيت في التكملة لكتاب الصلة ج 1 ص 20 بترجمة احمد أبي العباس بن بلال : أنه أي المترجم هو مؤلف "الاقتضاب" لا البطليوسي بل قال أبو عبد الدين ابن خلاصة النحوي أنه أغار عليه وانتحله اهـ "وفيات الأعيان" ج 2 ص 282، ازهار الرياض ج 3 ص 103، وترجمه ترجمة طويلة من كتاب خاص لابن خاقان في التعريف بابن السيد.

النار رجل قد ذهب حبره وسبره)(73) فإذا قيل مداد حبر فكأنه قيل مداد زينة وحسن، ويجوز أن يكون مشتقا من الحبر والحبار وهو الأثر، سمي بذلك لتأثيره في الكتاب، قال الشاعر :

لقد أشمتت بيَ آل فَيْدٍ وغادرتْ بجسمي حَبراً بنت مصّانَ باديا

ويقال أمهت الدواة إذا جعلت فيها ماء فإذا أمرت بذلك قلت أمه دواتك وموه.

وأما الخرقة التي يمسح بها الكاتب قلمه فهي الوقيعة بالقاف، كما في الاقتضاب، قال كذا حكاها الثعالبي في فقه اللغة، وقال أبو عمرو الشيباني : وفيعة بالفاء، وكذا وجدتها مقيدة بخط علي بن حمزة، وأما ما يدخل فيه القلم فهو غمد وغلاف وقمجار وكذلك للسكين.

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به، كنا أردنا أن نذكر هنا طرفا من صناعة المداد، ثم رأينا ذلك يخرج بنا إلى فادح الطول، والدخول في الفضول، فإن ذلك باب واسع، ولكن لا بأس أن نذكر منه صنعة غريبة نسبها بعضهم إلى الإمام الشافعي، وذكر الأبيات العشرة في صفتها ونسبها له أولها :

إن رمت صنعة حبر بين الأفاضل تذكر

وتلخيص هذه الكيفية أن تأخذ من الماء رطلا وثلثا وتلقي فيه أوقية ونصفا من عفص مسحوق ينقع فيه خمسة عشر يوما حتى يصير أحمر اللون، ثم يصفى، وتأخذ أوقية زاج مسحوق ويجعل في خرقة صفيقة ويغمس في ذلك الصفو ويحرك ويعصر المرة بعد المرة حتى لا يبقى في الخرقة شيء، ثم تسحق أوقيتان من الصمغ العربي الأشقر، ويلقى في الماء المذكور ويحرك حتى يذوب، ثم يجعل في ذلك ثلاثة دراهم سكرا، ثم يرفع في الإناء للادخار، والله أعلم.

وأما السكين فهي المدية والخيفة والصلت والمجزأة، والرميض، والمذبح، والمبراة، والسلط، والفالية، وآكلة اللحم، والسخينة، والشلقاء ممدودة على وزن الحرباء، قال الفراء : السكين يذكر ويؤنث، وأنشد :

---

(73) لم نقف عليه.

فعيث في السنام غداة قر بسكين موثقة النصاب

وقال ابن الأعرابي : في المدية ثلاث لغات، الفتح والضم والكسر، ويقال إن السلط هي الكبيرة منها، ويقال لجانب السكين الذي يقطع به الحد والغرب والغر والغرار والذلق، ولجانبها الذي لا يقطع الكل، ولطرفها الذباب والظبة، وللذي يمسك الكف منها المقبض والمقبض بفتح الباء وكسرها، والنصاب، والعتر، والجزأة، يقال جزأت السكين وأجزأتها إذا جعلت لها جزأة، وأنصبتها إذا جعلت لها نصابا، وأقبضتها إذا جعلت لها مقبضا، وذكر ابن قتيبة في أدب الكتاب أن النصاب للسكين والمدية، والجزأة للإشفى والمخصف، وهو رأي كثير من اللغويين، ويقال للمسمار الذي تشد به الحديدة في النصاب الشعيرة، وكذلك السيف، قال الراجز :

كأن وقب عينه الضريرة شعيرة في قائم مسمورة

ويقال لما يشد به النصاب اللكك، ويقال للحديدة التي تدخل في النصاب من السكين السيلان، وكذلك من السيف، ويقال لوجهي السكين الأللان واحدهما ألل فإذا كانت حادة قيل سكين حديد وحداد وحداد ومرهف وذليق ومذلق وهذام وحد وصف بالمصدر قال الشمردل بن شريك :

كأن جزارا هدام السكين جزله لميسر أفانين

ويقال وقعت السكين ورمضتها وطررتها وذريتها بالتخفيف وذريتها بالتشديد وأرهفتها كل ذلك إذا أحددتها، ويقال الرمض أن تحد الحديدة بين حجرين، فإذا انكسر طرفها قيل : انفلت انفلالا وتفلل تفللا، وقضمت قضما، وكذلك يقال في السيف قال الشاعر :

فلا تعدني إنني إن تلاقني معي مشرفي في مضاربه قضم

ويقال لغمدها قمجار وغلاف وقراب، أنشد المطرز

(وأخرج السكين من قمجارها)

فإذا أدخلتها في غمدها قلت غلفتها وأغلفتها، وقربتها وأقربتها، الثلاثي مشدد العين، وقيل أقربتها جعلت لها قرابا وقربتها إذا أدخلتها في القراب، وغمدتها بالتخفيف وأغمدتها، وهذه الآلة التي هي السكين

هي آكد آلات الكتاب لابد من حضورها وإلا كان عرضة للعوائق عن جملة أمره، قال الفقيه العلامة السيد العربي المستاري(74) في نظمه المعلوم :

ولتجعلن حولك سكينا إذا ما قلم عصى فرأسه أنبذا

وأما المقص فلها أيضا أسماء متعددة، فهي المقص والمقطع والمقراض والجلم، فإذا أردت الموضع الذي يقص فيه ويقطع، قلت مقص ومقطع، ففتحت الميم، وكذلك مقرض ومجلم، وأكثر ما يقال بالتثنية، يقال اشتريت مقصين ومقراضين وجلمين، يجعلون كل واحدة من الحديدتين مقراضا ومقصا وجلما قال الشاعر :

ولولا نوال من يزيد بن مزيد لصوت في حافاتها الجلمان

وقد جاء فيها الإفراد أيضا قال سالم بن وابصة :

داويت صدرا طويلا غمره حقدا منه وقلمت أظفارا بلا جلم

وقال بعض الأعراب :

فعليك ما اسطعت الظهور بلمتي وعلي أن ألقاك بالمقراض

ويقال في تصريف الفعل منها : قصصت وقطعت وقرضت وجلمت وقد قالوا : جرمت بالراء، ويقال لطرفيها الذبابان والظبتان ولحديهما الغراران ولجانبيهما اللذين لا يقطعان شيئا الكلان، ولحافتيهما السمان وكذلك يقال لثقبي الأنف السمان، وأنشد أبو حاتم :

ونفست عن سميه حتى تنفسا وقلت له : لا تخش شيئا ورائيا

ويقال للحديدة التي تسمر بها الشعيرة، ولصوتها الصليل والصرير، وللثقب بطرفيها الوخز، وكل طعن وخز، قالت الخنساء :

ببيض الصفاح وسمر الرماح فبالبيض ضربا بالسمى وخزا

ويقال خسقت وخزقت بالسين وبالزاي إذا ثقبت بسهم أو بإبرة أو نحو ذلك.

---

(74) العربي المستاري أديب كثير النظم نسبته الى بني مسارة من قبائل الجبال قرب وتهان، صاحب المنظومة "سراج طلاب العلوم" التي شرحها البلغيثي في كتابه "الابتهاج بنور السراج" توفي بعد 1199 هـ 1785 م "الابتهاج" ج 1 ص 5 الى 14 "الاعلام" للزركلي ج 4 ص 224 ط 5 سنة 1980.

قال ابن قتيبة : إن كان الذي يكتب فيه جلدا فهو رق وقرطاس بكسر القاف، وقرطاس بضمها، وقرطاس، وقد تقرطست قرطاسا إذا اتخذته، وقرطست قرطاسا إذا كتبت فيه، وتقول قرطسنا يا فلان أي جئنا بقرطاس فإن كان من خرق فهو كاغد بالدال المهملة وحكي بالمعجمة، وقد يستعمل القرطاس في كل بطاقة يكتب فيها ، ويقال لما يكتب فيه صحيفة ومهرق، وأصله بالفارسية مهره، والقضيم والقضيمة قال الأعشى :

ورب كريم لا يكدر نعمة وإذا تنوشد بالمهارق أنشدا(75)

وقال امرؤ القيس :

(وبين الشبوب كالقضيمة قرهب)

ويقال السجل والوصر بمعنى واحد، ويقال للصك قط، وجمعه قطوط وقطاط، وكذلك كتب الجوائز والصلات قال الأعشى :

وألقيتها بالثني من جنب كافر كذلك أقنو كل قط مضلل

وقال المتلمس :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقال الله تعالى {ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب} فإن كان كتابا كتب فيه بعد محو فهو طرس، ويقال رقمت الكتاب رقما ولقمته لقما، ونمقته نمقا، ونمقت تنميقا، وحبرت تحبيرا، ونبقته تنبيقا، النون قبل الباء، وبنقته تبنيقا الباء قبل النون، ورقشته ترقيشا، وزبرجته زبرجة وزبرجا وزورته تزويرا، وزخرفته زخرفة، كل ذلك إذا كتبته كتابة حسنة، فإذا نقطته قلت وشمته وشما، ونقطته نقطا، وأعجمته إعجاما، ورقنته ترقينا قال طرفة :

كسطور الرق رقشه بالضحى مرقش يشيمه

وقال المرقش :

برقم ووشم كما نمنمت بمنشمها المزدهاة الهدي

(75) يشار الى ما في هامش الأصل، وهو : رب كريم لا يكدر نعمة.

قالوا وبهذا البيت سمي المرقش مرقشا، وقال رؤبة :

(دار كرقـــم الكاتـــب المرقـــش)

فإذا فسد الخط قيل مجمجه مجمجة، وثبجه تثبيجا، وشرمجه شرمجة، وهلهله هلهلة، ولهلهه لهلهة، فإذا لم يبين خطه قيل : دخمسه دخمسة، ومجمجمة مجمجمة، وعقمه عقما، وعقله عقلا، فإذا أدق الحروف وقارب بعضها من بعض، قيل قرمط قرمطة، وقرضع قرضعة، فإذا مد الحروف قيل مشق مشقا، ويقال المشق سرعة الكتابة وسرعة الطعن، وقد تقدم لنا ذلك، فإذا عظم الحروف وطولها قيل مد مدا ومط مطا، ومططها تمطيطا، فإذا نقص من الكتابة شيئا فألحقه بين الأسطار أوفي عرض الكتاب فهو اللحق وجمعه ألحاق :

عـــور وحـــول وثالـــث لهـــم كأنـــه بيـــن أسطـــر لحـــق

فإذا سوى حروف كتابه ولم يخالط بعضها من بعض قيل : جزم يجزم جزما، وخط مجزوم وجزم، ويقال من السطر سطر بالتخفيف وبالتشديد، وسيطر، ويقال سطر وسطر بتسكين الطاء وفتحها وجمع سطر الساكن أسطر وسطور، وجمع سطر المفتوح أسطار، ويجوز فيه سطور كما قالوا أسد وأسود، وجمع الجمع أساطير فإذا وضع على الكتاب ترابا بعد الفراغ من كتبه قال أتربة إترابا، وتربته تتريبا، ومن اللغويين من يقول أتربت ولا يجوز تربت.

قال النضر بن شميل كنت يوما عند المأمون وعلي أطمار فقال يا نضر: أتدخل علي في هذا اللباس ؟ ثم تجاذبنا الحديث فقال المأمون : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(76) : "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كان فيه سداد من عوز" قال النضر فقلت يا أمير المؤمنين حدثني عوف الأعرابي عن الحسن بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها فإن فيه سدادا من عوز" وكان المامون متكئا فجلس وقال : السداد في هذا الموضع لحن ؟ قلت نعم، قال ما الفرق

(76) ذكره السيوطي في "الجامع الصغير" وعزاه للشيرازي.

بينهما ؟ قلت هو بالفتح القصد في الدين، وبالكسر البلغة وما يسد به الشيء، قال أتعرف العرب هذا ؟ قلت نعم، هذا العرجي من ذرية عثمان بن عفان يقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
كأني لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتي في آل عمر

فأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال : قبح الله من لا أدب له، فقلت ما لحن أمير المؤمنين وإنما لحن هشيم، وكان لحانة فتبع ذلك أمير المؤمنين، كما تتبع ألفاظ الفقهاء، فقال لي كيف روايتك للشعر؟ فقلت أروي الكثير منه، فقال انشدني أحسن ما قالته العرب في الحلم فأنشدته :

إذا كان دوني من بليت بجهله أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محل من العلى هويت إذن صفحا وحلما على المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيت له حق التقدم والفضل

فقال ما أحسن ما قال، فقال أنشدني أحسن ما قالته في الحزم ، فأنشدته :

على كل حال فاجعل الحزم عدة لما أنت باغيه وعونا على الدهر
فإن نلت أمرا نلته عن عزيمة وإن قصرت عنه الحقوق فللعذر

فقال أحسن فيما قال، فأنشدني أحسن ما قالته في استصلاح العدو فأنشدته :

وذي غيلة سالمته فقهرته وأوقرته مني بعبء التجمل
ومن لايدافع سيئات عدوه بإحسانه لم يأخذ الطول من عل
ولم أر في الأشياء أسرع مهلكا لضغن عدو من وداد معجل

فقال ما أحسن ماقال، فأنشدني ما قالته في التسكين والتهدين فأنشدته :

إني ليهجرني الصديق تجنبا فأريه أن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريته فيكون تركي للعتاب عتابا
وإذا بليت بجاهل متحكم حسب المحال من الأمور صوابا
أوليته مني السكوت وربما كان السكوت عن الجواب جوابا

فقال أحسنت، ثم قال ما لك يانضر ؟ فقلت أريضة بمرو الروذ أتمزرها(77) فقال أفلا أفيدك مالا ؟ قلت إن رأى أمير المؤمنين فذلك عادة فضله، فدعا بداوة وقرطاس فكتب، ولا أدرى ما كتب، ثم قال إذا أردت أن تترب الكتاب كيف تأمر ؟ قلت أقول يا غلام أترب الكتاب، قال فهو ماذا؟ قلت مترب، قال فمن إسحائه ؟ قلت أقول يا غلام : اسح الكتاب، قال فهو ماذا ؟ قلت مسحى، قال : فمن الطين ؟ قلت أقول ياغلام طن الكتاب وأطن الكتاب، قال فهو ماذا ؟ قلت مطين ومطان، فقال أترب وأسح وأطن، وامض به إلى الفضل بن سهل، فلما أوصلته له قال : بما استحققت أن يأمر لك أمير المؤمنين بخمسين ألفا ؟ فقصصت عليه الحديث، فقال لحنت أمير المؤمنين، فقلت ما لحن إلا هشيم، فأعطاني الفضل أربعين ألفا أخرى من عنده.

رجوعا إلى ما كنا بصدده، قال ابن قتيبة : فإن جعل عليه براية من العيدان التي تسقط عند نشرها قيل أشره تأشيرا، ووشره توشيرا، ونشره تنشيرا، لأنه يقال : أشرت الخشبة ووشرتها ونشرتها وهو المئشار بالهمزة والميشار من غير همزة والمنشار بالنون، ويقال لما يسقط منه الأشارة والوشارة والنشارة والذي يفعل ذلك الآشر والواشر والناشر، والعود مأشور وموشور ومنشور، ويقال سحوت الكتاب سحوا وسحيته سحيا، إذا قشرت منه قشرة، واسم تلك القشرة سحاءة وسحاية وسحاة، والجمع سحاءات وسحايات وسحاء مكسور ممدود وسحا مفتوح مقصور وسحايا وكذلك القطعة الصغيرة منه، فإذا شددته بسحاءة قلت سحيته بالتشديد تسحية، ويقال للسحاة التي يشد بها خزامة، وقد خزمته فهو مخزوم، ويقال لها أيضا إضباره وضبارة بكسر الضاد، وقد ضبرته بالتخفيف وضبرته بالتشديد والإضبارة أيضا صحف تجمع وتشد، ويقال : وحيت الكتاب أحيه وحيا فأنت واح إذ كتبته، وأوحيت فأنت موح، وقد قيل في تفسير قوله تعالى : (فأوحى إليهم أن سبحوا) أي كتب إليهم، قال الشاعر :

ماهيج الشوق من أطلال   أضحت قفارا كوحي الواحي

---

(77) في (ش) و (ف) أريضة أتزرها.

ويقال للخطوط التي يكتبها الكتاب والصبيان ويعرضونها ليرى أيهم أحسن التناشير(78) والتحاسين، ويقال للكاتب اذ أسقط شيئا من كتابه، قد أوهمت إيهاما، فإذا غلط قيل له وهمت وهما بالفتح على مثال وجلت وجلا، فإذا أراد شيئا وذهب وهمه إلى غيره، قيل له، وهمت تهم وهما ساكن الهاء على مثال وزنت تزن وزنا.

وللكتاب أسماء وقع الاصطلاح عليها من اللغويين، فمنها ما يعم جميعها، ومنها ما يخص بعضها، فمن الأسماء العامة الكتاب والصحيفة فإنهما يقعان على جميع أنواعها، وليس كذلك المصحف لأن هذا الاسم لا يوقعونه في المشهور المتعارف إلا على الكتب السماوية المنزلة على الرسل، وقد يستعمل في غير ذلك وهو قليل، وأما القنداق والزمام والأوارج والاخدندج، وهو القنداق فلا تستعمل إلا في الكتب المتصرفة في الخدمة وحساب الخراج والعمال، ويقال من الأوارج أرجت تأريجا وورجت توريجا، والرسائل لا تستعمل إلا في المخاطبات والمكاتبات، والوثائق والسجلات لا تستعمل إلا في الكتب المتصرفة في مجالس القضاة والحكام، وقد تستعمل السجلات في كتب السلاطين، والعهدة لا تستعمل إلا في كتب الأشرية، والصكوك والقطوط الغالب عليها أن تستعمل في كتب الولايات والإقطاعات والإنزالات والمحاشاة عن الوظائف والكلف، وربما استعملت في غير ذلك، والأشهر استعمالها فيما ذكرناه، قاله العلامة أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي في الاقتضاب وقد جرت العادة في الأكثر ألا يقال سفر إلا لما كان عليه جلد، وأما الدفتر فيطلق على المجلد وغيره، واشتقاق السفر من قولهم أسفر الصبح إذا أنار كأنه يبين الأشياء كما يبينها الصبح، وهذا الاشتقاق يوجب أن يقال : السفر لكل ما كتب، ولكن العادة بما ذكرناه قبل.

وأما الطبع والختم فإنه يقال طبعت الكتاب أطبعه طبعا وختمته ختما واقفته اقفا، ويقال للذي يطبع به طابع وطابع وخاتم وخاتم بالفتح والكسر، وأما الرجل الذي يطبع ويختم فطابع وخاتم بالكسر لا غير، ويقال للطابع أيضا مطبع، وفي الخاتم الذي يختم به لغات، خاتم وخاتم وخيتام وخاتام

(78) في (ف) تأشير بدل التناشير.

وختام وختم، وقول الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختم

اختلفوا في قوله وعليها ختم، فقال قوم أراد الخاتم، وقال آخرون إنما ختم فعل ماض أراد وختم عليها وأما الطين الذي يختم به فيقال له ختام وجرجس وجولان وجعر، قال تعالى {ختامه مسك} وقال امرؤ القيس :

ترى أثر القرح في جلدتي كما أثر الختم في الجرجس

وقال ملحة الجرمي :

كان قرادى صدرها طبعتهما بطين من الجولان كتاب أعجم

وقال أبو رياش : إن الجولان في هذا البيت موضع بالشام، وذكر أبو عمر المطرز : أن الجعرطين خاتم القاضي، ويقال أكرمت الكتاب اذا ختمته، قال بعض المفسرين في قوله تعالى {إلقي إلي كتاب كريم} أي مختوم، ويقال لخاتم الملك الحلق والهجار، قال المخبل السعدي يذكر أن رجلا من قومه أعطاه الملك النعمان بن المنذر خاتمه :

وأعطي منا الحلق أبيض ماجد سليل ملوك ما تغب فواضله

وقال الأغلب العجلي :

ما إن رأينا ملكا أغارا أكثر منه قرة ونارا
وفارسا يستلب الهجارا

وذكر المطرز أن الهجار خاتم القاضي، وذكر أشياء كأنها مخصوصة بالقاضي، وهي جائزة في غيره، ويقال للقاضي : الفتاح والفتوحة والحكومة، والقواري عدوله، والخول أمناؤه، وأحدهم خائل، والهداهد أصحاب مسائله، والمنافدون وكلاء خصومه وأحدهم منافد، قال والدرانية حجابه، والمثالي كاتبه، والنون دواته، والمجزأة سكينه، والمزابر أقلامه، والبوهة صوفة مداده، والزبرة قمطر المحاضر، والأوصار السجلات واحدها وصر، يقال هذا وصري وخذ وصرك، والسلاب سواد القاضي، والساج طيلسانه، والأخدرية قلنسوته، والمقطرة مجمرته، واللية بخوره، أنشد عليه ثعلب :

لا تصطلي ليلة ريح صرصر إلا بعودلية ومجمر

والسندل جوربه إذا كان من خرق، فإذا كان من صوف رقيق فهو المسماة، وإذا كان من كتان فهو الغلالة، والميزل خفه، والتلوة بغلته، والبساط حصيره، والحسبانة وسادته، والهجار خاتمه، والجعرطين خاتمه، ويقال طنت الكتاب إذا جعلت عليه طينا، وتأمر من يفعل ذلك فتقول : طن الكتاب فإن أكثرت من ذلك فقل طينت، ويقال لما يجعل فيه الطين ميطنة(79) وأما الطابع الذي يطبع به الدنانير والدراهم فيقال له روسم، قال كثير :

إلى النفر البيض الذين وجوههم دنانير شيفت من هرقل بروسم

وأما العنوان فيقال فيه عنوان وعلوان وعنيان، يقال عنونت الكتاب أعنونه عنونة وعنوانا فهو معنون، وعنته أعونه عونا فهو معون، وعننته أعننه تعنينا فهو معنن، وعننته أعنه عنا فهو معنون، وعنيته أعنيه تعنية فهو معنى، وعنوته أعنوه عنوا فهو معنو وأفصحهن عنونته فهو معنون قال الشاعر :

ضحوا*بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا(80)

وقال آخر :

رأيت لسان المرء رائد عقله وعنوانه فانظر بماذا تعنون

فالعلوان باللام مشتق من العلانية، والعنوان بالنون مشتق من عن الشيء يعن إذا عرض، والواو على هذا زائدة، ووزنه فعوال، وقد قيل إنه مشتق من قولهم عنت الأرض تعنو إذا ظهر فيها النبات، ويقوى هذا القول ما ذكرناه من قولهم عنوت الكتاب وعنيته، فيلزم على هذا أن يكون وزن عنوان فعلان، وتكون الواو أصلا والنون زائدة، وهو عكس القول الأول، ويلزم على هذا أن تكون اللام في علوان بدلا من النون كما قالوا في جبريل جبرين، واما من قال عننته وعننته بالنون فلا يكون في هذه اللغة إلا من عن يعن إذا عرض، وتكون الواو في علوان زائدة، واللام في علوان

(79) بكسر الميم.

(80) في (م) و (ش) ضحوا.

بدلا من النون، لا يصح غير ذلك، ومن قال عنته أعونه على مثال صغته أصوغه فإنه مقلوب من عنوته أعنوه، وقد قال قوم إن العنوان مشتق من العناية بالأمر لأن الكتب في القديم كانت لا تطبع، فلما طبعت وعنونت جعل القائل يقول من عني بهذا الكتاب، ولقي عني كاتبه به، وهذا الاشتقاق لا يصح إلا على لغة من يقول عنيان بالياء ولا يليق بسائر اللغات انتهى وقال قوم آخرون أصل العنوان الأثر، وبه سمي عنوان الكتاب، واحتجوا بقول الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

وهذا القول فيه نظر لأنه يلزم في العنوان الذي هو الأثر من الاشتقاق ما يلزم في عنوان الكتاب.

وأما الديوان فإنه اسم أعجمي عربته العرب، وأصله دوان بواو مشددة، فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها، ودل على ذلك قولهم في جمعه دواوين وفي تصغيره دويوين، فرجعت الواو حين ذهبت الكسرة، ومن العرب من يقول في جمعه دياوين بالياء قال الشاعر :

عداني أن أزورك أم عمرو دياوين تشقق بالمداد

قال ابن السيد البطليوسي هكذا رويناه بالياء، وفي ديوان شذوذ عما عليه جمهور الأسماء في الاعتلال من وجهين : أحدهما أن الواو الساكنة إنما تقلب ياء للكسرة التي قبلها إذا كانت غير مدغمة في مثلها، نحو ميزان وميعاد، فإذا كانت مدغمة في مثلها صحت نحو اجلواذ واعلواط، والوجه الثاني أن الواو والياء من شأنهما في المشهور المستعمل من صناعة التصريف أنهما إذا اجتمعتا وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء، نحو لويته ليا، وطويته طيا، ونحو سيّد وميت، والأصل في تسميتهم الديوان ديوانا أن كسرى أمر الكتاب أن يجتمعوا في دار ويعملوا حساب السواد في ثلاثة أيام وأعجلهم فيه واطلع عليهم لينظر ماذا يصنعون، فنظر إليهم يحسبون بأسرع ما يكون، وينسخون ذلك، فعجب من كثرة حركتهم، فقال أي ديوانه معناه هؤلاء مجانين، وقيل شياطين، فسمي موضعهم ديوانا واستعملته العرب وجعلوا كل محصل من علم أو شعر ديوانا. وروي عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما

أنه قال : إذا قرأتم شيئا من القرآن ولم تعرفوا ما غريبه فاطلبوه في شعر العرب، فإنه ديوانها، ويقال لخاتم الديوان الفيج وقد فيجت فلانا جعلته فيجا، والفيج أيضا الذي يحمل الكتب من بلد الى آخر، وأما فوجت بالواو فمعناه جمعت فوجا من الناس.

وأما البراءة فهي في الأصل مصدر من قولك برئت من الأمر براءة وبراء أي تبرأت منه تبرؤا، ويقال فلان بريء من ذلك، وهما بريئان، وهم برءاء على وزن ظرفاء، فإذا قلت هو براء بفتح الباء لم تثن ولم تجمع لأنه مصدر وصف به، ويقال قوم بِراء بكسر الباء على وزن ظِراف، وبراء بفتح الباء وبراء بضمها، وهو اسم للجمع بمنزلة تُوَام جمع تَوأم وَعراق جمع عرق، وهو العظم بما عليه من اللحم، ونوق بساط وهي الناقة(81) معها ولدها، ولم يأت شيء من الجمع على فعال إلا ثمانية ألفاظ هذه بعضها ويروى بيت زهير :

إليكم إننا قوم براء

بالفتح والكسر والضم، فأما البراءة المستعملة في صناعة الكتابة فسميت بذلك لمعنيين أحدهما : أن يكون من قولهم برئت إليك من الدين براءة أعطيتك ما كان لك علي، وبرئت إليه من الأمر براءة اذا تخليت له عليه، فكأن المرغوب يتبرأ من الراغب مما أمله لديه، ويتخلى له عما رغب فيه، وقيل إنما كان الأصل في ذلك أن الجاني كان إذا جنى جناية يستحق عليها العقوبة ثم عفا عنه الملك كتب له أمانا مما كان يتوقعه ويخافه، فكان يقال كتب لفلان براءة أي أمانا، ثم صار مثلا استعير في غير ذلك.

قال في الاقتضاب : وقد جرت عادة الكتاب ألا يكتبوا البسملة في أول البراءة اقتداء بسورة براءة التي كتبت في المصحف بدونها، واختلف في العلة في عدم كتابتها فيها، فقال قوم : وهو رأي محمد بن يزيد المبرد، لم يفتتح بها لأن باسم الله افتتاح للخير، وأول براءة وعيد ونقض للعهد، وسئل أُبَي بن كعب رضي الله عنه : ما بال براءة لم تفتتح ببسم الله الرحمان الرحيم ؟ فقال : لأنها نزلت في آخر ما نزل من القرآن، وكان صلى الله عليه وسلم يأمر في كل سورة ببسم الله، ولم يأمر في براءة

(81) انظر "الاضاءة"

فضمت الى الأنفال، لشبهها بها، يعني لأن أمر العقود مذكور في الأنفال، وهذه نزلت بنقض العهود، فكانت ملتبسة بها.

وأما التوقيع فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك أو من له أمر ونهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه، بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك : ينفذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح، وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب : لترد لهذا ظلامته، ولينظر في أمر هذا، ونحو ذلك، وكما يروي عن جعفر بن يحيى بن خالد أنه رفع إليه كتاب يشتكي فيه بعامل، فوقع على ظهره : يا هذا، قد قل شاكروك، وكثر شاكوك، فإما عدلت، وإلا عزلت، وقال الخليل بن أحمد : التوقيع في الكتاب إلحاق فيه بعد الفراغ منه، واشتقاقه من قولهم وقعت الحديدة بالميقعة، وهي المطرقة إذا ضربتها، وحمار موقع الظهر أصابته في ظهره دبرة، والوقيعة نقرة في صخرة يجتمع فيها ماء، قال ذو الرمة :

وقلنا سقاطا من حديث كأنه جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع

فكأنه سمي توقيعا لأنه تأثير في الكتاب، أو لأنه سبب إلي وقوع الأمر وإنفاذه من قولهم أوقعت الأمر فوقع.

وأما التاريخ فيقال أرخت الكتاب تاريخا، وهي أفصح اللغات، وورخته توريخا، فهو مؤرخ ومورخ، وأرخته مخففة الراء أرخا، فهو مأروخ، وهي أقل اللغات، والتاريخ نوعان : شمسي وهو المبنيّ على دوران الشمس، وقمري على دوران القمر، وكان المتقدمون يسمون الحساب القمري خَسْرَمَان، وتاريخ العرب هو القمري، وهو الذي يجرى به العمل. عند الفقهاء في الأحكام الشرعية، وكانت العرب تؤرخ بالكوائن العظام، والحوادث المشهورة، من قحط أو خصب، أو قتل رجل عظيم، أو موته، أو واقعة مشهورة، قال الربيع بن ضبع الفزاري :

ها أنذا آمل الحياة وقد أدرك عمري ومولدي حُجُرا
أبا امرئ القيس هل سمعت به هيهات هيهات طال ذا عُمُرا

وقال آخر :

" أزمان تناعى الناس موت هشام "

يعني هشام بن الوليد المخزومي، وقال النابغة :

فمن يك سائلا عني فإنني من الشبان أيام الخنان(82)

وقال حميد بن ثور الهلالي :

وما هي إلا في إزار وعلقة مغار بن همام علي حي خثعما(83)

وكانوا يؤرخون بعام الفيل والفجار، وبناء الكعبة، وبين الفيل والفجار عشرون سنة، وسمي الفجار لأنهم فجروا فيه، وأحلوا أشياء كانوا يحرمونها، وبين الفجار وبناء الكعبة خمس عشرة سنة، وبين بناء الكعبة ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم خمس سنين.

وكانت الفرس تؤرخ بالوقت الذي جمع فيه أزدشير ملك فارس بعد أن كانوا طوائف، ولم يكن في صدر الإسلام تاريخ إلى أن ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فافتتح بلاد العجم، ودون الدواوين، وجبى الخراج، وأعطى الأعطية، فقيل له ألا تؤرخ ؟ فقال : وما التاريخ ؟ فقيل شيء كانت تفعله الأعاجم، يكتبون في شهر كذا من سنة كذا، فقال عمر هذا شيء حسن، فأرخوا، فقال قوم نبدأ بالتاريخ من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قوم بل من وفاته، وقال قوم بل من الهجرة، ثم أجمعوا على الابتداء من الهجرة في شهر ربيع الأول، وكان مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، فقدم التاريخ على الهجرة بشهرين، واثنتي عشرة ليلة، وكانوا يكتبون شهر رمضان وشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، فيذكرون الشهر مع هذه الثلاثة الأشهر، ولا يذكرونه مع غيرها من الشهور، والشهور كلها مذكرة الأسماء إلا جمادى الأولى والثانية، وهي كلها معارف جارية مجرى الأسماء الأعلام انتهى.

(82) في (ف) من الشباب، وهو مخل بالوزن.

(83) في (ف) عقلة بدل علقة.

وهو القلم والمزبر بالزاي، والمذبر بالذال المعجمة، سمي بذلك لأنه يزبر به ويذبر أي يكتب، وقد فرق بعض اللغويين بين زبرت وذبرت، فقال : زبرت بالزاي كتبت، وذبرت بالذال قرأت، وسمي قلما لأنه قلم أي قطع وسوي كما يقلم الظفر، وكل عود يقطع ويحد رأسه ويعلم بعلامة فهو قلم، ولذلك قيل للسهام أقلام، قال الله تعالى {إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم} وكانت سهاما مكتوبا عليها أسماؤهم، ويقال للذي يقلم به مقلم، ولما يبرى به مبرى، ومبراة، وقد بريته أبريه بريا، وحصرمته حصرمة، عن ابن الأعرابي، ويقال : لما يسقط عن التقليم القلامة، وعن البرى البراية، وجمع القلم أقلام وقلام، كجبل وجبال وأجبال، وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ فجعل يفكر ويقلب أصابعه وينظر فيها، فقال : لا أدري فقيل له توهمه في نفسك، فقال عود قلم رأسه وجوانبه، كتقليم الأظفر، ويقال لعقده الكعوب، واحدها كعب، فإن كانت فيه عقدة تشينه وتفسده فهي الأبنة، ويقال لما بين العقد الأنابيب واحدها أنبوب، والمقالم واحدها مقلم، والأنابيب والكعوب تستعمل أيضا في الرماح، وفي كل عود فيه عقد، وكذلك الأُبَنُ، فإن كان في القصبة أو العود تأكل، قيل فيه قادح وفيه نقد، وكذلك في السن والقرن قال جميل :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى   وفي الغر من أنيابها بالقوادح

وقال الهذلي :

تيس تيوس إذا يناطحها   يألم قرنا أرومه نقد

ويقال لباطنه الشحمة، ولظاهره الليط، فإن قشرت منه قشرة قلت تليطت من القلم ليطة، أي قشرتها، والليط أيضا اللون، قال أبو ذؤيب :

" صلاة طيب ليطها واصفرارها "

ويقال للقصب اليراع والأباء، وقال قوم : الأباء أطراف القصب، والواحدة يراعة وأباءة، قال متمم بن نويرة يذكر فرسا :

ضافي السبيب كأن غصن أباءة   ريان ينفضه اذا ما يقدع

ويقال للقطن الذي يوجد في جوف القصبة البيلم والقنصف، والفشغ، واحدها بيلمة، وقنصفة وفشغة، فإن كان فيه عوج فذلك الدرء وكذلك العود، قال الشماخ :

أقام الثقاف والطريدة درأها كما أخرجت ضغن الشموس المهامز

الطريدة خشبة صغيرة فيها حديدة تسوى بها الرماح ونحوها، ويقال لغشائه الذي عليه الغلاف واللحاء والقشر، فإذا نزعته قلت قشرته وقشوته وقشيته ولتمته ولفأته وكشأته ولحوته ولحيته وسجفته وسحيته وسحوته وجلفته وجلهته ووسفته ونقحته، ويقال لطرفيه اللذين يكتب بهما : السنان واحدها سن، والشعيرتان واحدتهما شعيرة، فإذا قطعت طرفيه وهيأته للكتابة قلت : قططته أقطه قطا وقضمته أقضمته قضما والمقط بالكسر ما يقط عليه، والمقط بالفتح الموضع الذي يقط من رأسه، قال أبو النجم :

"كأنما قط على مقط"

وقال المقنع الكندي يصف القلم :

يحفى فيقضم من شعيرة أنفه كقلامة الأظفور في تقلامه

فإذا انكسرت سنه قيل : قضم يقضم قضما، كحذر يحذر حذرا، وكذلك كل تكسر في سن أو سيف أو رمح أو سكين، فإن أخذت من شحمته بالسكين قلت : شحمته أشحمه شحما، فإذا أفرطت في الأخذ منها قلت : بطنت القلم تبطينا، وحفرته حفرا، وقلم مبطن ومحفور، واسم موضع الشحمة المنتزعة الحفرة، فإذا تركت شحمته ولم تأخذ منها شيئا قلت أشحمته إشحاما، ويقال للشحمة التي تحت برية القلم الضرة، شبهت بضرة الإبهام، وهي اللحمة التي في أصلها، كذا قال ابن قتيبة في آلة الكتاب وهو المعروف، ولكنه خالف في أدب الكتاب، فقال : الألية اللحمة التي في أصل الإبهام، والضرة اللحمة التي تقابلها، فإن جعلت سني القلم الواحدة أطول من الأخرى قلت قلم محرف، وقد حرفته تحريفا، وإن جعلت سنيه مستويتين قلت : قلم مبسوط وقلم جزم، فإن سمع له صوت عند الكتابة فذلك الصريف والصرير والرشق، ويقال قلم مذنب بفتح النون أي طويل الذنب، فإذا كثر المداد في رأس القلم حتى يقطر المداد قيل : رعف

القلم يرعف رعافا شبه برعاف الأنف، ومج يمج مجا وأرعفه الكاتب إرعافا وأمجه إمجاجا، ويقال للكاتب استمدد ولا ترعف، ولا تمجج ولا تمج أي لا تكثر من المداد حتى يقطر، ويقال للخرقة التي يمسح بها الكاتب الوقيعة بالقاف وتقدم لنا عن أبي عمرو الشيباني أنها الوفيعة بالفاء.

المقصد السادس في الكاتب

ليس المراد هنا بالكاتب خاصة الإنسان الماخوذة في رسمه بقولهم : الحيوان الكاتب، فإن ذلك بالقوة، وهذا بالفعل، بل المراد بالكاتب هنا مقابل الشاعر، كما يقال فلان كاتب وفلان شاعر، فالأول ناثر، والثاني ناظم، ويشترط في كل منهما البلاغة التي هي المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة، وليس كل من نظم الكلام يقال له شاعر، ولا كل من كتب وإن كان خطه في غاية الحسن والتقويم يقال له كاتب، فظهر بهذا أن المرسل البليغ هو الكاتب، سواء كان يكتب كما يراد منه مثل العماد الاصفهاني، أو كما يريد فقط مثل القاسم الحريري، وأما الذي يحسن الخط وتقويم الحروف وهو خال من غير ذلك، فهو قال فيه ابن قتيبة في أدب الكتاب : معرضا بكتاب زمانه وتنقيصهم وهجوهم ما نصه : "فأبعد غايات كاتبنا اليوم في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف" انتهى. قال الزجاجي في حواشيه : هذا إنما أنكره على من اقتصر من الكتاب على تحسين الخط دون ما سواه من الأدب ورأى أنه قد تناهى في الكمال إذ حسن خطه، وهو لعمري كما قال منكرا على من كان هذا مذهبه، ورآه فخرا ورضي به مرتبة، لأنه إنما هو في ذلك الحال بمنزلة مزوق نقاش، وليست هذه من المنازل التي يرضى بها كاتب عاقل في نفسه، فأما حسن الخط فمحمود في الجملة، يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله عز وجل {أو أثارة من علم} قال الخط الحسن، وقال جل ذكره في الحكاية عن يوسف عليه السلام {اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم}، قال : كاتب حاسب وقال بعض المفسرين في قوله تعالى {يزيد في الخلق ما يشاء} هو الصوت الحسن، وقيل الخط الحسن، ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الخط الحسن يزيد الحق وضوحا"(84) وقال بعض العلماء :

(84) لم نقف على تخريجه.

"من جلالة القلم أنه لم يكتب الله كتاب إلا به"، وقيل : "اللسان أكثر هذرا، والقلم أبقى أثرا، والكتاب يقرأ في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، وقال بعض أذكياء الحساب : وزن القلم من حساب الجمّل نفاع، وذلك أن الألف بواحد، واللام بثلاثين، والقاف بمائة، واللام بثلاثين، والميم بأربعين، ومجموع ذلك مائتان وواحد، وكذلك نفاع النون خمسون، والفاء ثمانون، والألف واحد، والعين سبعون، فذلك مائتان وواحد، فقد استوى حسابهما، وقد أكثر الناس في مدح الكاتب والقلم، وأتوا في ذلك بكل عجيب، فمن ذلك قول أبي تمام الطائي في الوزير محمد بن عبد الملك المعروف بالزيات، وهو من أجود ما قيل في القلم والكاتب، وهو هذا :

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... يصاب من الأمر الكلي والمفاصل
لك الخلوات اللاء لولا نجيبها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأري الجنى اشتارته أيد عواسل
له ريقة طل ولكن وقعها ... بآرائه في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن ناطقته[85] وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف الرماح وقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل[86]
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وشددت[87] ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنافل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ... ضنى وسمينا خطبه وهو ناحل

وقال القطامي[88] :

لك القلم الذي لم يجر يوما ... بغاية منطق فكبا بعيّ
ومبتسم على القرطاس يأسو ... ويجرح وهو ذو بال رضيّ
فما المقدار أعضب من شباه ... ولا الصمصام سيف المذحجيّ

---

(85) في ((م) أنطقته بدل ناطقته.
(86) في الديوان "أطاعته أطراف القنا وتقوضت".
(87) في (ف) وفدته بدل رفدته.
(88) القطامي هو عمير بن شييم من جشم أبو سعيد التغلبي الملقب بالقطامي، شاعر غزل فحل، كان من نصارى تغلب في العراق، وأسلم وذكر له في "معاهد التنصيص" طائفة حسنة من أخباره توفي سنة 130 هـ 727 م "الأعلام" للزركلي ج 5 ص 88 وفيه مصادر ترجمته.

وقال أبو بكر بن دريد :

نحيل جليل الخطب أخرس ناطق يزف بنات اللب طوعا الى القلب
إذا اليد أصغت لتعمل غربه رأيت بنات الفكر تصغي إلى اللب

ونظر بعض الملوك الى جارية له تكتب كتابا فقال :

وزادت لدينا حظوة يوم أطرقت وبين أصبعيها(89) أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك ينال جسيمات المدى وهو أعجف

قال ابن مقلة : الكتاب على أصناف خمسة : كاتب خط، وكاتب لفظ، وكاتب عقد، وكاتب حكم، وكاتب تدبير، فكاتب الخط هو المورق والمحرر، وكاتب اللفظ هو المرسل، وكاتب العقد هو كاتب الحساب الذي يكتب للعمال، وكاتب الحكم هو كاتب القضاة ونحوهم ممن يتولى النظر في الأحكام، وكاتب التدبير هو كاتب السلطان أو كاتب وزير دولته، وهؤلاء الكتاب الخمسة يحتاج كل واحد منهم الى أن يتمهر في علم اللسان حتى يعلم الإعراب ويسلم من اللحن، ويعرف المقصور والمدود، والفصل والوصل، والمذكر والمؤنث، ويكون له بصر بالهجاء، فإن الخطأ في الهجاء كالخطأ في الكلام، وليس على واحد منهم أن يمعن في علم النحو واللغة إمعان المعلمين الذين صناعتهم وبضاعتهم ذلك، ولا إمعان الفقهاء الذين أرادوا بالإغراق فيه فهم كلام الله تعالى واستنباط الأحكام والحدود والعقائد بمقاييس كلام العرب ومجازاتها وحقائقها، إنما على الكاتب من ذلك ما لا تسعه جهالته، ثم يكثر بعد ذلك من معرفة ما يخص صناعته من ممارسة رسائل الأئمة، كما في ضمن ريحانة الكتاب لابن الخطيب وغير ذلك، قال ابن مقلة ونحن نذكر مراتب الكتاب على ما كانت عليه في الزمن القديم، وأما اليوم فقد تغيرت عن رسمها المعلوم، ولكل دهر دولة ورجال، ولكل حال إدبار وإقبال انتهى.

وحاصل المراتب التي ذكرها إحدى عشرة مرتبة، كاتب الخط، وكاتب اللفظ، وكاتب العقد، وكاتب المجلس، وكاتب العامل، وكاتب الجيش، وكاتب الحكم، وكاتب المظالم، وكاتب الديوان، وكاتب الشرطة، وكاتب التدبير، ولا نحتاج في هذا المحل إلا كاتب التدبير وكاتب الديوان وكاتب الجيش.

---

(89) في (فـ) في بدل بين.

أما كاتب التدبير فهو أعظم مراتب الكتاب لأنه كاتب السلطان الذي يكتب أسراره، ويحضر مجلسه، وهو الذي يدعى وزير الدولة المرجوع إليه في جميع أنواع الخدمة، وهذا أحوج الكتاب المذكورين الى أن تكون له مشاركة في جميع العلوم بعد إحكامه لما يحتاج إليه في صناعته، وينبغي أن يكون أكثر علمه التواريخ وأخبار الملوك والسير والأمثال والأشعار وعيون الأحاديث، وقال ابن رشيق(90) في عمدته ويعرف المنازل القمرية وأعيان النجوم المشهورة، ومن ذلك معرفة حساب فصول السنة ودرجة الشمس من كل {برج}(91) مما ينقص الانسان جهله انتهى، وقال في الاقتضاب : ولا بأس أن يدخل في تضاعيف سطوره جيد الأشعار والأمثال، متمثلا أو مقتضبا، ويصل بذلك حجته اذا حاور، وإنما يحسن ذلك في مكاتبة الأكفاء ومن دونهم، ويكره ذلك في مخاطبة الملوك والوزراء إلا إذا علم أنهم يرغبون فيه، فإن الملوك الى هذه الأنواع من العلوم أميل، وهم بها ألهج وقلما يميلون الى غير ذلك من العلوم، وبالجملة فينبغي لهذا الكاتب أن يعتني بتعلم الأشياء التي يعلم أن رئيسه يميل إليها ويحرص عليها، وأن يتجنب كل ما ينكره الملك وينافره فإن ذلك يحببه إليه ويحظى منزلته لديه، ويدعوه الملك الى الإيثار له والتقريب والإغضاء على ما فيه من العيوب، فقد روى أن زيادا الذي قيل إنه أخو معاوية عوتب في تقريبه لحارثة بن بدر الغداني وكان قد غلب على أمره حتى كان لا يحجب عنه شيئا من سره، فقيل له : كيف تقربه وأنت تعلم استهتاره بشرب الخمر ؟ فقال : كيف باطراح رجل هو يسايرني مذ دخلت العراق ولا تصطك ركابي ركابه، ولا تقدمني فنظرت الى قفاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي إليه، ولا حجب عني الشمس في شتاء قط، ولا الروح في صيف قط، ولا سألته عن علم فظننت أنه يحسن غيره، انتهى. وإذا اجتمع للكاتب مع التفنن في العلوم والمعارف العفاف ونزاهة النفس عن القبائح فقد تناهى في الفضل وحاز غاية النبل إن شاء الله تعالى.

---

(90) ابن رشيق أحد الفضلاء البلغاء صاحب التصانيف المليحة، منها "العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه" قال ابن بسام في كتاب "الذخيرة" بلغني انه ولد بالمسيلة، وتأدب بها قليلا ثم ارتحل الى القيروان توفي 406 هـ وقيل 456 هـ 1015-1063م "وفيات الأعيان" ج 1 ص 366 "شجرة النور الزكية" ج 1 ص 110..

(91) ما بين القوسين ساقط من (م) و (ش).

وأما كاتب الديوان فيحتاج مع ما قدمناه من الأوصاف الي أن يكون عارفا بأصول الأموال التي تحمل الى بيت المال، وأقسام وجوهها، وأحكام الأرضين، ووظائفها، وأملاك أهلها، وما يجوز للإمام أن يقطعه منها، ووجوه تفرقة الأموال وسبلها، وما يجوز في ذلك وما لا يجوز، وما جرت به العادة مما هو خارج عن أحكام الشريعة مبتدع في حكم الرياسة، ووجوه الأموال ثلاثة فيء، وصدقة، وغنيمة، فالفيء يقسم خمسة أقسام : أحدها ما أفاء الله على رسوله وعلى المسلمين مما يوجد في بلاد الكفار بعد فتحها، مثل كنز النجير جان الذي وجد بعد فتح الأهواز وما جرى مجراه، والثاني ما أفاء الله على رسوله وعلى المسلمين من أموال أهل البلاد الذين أجلاهم الرعب ولم يقاتلوا ولم يوجف عليهم بخيل ولا ركاب، والثالث الأرضون التي صالح أهلها عليها بشيء يؤدونه في كل عام، والرابع الأرضون التي فتحت عنوة وأقرت بأيدي أهلها وجعلوا عمالا للمسلمين فيها، وضرب عليهم فيها الخراج كما فعل عمر رضي الله عنه بالسواد، والخامس جزية أهل الذمة، وأما الزكاة فهي الصدقة الواجبة على المسلمين، وقد اختلف المسلمون في الأصناف التي تجب فيها الزكاة اختلافا يطول ذكره، وعلى من تجب الزكاة، وعلى من لا تجب، فينبغي لكاتب الديوان أن يعلم ذلك ويتفقه فيه، وأما الغنيمة فما غنمه المسلمون من بلاد الكفار أو عساكرهم.

وفي أحكام الديوان أمور كثيرة تخالف أحكام القضاة، ولهذا فصلت أحكام الديوان من سائر الأحكام، وذلك أن صاحب الديوان يحكم بالخطوط التي يجدها في ديوانه، ويلزم من نسبت إليه الأموال إذا عرفت والحكام لا يفعلون ذلك ويمضي ضمان الثمار والغلات وسائر وجوه الجبايات ولا يمضي ذلك الفقهاء لأن تضمين الغلة قبل الحصاد ضرب من المخابرة التي نهي عنها، وبيع الثمار قبل ظهور صلاحها من بيع الغرر، وبيع ما لا يملك وقد نهي عن ذلك كله، وأبواب الأموال من الجوالي وغيرها فيه أيضا خلاف لما توجبه الأحكام، لأن الجوالي مال على رقاب بأعيانها، ومتى مات الواحد منهم قبل أن يحل ما عليه أو أسلم بطل ما كان يلزمه، ووجوه الجبايات من الأسواق والعراص والطواحين على الأنهار التي لا ينفرد بملكها إنسان من المسلمين دون سائرهم مخالفة أيضا لما توجبه أحكام الشريعة، وجميع ذلك

جائز عند الكتاب على مذهب أحكام الخراج، قاله العلامة ابن السيد في الاقتضاب، ثم قال ولأجل هذا رأى قوم من الكتاب أن يجعلوا مكان تضمين الغلات {تضمين الأرض}(92) وكانوا يتناولون في ضمان الارحاء أن ماءها ماء الخراج فيجعلون الجباية خراجا، وكذلك في الأسواق فإنهم كانوا يجعلون الجباية فيها لما كانت مشتركة بين المسلمين وأصحاب الدواوين كانوا يجعلون تاريخ سني الخراج بحساب الشمس لا بحساب القمر، لأن الشهور القمرية تنتقل بخلاف الشمسية، وكان كثير من الكتاب إذا ذكروا الحساب الشمسي يزيدون أن يقولوا : ويوافق ذلك من شهور العرب شهر كذا، أو شهر كذا، من سنة كذا من سني الهجرة إذا كان التاريخ عند الحكام بالسنين العربية دون العجمية، وأما كاتب الجيش فيحتاج بعد إتقان الحساب الى معرفة مقادير الأطماع أي الرواتب وأوقاتها وأربابها وضبطهم بالحلى، وكيف توخذ، ويعرف ما يتوفر منها إذا أسقط الأموات والغياب.

المقصد السابع في المكتوب إليه

هذا باب مهم يقع فيه الغلط كثيرا للكتاب لأنهم لا يبالون بمراتب المكاتبين، وهو أمر أكيد يحتاج الكاتب الى معرفة قدر المكتوب له عند الذي يأمره بالكتابة إليه، وما يليق به من التحلية والتكنية والأدعية، والفنونات الأدبية التي تجرى بها المخاطبات بين الأكفاء والأعلى الى الأمثل أو الى الأدني، على حسب ما تقتضيه مرتبة المخدوم الذي يأمر الكاتب بالكتابة.

ومراتب المكاتبين ثلاثة : مرتبة من فوقك، ومرتبة من هو مثلك، ومرتبة من هو دونك، والمرتبة العليا تنقسم الى ثلاثة أقسام : فأعلاها مرتبة الخليفة ووزيره ومن كان نظير الوزير عنده، ثم مرتبة الأمراء ومن جرى مجراهم ممن هو دون الوزير، ثم مرتبة العمال وأصحاب الدواوين، والمرتبة الوسطى تنقسم الى ثلاثة أقسام أيضا : فأعلاها مرتبة الشريف من الأصدقاء والعالم، والثانية مرتبة الشيخ من الإخوان الذي يجب توقيره وإن لم يكن شريفا ولا عالما، والثالثة مرتبة الصديق إذا خلا من هذه الأحوال،

---

(92) ما بين القوسين ساقط من (ف) و (م) و (ش).

والمرتبة السفلى تنقسمم الى ثلاثة أقسام أيضا : أعلاها من قرب محله من محلك، والثانية من لك رياسة عليه ووليته عملا هو من رعيتك فيه، والثالثة مرتبة الحاشية ومن جرى مجراهم من الأولياء والخدم، ولكل طبقة من هذه الطبقات مرتبة في المخاطبة ومنزلة متى زيد عليها أو قصر به عنها وقع في الأمر الخلل وعاد بذلك بالضرر وأدى الى الهزء والمضاحك، وذلك أن الرئيس إذا قصر به عما يستحقه أو يرى نفسه أهلا لذلك أغضبه ذلك وأحنقه، والتابع إذا زيد على استحقاقه أطغاه ذلك وأبطره، إلا أن يكون قد فعل في الخدمة ما يقتضي التنويه رفعه عن تلك المنزلة ومثل هذا يرجع فيه الكاتب العالم الى مراعاة مقتضيات المقام.

ودليل ما ذكرناه في المرتبة العالية ما وقع لصلاح الدين يوسف بن أيوب أمير مصر والشام، حيث كتب لأمير المغرب يعقوب المنصور الموحدي وخاطبه بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين فغضب يعقوب فلم يساعده على ما طلب، وقد تقدم هذا في راية يعقوب المنصور، ودليل ما ذكرنا في المرتبة السفلى ما ذكره المقري في نفح الطيب في ترجمة حريز بن عكاشة بعض أمراء الأندلس قال المقري : كان لحريز كاتب يقال له عبد الحميد بن لاطون فيه تغفل شديد، فأمره أن يكتب الى المامون بن ذي النون في شأن حصن دخله النصارى، فكتب الى أن قال : وقد بلغني أن الحصن الفلاني دخله النصارى إن شاء الله تعالى، فهذه الواقعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم بل هي الحادثة الشاهدة بأشراط الزمان، فإنا لله عن هذه المصيبة التي هدت قواعد المسلمين، وأبقت في قلوبهم حسرة الى يوم الدين انتهى فلما وصل الكتاب الي المامون ضحك حتى وقع على الأرض وكتب لابن عكاشة جوابه، وفيه وقد عهدناك منتقيا لأمورك، نقادا لصغيرك وكبيرك، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجلف، وأسندت إليه الكتب عنك دون أن تطلع عليه، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه ورائد عقله خطابه، وما أدرى من أي شيء يتعجب منه، هل من تعليقه إن شاء الله بالماضي، أو من حسن تفسيره للقرآن ووضعه مواضعه، أو من تورعه عن تأويله الا بتوقيف، أو من تهويله لما طرأ على من يخاطبه، أو من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنه القسطنطينية العظمى ما زاد على تهويله شيئا، ولو أن حقيرا يخفي عن علم الله تعالى لخفي هذا الحصن

ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى، منقطع عن بلاد الإسلام خارج عن سلك النظام، لا يعبره إلا لص فاجر، أو قاطع طريق، باعه أحد حراسه بعشرين دينارا، ولعمري إنه لم يغبن في بيعه ولا ربح مبتاعه، فليت شعري ما الذي أعظمه في عين هذا الكاتب الجاهل انتهى المراد منه الذي تعلق به الغرض، وقد أكمل المقري القصة فلينظرها من أراد قال في الاقتضاب فينبغي للكاتب أن ينزل كل واحد من هذه الطبقات في مرتبته التي تليق به، على قدر منزلته منه، وعلى ما جرت به عادة الكتاب في زمانه، فإن العادة تختلف باختلاف الأزمنة، فيستحسن أهل كل زمان ما لا يستحسنه أهل زمان آخر.

ومن مقتضيات هذا المقصد، أنه يجب على الكاتب أن ينتبه في مخاطبات النساء، فإن في ذلك آدابا تجب مراعاتها، فمن ذلك أنه لا ينبغي للكاتب أن يبدأهن بدعائهن بالكرامة ولا بالسعادة لأن كرامة المرأة وسعادتها موتها، ولا يقال لإحداهن : تمم الله نعمه عليك لأنهن يكرهن أن يكون شيء عليهن، ولا يقال لواحدة منهن بلغ الله أملي فيك، ولا كان هذا يقيني فيك، لاستقباح أن يكون شيء فيهن، ولا يقال لها جعلني الله فداءك، لأن هذا يجري مجرى المغازلة، ولا قوله : كل شيء منك حسن، وبالجملة يجتنب كل لفظة يقع فيها الاشتراك ويمكن أن تتأول في العرف على ما يستقبح، فإن ذلك يعد من نبل الكاتب. ‹ومن ذلك ما حكى أن أعرابيا مدح زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة الرشيد، فقال :

أزبيدة ابنة جعفر طوبى لسائلك المثاب
تعطين من رجليك ما تعطي الأكف من الرغاب

فوثب إليه خدمها وهموا بضربه، فمنعتهم وقالت لهم : إنما أراد خيرا فأخطأ، وهو أحب ممن أراد شرا فأصاب، سمع قولهم شمالك أندى من يمين غيرك، فظن أنه إذا قيل هكذا كان أبلغ، أعطوه ما أمل، وعرفوه ما جهل›(93) والله سبحانه أعلم وأحكم.

(93) ما بين القوسين ساقط من (ف) و (ش).

فيها بعض المواعظ التي تختص بالملوك، وتكف من جماحهم عند السلوك، والمواعظ المنقولة في ذلك كثيرة جدا، كمواعظ الفضيل بن عياض(94) لأبي جعفر المنصور العباسي، ومواعظ الحسن البصري، ومواعظ ذي النون المصري(95)، ومواعظ العمري(96) للرشيد. وكانت المواعظ التي تصدر من هؤلاء السادات رضي الله عنهم شديدة الموقع في القلوب، لأنهم لا يبالون بأحد ولا يخافون في الله لومة لائم، وكان الأمراء والخلفاء يطلبون ذلك منهم، وربما دعوا أحدا منهم لأجل ذلك، فيهرب منهم فيأتونه لبيته ليلا، فإذا أحس بهم أطفأ السراج فيلتمسونه في الظلام بأيديهم، فإذا وجدوه وعظهم على تلك الحالة كما وقع لأبي جعفر المنصور مع الفضيل بن عياض، فإن قلت ان مواعظ الملوك والأمراء اليوم لما فسد الزمان وأهله لا يظهر نفعها إلا إذا تجردوا عما هم فيه، وانخلعوا عنه بالكلية وذلك لا يمكن، فالجواب، ان هذا غير صحيح فإن الذي لا يمكن كله لا يترك كله، فإن الداء المتمكن كل التمكن العسير البرء يعالج ليخف ألمه، وتحد زيادته، وهذه فائدة ظاهرة.

وها نحن نذكر من هذا الدواء ما ترجى بركته، وتدخر ثمرته، ونقتصر من ذلك على النزر الكافي، والقدر المبارك الشافي، من ذلك ما روى عن الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه انه قال : بعث إلي المنصور والى محمد بن طاووس(97) فدخلنا عليه وهو جالس على فرش نضت له، وبين يديه أنطاع قد بسطت، والجلاوزة قائمة بأيديهم السيوف، فأومأ الينا فجلسنا فأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال لابن طاووس : حدثني عن أبيك :

---

(94) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث أخذ عنه خلق، منهم الإمام الشافعي ولد بسمرقند، ونشأ بأبي ورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة توفي سنة 187 هـ 803 م من كلامه : من عرف الناس استراح" (الأعلام) للزركلي ج 5 ص 153، وفيه مصادر ترجمته.

(95) ذو النون المصري، ثوبان بن ابراهيم الأخيمي المصري، أحد الزهاد العباد، من أهل مصر، هو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال، ومقامات أهل الولاية، اتهم بالزندقة ت 245 هـ 859 م (الاعلام) للزركلي ج 2 ص 102 ط 5 وبهامشه مصادر ترجمته.

(96) في حيلة أبي نعيم ج 8 ص 283 حلاه بقوله : ومنهم العابد العدوي الزاهد البدوي عبد الله به عبد العزيز العمري ولم يذكر وفاته، في حين أنه ذكره في الجيش : من مواعظ الرشيد، ثم ذكره ابن العربي في "محاضرة الابرار، ومسامرة الأخيار" ج 1 ص 56. و (سير أعلام النبلاء) ج 8 ص 373 وفيه سنة وفاته 184 هـ 800 م.

(97) الذي عند ابن خلكان، في الوفيات ان المرسل اليه مع الامام، هو عبد الله بن طاووس لا محمد بن طاووس، كما هنا، من ابن خلكان ج 2 ص 195.

فقال له نعم، حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تبارك وتعالى في ملكه فأدخل عليه الجور في حكمه" قال مالك : فضممت ثيابي مخافة أن يصيبها دمه، فأمسك المنصور ساعة ثم قال : عظني يابن طاووس : فقال أما سمعت يا أمير المؤمنين قول الله رب العالمين : {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل} {ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد}. قال مالك : فضممت أيضا ثيابي مخافة أن يملأني دمه، فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسْود ما بيننا وبينه، ثم قال : يابن طاووس ناولني هذه الدواة، فامسك عنه، ثم قال : ناولني ويحك الدواة، فامسك عنه ثم قال : ما منعك ان تناولني الدواة ؟ فقال له أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها، فقال المنصور حينئذ انصرفا، فقال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغ، قال مالك : فمازلت أعرف لابن طاووس فضله، ومازال عليه أثر الخير من هذه المقالة إلى أن توفي رحمه الله تعالى.

ومن ذلك أيضا ما روى أن عمر بن عبد العزيز لما بويع بعث الى الحسن البصري وقال له : اكتب لي صفة الإمام العادل الناجي من عذاب الله، بفضل الله، فكتب إليه : اعلم يا أمير المؤمنين ان الله تعالى جعل الإمام العدل قوام كل مائل، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل كالراعي الشفيق الذي يرتاد لماشيته أطيب المراعي، ويبعد بها عن المراعي المهلكة، ويحميها من أذى السباع وغيرها، وكالأب الحان على ولده يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم لما بعد مماته، وكالأم الشفيقة على ولدها تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته، وكالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، والامام العادل قائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم، وينقاد الى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبذر المال، وأفقر الأهل، وأجاع العيال، وشردهم، واعلم أن الله أنزل

الحدود ليزجر بها عن الفواحش، فكيف الحيلة إذا أتاها من يليها، وأنزل القصاص حياة للعباد، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم. واعلم يا أمير المؤمنين ان لك منزلا غير المنزل الذي أنت به، يطول فيه ثواؤك ويفارقك عنده أحباؤك، فاذكر الموت وما بعده، وقلة أشياعك وأنصارك عنده، وتزود ليوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واحكم بين عباد الله بسيرة السلف الصالح، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فتبوء بأوزارك وأوزارهم، وتحمل أثقالك مع أثقالهم، ولا تنظر الى قدرك اليوم، ولكن انظر الى قدرك غدا حين تقف بين يدي ربك في مجمع الملائكة والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلما، واعلم اني يا أمير المؤمنين وان لم أبلغ من حقك في عظتي ما بلغه أولوا النهى قبلي فلم آلك شفقة ونصحا، فاجعل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له بذلك من العافية، والصحة والسلام عليك ورحمة الله وبركاته انتهى.

ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وهو أمير علي العراقين في يوم شديد الحر، وبلال في بيتة، وعنده الثلج، فقال له بلال : يا أبا عبد الله كيف ترى بيتنا هذا ؟ فقال : إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلهي عنه، قال : فما تقول في القدر ؟ فقال : على جيرانك أهل القبور ففكر فيهم، فإن فيهم شغلا عن القدر، قال ادعو الله لي ؟ قال : ما تصنع بدعائي وعلى بابك كذا وكذا من خلق الله، كل واحد يقول : إنك ظلمته، ودعاؤهم يرتفع قبل دعائي، فلا تظلم أحدا، فلا تحتاج الى دعاء أحد انتهى.

هذه المواعظ يجب أن توخذ بالقوة والشدة على النفس، بحيث لا يقع بها ميل الى رخصة، ولكن لا ينبغي أن تبلغ الى القنوط واليأس من رحمة الله العفو الغفور الرحيم، فإنه ما قوبل شيء برحمة الله الا ضاق واتسعت الرحمة، لا سيما لهذه الأمة، نعم من طمع في رحمة الله فليرحم خليقة الله، فإنه ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : "الراحمون يرحمهم الله"(98) وورد أيضا "من لم يرحم الناس منعه الله من

---

(98) رواه البخاري.

رحمته"(99) وورد "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"(100) وفي حديث قدسي : ما يمنع من القنوط وما يدل على سعادة من رجاؤه برحمة الله منوط يقول مولانا تبارك وتعالى [يابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان ولا أبالي، يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يابن آدم إنك لو أتيت بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة](101).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه وفي 5 ربيع الأول عام 1283 هـ رزقنا الله خيره ووقانا شره آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. انتهى.

---

(99) رواه البخاري ومسلم والترمذي بألفاظ متقاربة.

(100) رواه البخاري ومسلم والترمذي بألفاظ متقاربة.

(101) رواه الترمذي.

تذكير :

ما هو أسفله مكرر وذلك بالجزء الأول ص 318

الإكرام ، وكان عزم على التوجه معنا لملاقاة السلطان ، ثم عرض ما منعه من ذلك فأقمنا عنده ثلاثة أيام ، ووجه معنا أخاه السيد عبد القادر وكتب لخدامه أولاد جامع أن يوجهوا معي عشرة من الخيل ، وقال لأخيه يعطيني البغلة التي عنده أركب عليها لأنها حسنة السير ويرجع هو على التي ركبت عليها وكلتاهما للشيخ المذكور ، فلما بلغنا أولاد جامع ركب معي الخيل وذهبنا حتى وافينا السلطان برصانة على مرحلة من القصر ، وكان أراد التوجه ليربط على تطوان ، فلما جلست بين يديه وهو يسألني عن الأمور المتقدمة شيئا فشيئا ، وكنت أنا بفاس حاضرا لجميع ذلك من أوله إلى آخره، فشرحت ذلك كله على حقيقته ، فوجدته كان يعتقد أن أهل فاس وأهل العصبية فيهم هم أصحاب الأموال والأصول والتجار، مع أنه ليس كذلك، وإنما أهل فاس وأهل العصبية منهم قوم يقال لهم الرماة لا يظهرون إلا في وقت السيبة والفتنة، وأما في وقت الأحكام فإنهم خامدون لا بال لهم، فإذا كان وقت ظهورهم كان أهل الأموال والأصول تحت ذمتهم الإكرام...

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريـــظ

نحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ونشكرك شكرا يؤذن بازدياد برك وبجزيل امتنانك وسئلك بجاه داتك أن ترسل سحائب صلواتك وتسليماتك وسوابغ رحماتك وبركاتك على روح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الأرواح وعلى جسده في الأجساد وعلى قبره في القبور ثم على أرواح آل بيته الطاهرين وأصحابه حماة الدين وعلى أرواح أتباعهم وأتباع أتباعهم من كل من رفع للعلم رمحا وأبدي به لدى الظّلماء صبحا.

وبعد

فقد طالعت كتاب الجيش العرمرم الخماسي لمؤلفه العالم العلامة النحرير الدراكة الفهامة البدر المنير سيدي أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي رحمه الله وقدس سره مع تحقيق شيخنا وقدوتنا أستاذ المحققين الذي يعد ممن تلقوا راية العلم باليمين، عين أعيان قطره وفخر علماء عصره سيدي أحمد بن يوسف الكنسوسي متعنا الله بطول بقائه ونفع المسلمين بعلمه، وقد أضفى هذا التحقيق على الكتاب رونقا دل على ما للمحقق من قدم راسخة في العلم وتبحر واسع فيه.

أقول طالعت الكتاب المذكور فألفيته بحرا طاميا وكوكبا هاديا. لا جرم أنه أنهل فأروى وجمع فأوعى وسيلقى لدى كل ذي لب ما يلقي الحبيب من المحب ويحل من ذوي الفضل محلا لم يكن حل من قبل، فرأيت على ما أنا عليه من الشغل المحتدم والفكر الغير منتظم أن أسطر هذه السطور إقرارا لما لهذا السفر المسطور والعمل المبرور من مكانة علمية فائقة.

والله نسأل أن يجعل هذا العمل الجليل في ميزان الشيخين الجليلين الجد والحفيد وان يتغمد الأول بواسع رحمته وأن يطيل بقاء الثاني في عافية وسرور إنه على كل شيء قدير.

د. الشيخ ولد حرمة ولد بابانا العلوي

مراكش في الخامس من شهر رجب الحرام 1416

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيدنا محمد اشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

اذا قلنا بان "الجيش العرمرم الخماسي" كتاب في تاريخ الدولة العلوية الغراء فإنه يعتبر عمدة لابد منها في التعريف بالحقيقة التي شارك مؤلفه رحمه الله في احداثها، وقدم شهاداته حولها، وتفاعلت مشاعره معها.

وبالاضافة الى كون "الجيش" كتاب في تاريخ المغرب السياسي، فإنه مؤلف متعدد المقاصد والمحتويات، فهو كتاب الملك والملوك وتدبير شؤون الرعية واستتباب الأمن وتوحيد البلاد، كتاب تفسير وحديث وفقه، وكتاب في الأبحاث اللغوية العميقة والمناظرات الأدبية البديعة والأوصاف البلاغية المثيرة.

وان مما أغنى مضمون الكتاب الشمولي، ويسر مناولته، وتمم محاسنه، وجعله موثوقا به أكثر، تقديمه في طبعة منقحة جيدة، روجعت على مخطوطات خاصة ونسخ متداولة وغير متداولة، ولقد عززت هذه الطبعة كذلك بإيضاحات وتعليقات وترجمات وتخريج للأحاديث النبوية الشريفة، فاكتسب الكتاب رونقا ودقة وأهمية تناسب مقام الابهة والعظمة التي سخر لها :

وإذا سخر الإله اناسا　　　لسعيد فإنهم سعداء

ان ما قام به استاذنا الجليل، سيدي احمد حفظه الله. يعد مفخرة للعلم والعلماء ومحط اعجاب لنا نحن طلبة العلم الابرار في ربوع هذه الديار، كعادته، وفقه الله، في احترام رأي الآخر لم يفرض على القارئ نظرة النص المعين الضيقة، ولو كان أساسها النسخة الأصلية التي احتفظ بها خلفا عن سلف، بل احالنا رعاه الله على الخلافات الواردة في النسخ المختلفة التي عثر عليها، وأثبتها بكل أمانة، ودعانا لأعمال فكرنا وتحقيق الكتاب بأنفسنا وتكوين رأينا. لقد فتح لنا، جازاه الله خيرا، وبكل

موضوعية، فضاءات أوسع لقراءة كتاب "الجيش العرمرم الخماسي" من منطلقات جديدة.

نفعنا الله بثمرة هذا المجهود القيم، وأثاب القائمين على هذا العمل كما هو أهله، وألهمنا الصواب في السر والعلن، والحمد لله رب العالمين.

(محمد) عثمان فضلي
مراكش في ١٣ محرم ١٤١٧ / ٣١ ماي ١٩٩٦

فهرس الجزء الثاني

صفحة


المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي - مراكش
☎ 30-37-74 فاكس: 30-49-23

فهرس الاعلام
بالجزء الثاني



تم بحول الله وقوته الجزء الأول من الجيش العرمرم الخماسي ويليه الجزء الثاني وأوله : الراية الحمراء المشرقة اللون التي لها من الله التأييد والعون، في دولة مولانا عبد الرحمن بن مولانا هشام بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل رحمه الله .

ويليه إن شاء الله الجزء الثالث المشتمل على ترجمة مؤلف الجيش مؤرخ الدولة العالية المحفوظة بعين الرعاية الربانية محمد بن أحمد الكنسوسي قدس الله روحه .

وقبل كل شيء وبعد كل شيء تحت ظل الراية العلوية المنصورة بالله وكما هي تحت حماية حامي الملة والدين عالم الملوك وملك العلماء جوهرة عقد الدولة ووارث أخلاقها وفضائلها المنصور بالله مولانا الحسن بن مولانا المقدس بطل الأبطال محرر الأمة المغربية بمغربها العزيز مولانا محمد الخامس أكرمه الله بما يستحق من الدرجة المرفوعة بنور اليقين في جوار جده مولانا محمد صلى الله عليه وسلم في جنة الفردوس ، آمين .